سلسلة إبداعات أدب الأقليات الصينية

قصص قصيرة

江南回回

طبعة جديدة

شا مين نونغ

واحة الشمال



ترجمة: بيت الحكمة

بيت الحكمة

واحة الشمال

قصص قصيرة جدًا

تأليف: شا مين نونغ

ترجمة: بيت الحكمة

مراجعة: آلاء إبراهيم

اسم الكتاب: واحة الشمال
(سلسلة إبداعات أدب الأقليات الصينية)

المؤلف: شا مين نونغ
المترجم: بيت الحكمة
رقم الإيداع: 29144/2017
ر.د.م.ا.ع.: 9789776533974
الناشر: بيت الحكمة للاستثمارات الثقافية

مجموعة بيت الحكمة للثقافة
174 شارع التحرير- ميدان التحرير- القاهرة
ت: 20223936038+ 201030328888+
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com

تم نقل حقوق الترجمة بموجب العقد الموقع مع
الناشر الأصلي بالصين 宁夏人民出版社

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا
تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى
والمكتبات بالدول العربية والعالم.

للطلبيات والحجز:
Tel./ Whatsapp: +201030965555

الإشراف العام
د. أحمد السعيد

مدير التحرير
عمرو مغيث

تصميم الغلاف
محمد حسام

فريق العمل في الصين
تشانغ شين
ما تشياو نا
وانغ هاي تشينغ

حقوق الطبع
والتوزيع محفوظة
©baytalhekma

لا يجوز نسخ أو استخدام أي جزء من هذا الكتاب سواء بالتصوير أو الطبع أو إعادة إنتاجه عبر أي وسائط مسموعة أو مرئية أخرى، أو عبر أي من وسائط تسجيل واسترجاع البيانات دون إذن كتابي من الناشر، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية.

واحة الشمال

江南回回

تأليف

شا مين نونغ

沙黾农

سلسلة "إبداعات أدب الأقليات الصينية"

الناشر الأصلي بالصين

دار نشر الشعب بنينغشيا

宁夏人民出版社

المؤلف

شا مين نونغ، ولد في مدينة نانجينغ عام 1949، ينتمي إلى قومية هوي.. هو إعلامي بامتياز، فهو أستاذ زائر بجامعة سيليكون فالي بالولايات المتحدة الأمريكية، وأستاذ زائر بقسم الإعلام بكلية جينلين جامعة نانجينغ، وشغل منصب نائب رئيس التحرير لجريدة "النبأ العاجل العصرية"، وهي من الصحف المهمة التابعة لوكالة شينخوا، كما أسس أربع جرائد مختصة بأوراق المال: جريدة "الأوراق المالية لجيانغنان" تحت إشراف جريدة الشعب اليومية، وجريدة "مرجع الأوراق المالية" تحت إشراف وكالة شينخوا، وجريدة "حكمة الأوراق المالية" تحت إشراف جريدة شانغهاي للأوراق المالية، وجريدة "سوق الأسهم في الثامنة صباحًا" تحت إشراف جريدة آسيا والمحيط الهادئ الاقتصادية، وتولى منصب رئاسة تحريرها، وقد نُشر له من قبل كتاب "99 قصة فكاهية قصيرة لشا مين نونغ"، و"أنا أيضًا يمكن أن أصبح محلل أسهم"، و"رسائل الصفصاف"، وغيرها من الكتب.. ومن بين هذه المؤلفات حاز كتاب "99 قصة فكاهية قصيرة لشا مين نونغ" على "جائزة الحكومة" لمدينة نانجينغ في دورتها الأولى، وقد تصدر شا مين نونغ قوائم الكُتّاب في مسابقات القصة القصيرة جدًا التي أقيمت في مناطق عدة، كما حول العمل المسرحي "البحث عن الرجل" الذي ألفه شقيقه التوأم شا يه شين إلى مسلسل تلفزيوني، ثم إلى فيلم سينمائي.. ومنذ أكثر من عشرة أعوام صار عدد غفير من القراء يتابعون "مدونة شا مين نونغ ـ سوق الأسهم في الثامنة صباحًا"، وكان له قراء ومعجبون في كل أنحاء الصين، فقد وصل عدد المتابعين لمدونة شا مين نونغ على موقع أخي الصغير شا مين نونغ سينا وسوجو أكثر من ثمانية ملايين قارئ، كما وصل عدد المتابعين له على موقع سينا ويبوه والكيوكيو نحو أكثر من 650 ألف متابع، وبلغ عدد متابعيه على حسابه العام بتطبيق الويتشات نحو 35.6 ألف متابع.

شا يه شين: أخي الصغير شا مين نونغ

إذا أردت أن تعمل توصية لشخص يمتلك خبرة وكفاءة عالية، قم بذلك حتى إن كان هذا الشخص أحد أقاربك، ولا تكترث لما قد يقوله الآخرون، فإذا كان الاختيار على أساس موضوعي، فهناك الجيد وهناك السيئ، فما العيب في ذلك؟

أنا ومين نونغ شقيقان، ولكني أكبره بعشرة أعوام، عندما التحق مين نونغ بالمدرسة الابتدائية أمسكت بيده وذهبت معه لتسجيل اسمه بالمدرسة، ولقد اخترت له هذا الاسم بنفسي، وهو ما يعكس شدة الترابط والأخوة بيني وبينه منذ الصغر، فأنا أخوه الأكبر وفي منزلة أبيه أيضًا، لذلك دائمًا ما ينتابني نحوه الشعور بالمسؤولية، ولكن أي مسؤولية؟ أهي التربية والرعاية؟ في الواقع أنا لم أفكر كثيرا بهذا الأمر من قبل، كما أنني لا أملك القدرة الكافية لتحمل هذا النوع من المسؤولية، وكل ما وصل إليه ذهني هو الحب والاهتمام، فعندما كنت طالبًا في المرحلة الإعدادية وكان هو بالمرحلة الابتدائية، لم أكن أعلم كيف أعبر له عن مشاعري نحوه بأسلوب واضح، فقط أستطيع أن أعلمه الشطرنج، أو نذهب للهو معًا ونشتري بعضًا من التمر، أو أجلب له بعضًا من الفول السوداني.

في ذلك الوقت لم يخطر ببالي أبدًا أن شقيقي، الذي يشبهني كثيرًا، سيشاركني جميع هواياتي مثل لعب الشطرنج وحل الألغاز ومشاهدة أوبرا بكين وأكل البط المملح، وحبنا للتباهي وروح المرح والفكاهة التي تطغى علينا، بالإضافة لشغفنا بالسفر من مكان لآخر، ومهاراتنا الكتابية الرائعة.

في عام 1971 بدأ مين نونغ الكتابة، وأصدر أول عمل أدبي له، وتضمنت أعماله: الشعر، والنثر، والتقارير الصحفية الأدبية، وسيناريوهات الأفلام، فقد كان يكتب ويدرس في آن واحد، لذا لم تكن أعماله عديدة أو عالية الجودة، فهو أديب شاب مستكشف.

أكثر ما يعشقه مين نونغ هو القصص القصيرة جدًا، حيث يكتب تقريبًا كل أسبوع قصة تمتاز بطابع خاص من خلال حبكة الموضوع واللغة السلسة، والتي يمكن أن نراها في "صحيفة القصص القصيرة المختارة"، و"العالم القصصي"، و"أدب شانغهاي" و"حديقة باي هوا" و"يوي هوا" و"الأمل" و"الأسرة"، وغيرها من الصحف من هذا القبيل.

وفي عام 1989 جمع مين نونغ القصص التي كتبها في مجموعة أدبية باسم "تسع وتسعون قصة فكاهية قصيرة لشا مين نونغ"، وتم كتابة مقدمة لها

وتقييمها وترشيحها على أنها مجموعة جيدة، وذلك من قِبل عدة كَتاب مشهورين مثل قاو شياو شنغ وباي هوا وليو يي تشانغ.

وقد تم حاليًا نشر قصة قصيرة أخرى لمين نونغ تحت عنوان "جيانغ نان هوي هوي"، وقد دعاني أخي لكتابة مقدمة لهذه القصة، فأخذت القلم بكل بهجة وسرور لأقدم له خالص التهاني وأصدق الأمنيات.

ولأن قاو شياو شنغ وثلاثة كُتاب آخرون أثنوا على كتاباته الأدبية، قمت فقط بتكملة النقص في القصة القصيرة جدًا.

وتتسم القصص القصيرة جدًا الخاصة بمين نونغ بالتفرد من خلال حبكة الموضوع، وهذا شيء في حد ذاته جيد ونادر، لكنه يسعى لهذا النوع من التفرد بشكل متعمد فقط ليُشعر القارئ بنوع من الغرابة والاختلاف.

وتتسم الأعمال القصصية لمين نونغ بسهولة القراءة والعمق والفكاهة وغيرها من الأحاديث الممتعة المضحكة، ولكن عليه أن يستمر في التطوير والتقدم، وأن يرقي مكره إلى حكمة وذكاء، ويرقي المتعة والتشويق إلى حكمة بها شيء من الفكاهة.

لم نفترق أنا وأخي منذ الطفولة حيث كبرنا وترعرعنا معًا، وأشتد عودنا معًا، وسنمضي أيضًا إلى آخر العمر معًا، وحتى هذا اليوم لا يزال حبه يملأ قلبي وكياني، كما هو الحال تجاه قصصه القصيرة جدًا.

***

تهنئة

قبل ثلاث سنوات، وفي يوم عيد ميلادي، أرادت زوجتي أن تشتري لي كعكة عيد الميلاد، لكنها مرضت؛ فذهبت أنا لشراء الكعكة.

في محل المأكولات أمام منصة البيع، اشتريت الكعكة، وبينما كنت أستعد للذهاب، وجدت بجانبي فتاة تعيد الكعكة للبائع لأنها لم تحضر نقودًا كافية، فدفعت اثنين "جياو" بدلًا عنها، فبدا عليها الإحراج، فحملت الكعكة، وأصرت أن تسأل عن اسمي وعنواني كي ترسل النقود لي، فلم أخبرها، وسألتها:

ـ أتأتين هنا في العام المقبل في اليوم نفسه لشراء كعكة عيد الميلاد؟

ـ نعم، فهذا اليوم من كل عام هو عيد ميلادي.

ـ أتشترين كعكة عيد الميلاد لنفسك؟!

أومأت برأسها: أدرس بالجامعة في نانجينغ بمفردي، فلا مفر من ألا أشتري الكعكة لنفسي.

فأخبرتها أن اليوم هو عيد ميلادي أيضًا، فكادت أن تطير من الفرحة، وبدت مثل طفلة في غاية البراءة.

على الرغم من اختلاف أعمارنا، فقد ولدنا في مثل هذا اليوم من التاريخ، فأدى ذلك إلى تقاربنا من بعضنا.

ـ هيا لنتبادل كعكاتنا، لنعبر عن تهنئة كل منا للآخر بعيد ميلاده.

كانت فكرتها رائعة جدًا، وفي أثناء تبادل الكعكتين، شعرت كأنني أشهد أعظم مراسم في العالم.

الأمر بسيط جدًا، لم أترك اسمي ولا عنواني وافترقنا، وبعد بضعة أمتار التفتنا في الوقت نفسه، ورفعنا أيدينا اليمنى عاليًا ولوحنا بهما، ثم رفعنا أيدينا اليسرى لننظر إلى الساعة. في العام الثاني والثالث التقينا في الميعاد نفسه عند منصة البيع لمحل المأكولات، وتبادلنا الكعكات.

أما هذا العام، ذهبت مجددًا لشراء كعكة عيد الميلاد لنفسي لكني لم أجد الفتاة.. ربما تكون قد تخرجت أو انتقلت إلى مدينة أخرى، ولكن أيما كانت الفتاة في تلك اللحظة فأنا على ثقة أنها تتمنى لي عيد ميلاد سعيدًا، تمامًا كما أتمنى لها ذلك.

* * *

الـصـغـيـر

في صباح ذلك اليوم ارتدى دا لين زيه العسكري الجديد، وشرع يجري في القرية من شرقها إلى غربها قاصدًا إياها حتى يودعها، ولكنها تعمدت ألا تفتح الباب، واكتفت بفتح النافذة، وما إن وقف دا لين أمام النافذة حتى صدر صوت "طقطقة"، فقد التقطت خلسة صورة له، وطبعت نسختين من هذه الصورة، احتفظت بواحدة، وأعطت الأخرى لدا لين.

وفي مساء ذلك اليوم حملت خطابها واتجهت نحو صندوق البريد الذي يقع على بُعد عشرة أمتار، وبمجرد رؤيتها لساعي البريد أطالت النظر فيه لمدة تجاوزت النصف ساعة، وأخذت تتلفت حول صندوق البريد عدة مرات وهي لا تود أن تلقي بكلمة واحدة من خطابها في ذلك الصندوق.

وعلى الرغم من أن الظلام أوشك أن يعم فإنها لا تزال مصرة على أن تعود بخطابها إلى البيت وتأتي به ثانية في صباح اليوم التالي، رغم أن ذلك قد يستغرق ساعتين ذهابًا وإيابًا.

لكن هذا الظرف بداخله صورة لحبيبها، فكيف تسمح أن تجعله يقضي ليلة في ظلمة ذلك الصندوق؟!

***

موضة

إعلان للبحث عن شريك حياة..

ابنة عمي، خمسة وعشرون عامًا، فتاة حسناء، ذات وجه بيضويّ مشرق، رقيقة المشاعر ومرهفة الحس. منذ خمسة أعوام تم نقلها للعمل بشرق المدينة، وبعد عامين أصرت على أن تنقل عملها لغرب المدينة، وقد كان.. ومنذ مدة قصيرة أرادت أن تعود للعمل بشرق المدينة مرة أخرى، وطلبت مني أن أكتب ذلك الإعلان، بل أنشره أيضًا قدر المستطاع، وذلك لأنها تسكن بوسط المدينة، وتستقل السيارة كل يوم ذاهبةً إلى العمل، وفي حالة عملها بشرق المدينة ستتعرض لأشعة الشمس الحارة كل يوم في الصباح، وعند انتهائها من العمل ستتعرض أيضًا لأشعة الشمس في الغروب، ومع مرور الوقت ستتأثر بشرتها ويتغير لونها، أما في حالة العمل بغرب المدينة ستتقي ضوء الشمس في الذهاب وفي الإياب، وتحافظ على نضارة بشرتها.. مؤخرًا، اكتشفت ابنة عمي أنهم بالخارج يعدون البنت سمراء الوجه جميلة، فالفتيات يرتدين ملابس السباحة ويبقون بالشمس لتغيير لون بشرتهم؛ فانتقلت على الفور لتعمل بشرق المدينة.

من يوافق على الارتباط بهذه الفتاة العصرية، بل يتفق أيضًا معها في وجهة النظر تلك، عليه مراسلتنا على قسم الإعلانات والعلاقات العامة بشركة يوه جين.. رجاءً، لا داعي للزيارة.

***

نال ما تمنى

كان حلمه الأعظم أن يصبح معلمًا، ولكن عدم حصوله على دبلومة تعليمية ظل حائلًا دون تحقيق ذلك الحلم، ففي الحين الذي يزداد فيه عدد المعلمين في المدارس الابتدائية والمتوسطة عامًا بعد الآخر، وقف هو عاجزًا متيقنًا أنه لن يحين دوره هو الآخر ليعمل مثلهم.

وحينها سمِع أن "معهد لوشون للأدب والفنون" ببكين يسعى لضم طلاب عن طريق المراسلة "الدراسة عن بُعد"، وكان الشرط الوحيد لتسجيل الأسماء هو دفع 40 يوانًا فقط، وسرعان ما اندرج اسمه في قائمة طلاب "معهد لوشون للأدب والفنون".

كان المعهد يرسل له شهريًا مظروفًا به المواد التعليمية، ولكن نظرًا لصعوبة وصول البريد لبلدته التي تتميز بوقوعها في منطقة مائية، ترتب على ذلك إرسال المواد التعليمية أولًا إلى محطة الإذاعة التابعة لحكومة البلدة، ومن ثم يتم إبلاغه عن طريق ما تبثه الإذاعة من برامج بوصولها؛ وبهذا الشكل اعتاد المذياع كل شهر إذاعة هذه العبارات: "الرجاء من السيد سو يوي شنغ الانتباه، لقد أرسل لك معهد لوشون المواد التعليمية، رجاء سرعة المجيء لتسلمها".

ودرس سويو في معهد لوشون لمدة ثلاثة أعوام متصلة، وعلى هذا النحو استمرت الإذاعة في ترديد تلك العبارات الفائتة ثلاث وثلاثين مرة؛ فأصبح حتى الأطفال يعرفون أن هناك شخصًا يُدعى سويو يدرس في معهد يسمى "معهد لوشون للأدب والفنون".

واستمر ذلك حتى وجد ذلك العام منصبًا شاغرًا لمعلم لغة صينية في البلدة، فقال مدير المدرسة: "استدعوا السيد سو يوي شنغ سريعًا، فلقد درس لعدة أعوام في معهد لوشون للأدب، أليس هذا كافيًا ليصبح معلمًا للغة الصينية في المدرسة المتوسطة؟".

***

إرشادات غذائية

منذ زمن ليس ببعيد، كان هناك شخص أعزب ثري، مولع بالقراءة والهوايات غير المألوفة، قرر أن يبتاع لنفسه ثماني زجاجات من الحليب، ولكن ما السبب في ذلك؟ الإجابة: وجد اختلافًا بين إرشادات التغذية الموجودة بالجرائد حول أفضل طريقة للحصول على القيمة الغذائية من الحليب، حيث ذكر بعضهم أن شرب الحليب في الصباح الباكر له فائدة غذائية كبيرة، وأشار آخرون إلى أهمية شربه ليلًا للحصول على فائدته الغذائية، وآخرون قالوا إنه من الجيد تناوله على معدة فارغة، وعلى العكس قال بعضهم إن تناوله بعد الطعام أفضل، وهناك من ذكر أنه من الجيد إضافة بعض السكر للحليب، ومن ناحية أخرى قال آخرون إن شرب الحليب دون تحليه يصبح أكثر فائدة، وغيرهم أشار إلى أهمية شرب الحليب الطازج، وأشاد البعض بأهمية غليه قبل تناوله، وقال آخرون...

لكن في النهاية، كيف لي أن أحصل على القيمة الغذائية من الحليب؟ حسنًا، من الأفضل أن أشتري ثماني زجاجات من الحليب كي أتجنب فقدان قيمته الغذائية.

***

سبب مزاولة التجارة

قبل عامين، في أثناء موجة ازدهار التجارة، قام بعض الناس مازحين بترتيب طبقات المجتمع حسب أهميتها، وكان ذلك شائعًا في خمسينيات القرن الماضي، فتم تحويلها من "العمال والفلاحين والتجار والمثقفين والجنود" لتصبح "العمال والفلاحين والجنود يدرسون التجارة"..

لدي صديق عملَ مترجمًا للآداب الأجنبية منذ عدة سنوات، وقد صدرت له أعمال مترجمة للعديد من الكُتّاب المشهورين مثل تولستوي وبوشكين وغوركي وغيرهم من الأدباء المرموقين، لكنه ترك هذا المجال فجأة، واتجه إلى تجارة الروايات العسكرية وبيعها بالجملة.. ذات مرة أرسلت خطابًا له أسأله فيه عن سبب هجرته مجال الترجمة واتجاهه للتجارة، فأرسل لي خطابًا به ثلاث كلمات فقط: "بو شي جين"!

أخذت أنظر للخطاب طويلًا وأفكر في معنى تلك الكلمات كثيرًا، لكن دون جدوى؛ فطلبت استشارة أحد البارعين في فك الألغاز وحل الأحجية، ففهم المقصد من تلك الكلمات بمجرد رؤيتها، وقال لي موضحًا: الرمز "بو" يعني نطاق واسع، و"شي" تعني الأمل، أما "جين" فتعني المال، فكان صديقي يعني من هذه الكلمات الثلاث "أمُل أن أحصل على المال على نطاق واسع".

* * *

الزواج ورياح الخريف

مرضت آسانغ، واشتد عليها المرض حتى لزمت الفراش، فمكثت في المستشفى ثلاثة أيام.. لكن الغريب أن أحدًا لم يأتِ لزيارتها، فأين ذهب أولئك الرجال الذين كانوا يسعون للحصول عليها واحدًا تلو الآخر؟! ذلك الشاعر الجنوبي الذي قال إنه يحبها وسيظل يحبها دائمًا وأبدًا، وإذا مر يوم دون أن يراها سيغرق في شرب الخمر حتى النسيان، وذلك الأستاذ الجامعي الذي أقسم لها باصطحابها معه إلى أمريكا بمجرد تحقيقه النجاح والشُهرة، ومدير شركة التجارة الخارجية الذي كان يُقبلها تحت ظلال شجرة الجميز، وذلك... فأين ذهبوا جميعًا؟!

في ذلك الحين كانت آسانغ تذهب بتفكيرها بعيدًا، ففكرت في والديها، وندمت في البداية على ذهابها إلى العاصمة بمفردها والمشاركة في فريق عارضات الأزياء، وكانت تفكر أيضًا في الصحبة الجيدة التي كانت تجمعها بأعضاء فريق عارضات الأزياء، فمن المحتمل أن يكنَّ قد وصلن الآن إلى ماليزيا أو سنغافورة، وما يشغل تفكيرها أيضًا ذلك الشاعر الجنوبي والأستاذ الجامعي ومدير شركة التجارة الخارجية.. وتصرخ: وا أسفاه! ما الذي يحدث؟!

فمن أين كان لـ آسانغ أن تعرف أنه عندما اتصل ذلك الشاعر الجنوبي بالمستشفى ليستفسر عن الجناح الماكثة فيه ورقم الغرفة وحالة المرض، فرد عليه الطبيب المساعد مهرولًا دون صبر: "أي مرض؟ المرض المزمن؟"، ولكن ذلك الشاعر سمِعها "أي مرض؟ المرض التناسلي!"

استشاط الشاعر غضبًا، فقد أجزم بأن ذلك من فعل المدير أو الأستاذ الجامعي، فراح يبحث عن كل منهما على حدةٍ، وما إن وصل لهما حتى كاد أن يتشاجر معهما.. وبعد ذلك، ربما غضب ثلاثتهم، أو شعروا بالحزن والأسف، أو تهربوا من الأمر.. وفي النهاية لم يرغب أحد منهم في توريط نفسه بهذه الفضيحة المحتملة.

حان وقت الزيارة مرة أخرى، فمدت آسانغ رأسها خارج النافذة علها تجد مَن تعرفه، فلم ترَ سوى جمع من الناس يحملون العلب والزجاجات وأكياس الطعام، ولم تجد بينهم وجهًا مألوفًا لها، فدست رأسها بالوسادة، حيث لم تستطع رؤية أسرَّة المرضى حولها وهم محاطون بالأهل والأصدقاء. بللت آسانغ جزءًا كبيرًا من غطاء الوسادة، وبدت أشبه بالجمبري المتكور على السرير، غير أنها كرهت أن تتقلص في ذاتها أكثر من ذلك، فحينها ستصبح كقطعة الثلج التي تذوب حتى تتلاشى تمامًا.. يا إلهي!.. لم يأتِ أحد لزيارتها، وهذا ما لم تستطع تحمله، بل إنه يولّد لديها شعورًا بالخزي والإهانة.

كان يصعب عليها أن تتحمل مرور ليلةٍ أخرى وهي لا تزال تنتظر أحدًا يأتي لزيارتها، حتى ولو ليلقي عليها نظرةً عابرةً، فقد كانت في هذه اللحظة بحاجة إلى أن يحتضن أحدهم يديها الصغيرتين براحة يده، يلاطفها ويداعبها، كانت بحاجة إلى أن تجعل نفسها أشبه بالقارب الصغير الذي أبحر بعيدًا يرسو على كتف رجل؛ إذ كانت تنوي الزواج من الرجل الذي يأتي ويقف أمام فراشها لزيارتها. واليوم، كالسابق لم يأتِ أحدٌ لزيارتها.

وفي الأيام القليلة التي أعقبت ذلك اليوم.. لم يأتِ أحد لزيارتها أيضًا. لكن، برئت آسانغ من مرضها، وذلك بفضل الدواء الذي ساعدها على استعادة نشاطها واسترداد حيوتها، فقد ذهب عنها المرض أخيرًا.

عادت آسانغ لحياتها السابقة، ووجدت أن جميع المكالمات الهاتفية كانت من الشاعر الجنوبي ليعبر عن ندمه الشديد وتفكيره المستمر وباله الذي لم يهدأ، وذلك الأستاذ الجامعي الذي يشكو ويتذمر من سهولة إيمانه بالشائعات ومن عدم نضجه الكافي، ومدير شركة التجارة الخارجية أيضًا.. وتعبر عن أسفها الشديد لخسارة تلك الفرصة الجيدة في هذه المنافسة. حينها، رأت أن هؤلاء الرجال ما هم إلا أطفالًا، لم يجدوا للنضج سبيلًا!

وأرسل والدا آسانغ خطابًا لها يسألانها عن موعد زواجها، فردت عليهما وقالت: "هبت رياح الخريف على البستان، فاكتست الأغصان بالبرتقال الأصفر والتفاح الأخضر وثمرة الليتشي الحمراء، وحينما تهب رياح الخريف على الحقول، تمتلئ حقول الأرز بالسنابل الثقيلة، أما أنا فستغمرني رياح الخريف عما قريب"!

***

يا إلهي، ألم يُنشر؟

"لا مستحيل على أهل العزيمة؟".. هذا كلام فارغ، حتى إن كان لديك عزيمة وإرادة فلن يحالفك النجاح!

مضت سنوات عديدة وأنت منكب على الكتابة، ولم يُنشر لك حرف واحد، فإن كنت تستطيع نشر جزء من قصة كتبتها، أو حتى جملتين منها، فسأقدم لك رأسي.. وانظر إلى ابننا يبكي وأنت لا تُعره اهتمامك، أهي مسؤوليتي وحدي؟ إن لم تهتم به فسأدكه بالملح دكًّا حتى ينتهي أمره..

حسنًا، يمكنك أن ترعى الصغير وأنت تكتب، غير أن ما الفائدة من كتاباتك؟ انظر إلى جارنا لاو لي، أصبح مشهورًا وله قيمة، استطاع أن ينشر كل ما كتبه، ويرسل باستمرار الأموال لزوجته، أما أنت.. كل شهر تصرف يوانين على الورق، خمسة ماوات أخرى على ورق الكربون، غير طوابع البريد، أهناك أحد يتولى نفقاتك؟ أنت تنفق فقط ولا تكسب، فكيف لم تزل مقبلًا على الكتابة هكذا؟! انظر حولك، لا أحد يريد قراءة ما تكتبه.

أما زلتَ تكتب؟! لا حياة لمن تنادي! الكلام يدخل من الأذن ويخرج من الأخرى! حسنًا! قصصك لم ترَ النور، فاكتب كلامي، ولكن ما الفائدة من كلامي؟ أمِن الممكن أن يُنشر كلامي؟

* * *

اجتماع لدقيقة واحدة

وقعت أحداث هذه القصة قبل حلول عيد الربيع بيومين، عندما عُلقت إعلانات على أبواب الورشة تخبر المتزوجين بضرورة حضورهم اجتماعٍ مهم، ولكن لا أحد يعلم مضمون الاجتماع.

وحينما بدأ الاجتماع وقف السيد لي قائد فريق العمل وقال: سيلقي السيد ليو كلمته باجتماع اليوم، ومن المعتاد أن يستغرق السيد ليو وقتًا طويلًا لإلقاء كلمته، لكن كلمته اليوم لن تتجاوز دقيقة واحدة، غير أنه لم يصل حتى الآن، لذا فلنستغل هذا الوقت لتنشيط عقولنا، سأطرح عليكم ثلاثة ألغاز ومن يحلها له جائزة، فلدى ثلاث قطع من الحلوى، من يوافق على هذا الاقتراح يدلي بموافقتِه، ومن لا يرغب لا يصدر صوتًا.

وطرح السيد لي الفزورة قائلًا: لقد حضر الاجتماع اليوم واحد وثلاثون شخصًا، وأنا أعرف منهم جيدًا ثلاثين فقط.. فلتخمنوا، ما الحكمة المشهورة التي تُقال لتحديد النسل؟ بورشة العمل العديد من العمال يعشقون الفوازير، لذا صرخ السيد تشين بصوت عال قائلًا: إنجاب طفل واحد فقط! "أجل! إنجاب طفل واحد فقط".. قالها السيد لي وأعطاه قطعة من الحلوى، ازداد النشاط بساحة الاجتماع بين العمال، حتى من كان لا يرغب في اللعب بدأ في التحدث وإصدار الأصوات.

على الجميع التزام الهدوء وعدم إثارة الفوضى.. وما تكملة هذه الحكمة؟ فإن هذه الحكمة ترمز للغز آخر. العديد من العمال رفعوا أيديهم بالإجابة قائلين: "السيطرة على الشعب"، قسم السيد لي قطعة الحلوى الثانية ووزعها على من أجاب على الفزورة. رفع السيد لي صوته قائلًا: الفزورة الثالثة، إذا وقفنا عند الطفل المخطط إنجابه، فالعجلة تتكون من جزأين، ما هما؟ قال أحد العمال متعجلًا: إطار العجلة. فقال السيد لي: فكروا مرة أخرى، فالإجابة لا تخلو من كلمة إطار. "الإطار الخارجي والفرامل" ووضع السيد لي قطعة الحلوى الثالثة بيد المجيب. حينها ظهر المدير ليو فجأة عند باب المكتب، وتأمل الجميع ثم نظر إلى ساعة يده وقال: قد قص عليكم السيد لي فحوى اجتماع اليوم، فأتمنى من الجميع في أثناء فترة العطلة، وخاصة الزملاء الذين سيزورون أقاربهم بالخارج، ألا ينسوا أبدًا خطة تحديد النسل التي يدور فحواها حول إجابات تلك الألغاز! أنجب طفلًا واحدًا، السيطرة على الشعب، الإطار الخارجي والفرامل.. فقد انتهى اجتماع اليوم!

حينها نظر شخص لساعة يده فوجد أن الاجتماع بالفعل لم يتجاوز دقيقة واحدة، وبإضافة وقت تصفيق العمال إليه سنجد أن الاجتماع استغرق دقيقتين!

***

وجهات النظر السبع

في أثناء عقد اجتماع تسمية الشركة الاجتماع الكبير لمجموعة الشركات المتقدمة، دُعي السيد رئيس الشركة لاعتلاء المنصة، لكنه أسرع بالجلوس، وعندما أوشك الاجتماع على البدء، لاحظ السيد دا لي صاحب النظرة الثاقبة والمتولي مهام مكتب أعمال الشركة أن السيد الشاب وانغ رئيس قسم الميكانيكا يجلس في الصف الأخير في الاجتماع، وعندها تدخَّل السيد دا لي وطلب من السيد وانغ الصعود إلى المنصة.

وعندما حان وقت بدء المناقشة، بدأ أحد عشر مديرًا بالشركة بالتحدث، فتناول بعضهم الحديث عن أربع وجهات نظرٍ، وتناول البعض الحديث عن خمسة مطالب، بينما أضاف البعض الآخر ست رؤىً مختلفة.

عندئذٍ قال السيد دا لي بصوتٍ عالٍ: والآن، دعونا نرحب ترحيبًا حارًا بكلمة السيد وانغ. فأزاح السيد وانغ الميكروفون بعيدًا عنه قائلًا: زملائي الأعزاء، أود أن أتحدث معكم اليوم عن سبع وجهات نظر. وعندما سمع المتابعون له هذا الكلام تنهدوا تنهيدة عميقة، فأردف قائلًا: وجهة النظر الأولى هي: كما حدث في اجتماع اليوم، فلم نحتج أن نطلب من السادة الرؤساء الزملاء أن يعتلوا المنصة حتى وجدناهم يسارعون بالجلوس، وعلاوةً على ذلك لم تكن هناك ضرورة لجعل كل رئيس من الرؤساء يلقي كلمة.

حينها بدأ جانب من المستمعين بالتصفيق تحيةً له. فأكمل السيد وانغ حديثه معليًا نبرة صوته قائلًا: في البدء أخبرتكم أني سأحدثكم اليوم عن وجهات نظرٍ سبع، وقد حدثتكم للتو عن واحدة وتبقى ستة وجهات نظرٍ، والستة المتبقين هي، بإيجاز: وجهة نظر، وجهة نظر، وجهة نظر، وجهة نظر، وجهة نظر.. وبهذا أكون قد أنهيت كلامي.

فانطلق حينها صياح المستمعين وتصفيقهم له كالرعد حين انتهى من إلقاء خطابه.

* * *

مشبك معدني صغير

وصلت رسالةٌ من أبي! يخبر أمي فيها أنهم قد نالوا نيشانًا جماعيًا من الدرجة الثالثة، بالإضافة إلى مكافأته بنيشان فردي من الدرجة الثانية عن توليه قيادة سرب طائرات مشاركًا في إطفاء حرائق غابات منطقة دا شينغ آن لينغ، وقال أبي إن النيشان نصفه له ولأمي النصف الآخر. فزممت شفتاي سائلةً أمي: أمي، لأبي نصف النيشان ولكِ النصف الآخر، وليس لي ولو أقل القليل؟ ضحكت أمي وقالت مربتةً على جديلتي: لينغ لينغ، في المدرسة أنتِ قائدة فريق الطلائع، وفي البيت أنتِ "وزيرة الدعم اللوجستي"، كلما سمح لكِ وقتك ساعدتني في إعداد الطعام، وغسيل الملابس، حتى كدت لا تجدين فراغًا للالتفات من مشاغلك الكثيرة، وخففتِ عني ووالدك عبء مسؤوليات المنزل، فبالتأكيد لإنجازاتك نصيب في النيشان العسكري.

"ولكن..." قلتها وأنا أتظاهر بالغضب، وقد ارتفعت شفتاي المذمومتان أكثر وأكثر، فلعلي أخرج بفائدة ما.

"إذن..." ارتكزت أمي على ركبتيها، واحتضنتني قائلة: إذن نقسم النصف الذي يعود إليَّ من النيشان إلى نصفين.

سألتُ أمي متعمدةً مزاحها: وأحصل أنا على الربع؟ أومأت أمي برأسها.

"أنا لن أقبل بهذا!" عدَّلتُ أسلوبي فجأة.

سألتني أمي: فما الحل إذن؟

فتحت ذراعيَّ مُحتضنةً أمي بقوة، وانهمرت بالقبل على وجنتيها، ثم ألصقت فمي بأذنها هامسة: أمي، انظري -مشيرة بإصبعي إلى السماء الليلية خارج النافذة، وقد تربع القمر في منتصف السماء كبيرًا مستديرًا مضيئًا- وتابعت قائلة: "لأبي النصف في النيشان، ولأمي النصف، أما أنا، فسأكون بطلة مجهولة، وأصبح مشبكًا معدنيًا صغيرًا بظهر النيشان"!

حينها شعرت بأمي تحضنني بقوة أكثر.

***

أمريكي من أصل صيني وحسناوات صينيات

منذ سنوات عديدة سافر ليو قنغ تشي البالغ من العمر حاليًا خمسة وستين عامًا إلى أمريكا الجنوبية وصار عاملًا بها، ثم استقر بمدينة سان فرانسيسكو، وأصبح من الصينيين الذين يحملون الجنسية الأمريكية، فيما نشأ أخوه الأصغر في الصين وترعرع بها، وقد لقي حتفه هو وزوجته في سبعينيات القرن العشرين، تاركين خلفهم ثلاث فتيات، ازداد جمالهن يومًا بعد يوم، وأصبحن من الحسناوات الصينيات بأمريكا.

تدور أحداث هذه القصة بين العم الأكبر وبنات أخيه الأصغر الثلاثة.

قبل وقت ليس ببعيد، عاد ليو قنغ تشي إلى مسقط رأسه لزيارة أهله، والتقى بنات أخيه الثلاثة في المطار، فتذكر المشاعر الطيبة التي جمعته بأخيه من قبل، فلم يتمالك نفسه وانهمرت دموعه، كانت هذه المرة الأولى التي تلتقي فيها الفتيات الثلاث بعمهن، وشعروا وكأن والدهن عاد للحياة من جديد، وغمرتهن فرحة عارمة كادت تُذهب عقولهن.

قال ليو قنغ تشي لبنات أخيه الثلاثة إنه لا ينوي قضاء إجازته هذه المرة بأحد الفنادق، كما أنه يريد أن يقيم بمنزل كل واحدة منهن أسبوعًا، غير أنه يعلم أن الجيل الجديد لا يملك سعة من أمره، فقد عزم على تولي جميع المصروفات التي ستنفقها البنات خلال وجوده.

وما إن سمعت البنت الكبرى، حتى بادرت ولوحت بيدها لـ "تاكسي"، ليذهب معها عمها إلى منزلها، وبعد أن وصلوا إلى المنزل وتبادلوا جميعًا التحيات، أخذت الفتاه زوجها وحماتها إلى أحد أركان المنزل، وأخبرتهم بأمر المصروفات بالتفصيل، فذهب كل منهم على الفور للتسوق، ولم يمضِ الكثير حتى امتلأ البيت بالسجائر وزجاجات النبيذ الفاخرة، وأجود صنوف الفواكه، وفي المساء تكدست الطاولة بأطيب الطعام وأشهاه، فعمت الفرحة والبهجة أرجاء المنزل كأنها ليلة رأس السنة، واستمر الحال على هذا النحو سبعة أيام، كل يوم كسابقه، ورغم أن ليو قنغ تشي رجل شديد الثراء، يتمتع في أمريكا بجاه وثروة ضخمة، فقد كان من الصعب أن يحصل على مثل هذه الدعة والاسترخاء هناك، فهُنا يغمره شعور بالسعادة والدفء الأسري؛ إذ يمكنه أن يلاعب حفيدته ويجالسها يوميًا، ويدندن أغاني أوبرا بكين.

ومع فجر أول الأسبوع الثاني، جاءت الابنة الثانية ومعها ثلاث عربات فئة "تويوتا كراون"، ركبت هي العربة الأولى لتقودهم للطريق، وركب العم العربة

الثانية، وركب زوجها وابنها وحماها وحماتها في الجزء الخلفي من العربة الثانية، ووصلوا إلى البيت، واستقبلوا ليو قنغ تشي بحماسة وحفاوة بالغة، وما إن جلس العم حتى جاءت السيارات الثلاثة نفسها ونقلتهم جميعًا إلى "مطعم فخم"، وكانت طاولة الطعام مُعدة لاستقبالهم تحفى بأصناف الطعام المتعددة، منها السلطعون وزعانف القرش وسمك الشابل، وأيضًا النبيذ الفاخر.. وبعد تناول الطعام، جاء مدير المطعم وقال لهم: فطوركم اليوم في مطعمنا أربحني ثمانمائة يوان، وهذا لم يحدث قط من قبل.

وفي صباح أول الأسبوع الثالث، جاء زوج الابنة الصغرى وهو يقود دراجة بضائع ثلاثية العجلات، وقد وضع بظهر الدراجة مقعدًا بسيطًا يكفي لشخص واحد، وبمجرد أن جلس ليو قنغ تشي على الدراجة حتى انطلق الزوج يقودها من الأمام، وأخذت الزوجة تدفع الدراجة من الخلف، حتى وصلوا إلى المنزل، وكان الفطور على غير العادة غاية في البساطة، إذ تكوَّن من صحن من حليب فول الصويا، واثنين من أصابع العجين المقلية، وصحن من الفول السوداني المطهو بالماء المالح، وقطعة من جبن الصويا المتخمر، وفي وقت الظهيرة التف جميع مَن في المنزل حول طاولة صغيرة يعدون الجياوتسي "عجين محشو باللحم"، أما وجبة العشاء فكانت مكونة من عصيدة الأرز والقرنبيط المخلل. كانت شهية ليو قنغ تشي للأكل ضعيفة في الأسبوعين الماضيين، فاحتسى ملعقتين من عصيدة الأرز، وتناول بعِيدان الطعام قليلًا من القرنبيط المخلل، لكنه أحب الطعام، حتى إنه لم يكف عن الإشادة به، فاحتسى ثلاثة أطباق من عصيدة الأرز، وبجانب الطعام تحدثت الابنة الصغرى وقالت: "عمي، سمعت أبي قبل وفاته يقول إن جدتي رهنت سوارها الفضي قبل سفرك إلى الخارج بيوم، وأخذت ذلك المبلغ البسيط وأعدت لك ثلاث وجبات مثل التي تناولتها اليوم".

وناولت الابنة منشفة دافئة لعمها، ثم تابعت: "يومها قاد أبي دراجة ثلاثية وأوصلك إلى الميناء"، وخلال استماع ليو قنغ تشي لهذا الكلام أمسك المنشفة ومسح عينيه، فمن زمن بعيد لم يتأثر هذا الرجل المسن بهذا القدر.

مرت ثلاثة أسابيع، وفي ليلة عودة السيد ليو إلى أمريكا مرة أخرى، استدعى الفتيات الثلاثة، وسألهن عن المصروفات التي تكلفتها كل منهن في هذه الفترة، فأخرجت الفتاة الكبرى كومة من الفواتير، كان مجمل حسابها ألفين ومائة وخمسين يوانًا، ثم أمسكت الفتاة الثانية بمجلة قديمة بداخلها أكثر من مائة فاتورة، وكان مجمل حسابها ثمانية آلاف وخمسمائة يوان، أما الفتاة الصغرى، فلم يكن معها أي فواتير، لكنها قالت: زيادة فرد على الأسرة لا يحتاج سوى إضافة زوج من عيدان الطعام، ولكن إضافة عيدان الطعام لا تحتاج إلى إعداد المزيد من الطعام، فأنا لم أحتج إلى إنفاق المزيد من النفقات.

أخرج ليو قنغ تشي محفظته وأعطى لابنة أخيه الكبرى ألفين ومائة وخمسين دولارًا، وأعطى لابنة أخيه الثانية ثمانية آلاف وخمسمائة دولار، ثم قال للابنة

الثالثة: أنا أعمل بالتجارة في أمريكا، وقد أتقنت كل تفاصيل عالم التجارة، لكن عودتي إلى موطني هذه المرة جعلتني أدرك أن المشاعر الصادقة لا تحتاج إلى "سداد فواتير"!

ثم جذب الابنة الثالثة إليه بحنو ومحبة، وقال لها بلهجة صادقة: هل تودين الذهاب إلى أمريكا؟ يمكنك أن تأتي معي، وأنا سأدبر الأمر كي يمكنكِ الاستقرار في أمريكا أنتِ وزوجكِ وابنكِ، فلتأتوا معي وترافقوني هُناك.

هزت الابنة الثالثة رأسها بالنفي، وقالت: أنا معلمة بروضة أطفال، وهؤلاء الأطفال لن يسمحوا لي بالذهاب. فأصيبت الأختان بالذهول من كلام شقيقتهما الصغرى!

***

تثاؤب مديرة المصنع

المديرة الجديدة استعاضت عن قيلولتها بالتثاؤب!

كان هذا السطر الشعري هو ما قرأتُه في ملحق جريدة مصنع جيانغ نان للماكينات، فمنذ أول أمس وأنا أعايش حياة المصنع لأتمكن من كتابة أول قصيدة قصصية مطولة عن الحياة الصناعية.

وقد قرأت هذين البيتين مرارًا وتكرارًا وتذوقتهما، فشعرت بمدى عذوبتهما، وأسلوبهما المبتكر، إذ يعبق هذان البيتان بروح عصرية قوية، ما جعلني أثني عليهما كثيرًا، فدعوت كاتب الشعر، وهو المسؤول عن الأنشطة الترفيهية والرياضية بنقابة العمال بالمصنع، وطلبت منه أن أتحدث معه عن إبداعه الشعري، فأدار الشاب كرسيه المصحوب بظهر مرتفع ليصبح بمواجهتي، ثم قال هامسًا: "لقد كتبت "المديرة الجديدة"، وفي الواقع استوحيتها من مديرتنا الجديدة في المصنع، فلا يغرنك أنها تصعد الدرج بإيقاع أسرع من الجميع كأنها تعدو، وتبدو كأن بها طاقة لا تنضب، لكن في بعض الأحيان نراها تتمطى، بل وتتثاءب، فهي تتعب كثيرًا حقًا!".

أثار كلام الشاعر الرغبة داخلي لإجراء مقابلة مع مديرة المصنع، لكني لم ألمح طيفها في المصنع لعدة أيام متتالية. "من فضلك أين مديرة المصنع؟" فكانت الإجابة دائمًا: "إنها تجري مفاوضات مع التجار الأجانب"، أو "إنها تباشر حركة الإنتاج"، أو "إنها ستكون في ورشة العمال قبيل الفجر". ولكي أتمكن من إجراء مقابلة معها ظللتُ طوال هذا الصباح أبحث عن مكتب تجارة الماكينات، وما إن تمكنت من الوصول إلى قاعة المؤتمرات الكبرى لمكتب الماكينات حتى جلست على مقعد ليس ببعيد عنها.

ففي قاعة المؤتمرات الكبرى يوجد جمعٌ كبير، حيث إنها تسع نحو مائتي إلى ثلاثمائة شخص، وكانت المديرة تجلس على حافة الصف الأخير من القاعة، ولكني أُصبت بالذهول، إذ لم يدخل وقت الظهيرة بعد، حتى أخذت المديرة تتثاءب مرة تلو الأخرى، ولم يمضِ الكثير حتى غلبها النعاس.

"لم أتخيل أنكِ ستُرشين سائقي، وتأتين لمطاردتي وتعقب أثري".. قالتها ضاحكة ونحن في سيارة صغيرة فئة الچيب، فضحكت أنا الأخرى، وقلت لها: "وأنا أيضًا لم أتخيل أن أراكِ تتثاءبين في المرة الأولى التي ألقاكِ فيها"، فضحكت بصوت عالٍ، وبدت في غاية العفوية، فشعرت حينها وكأنها فتاة جامعية مفعمة بالنشاط والحيوية.

"الشاعر الكريم، لن أخفي عليك، حينما تسلمت إخطار المؤتمر بالأمس قررت السهر ومواصلة العمل، على أن أؤخر نومي لصباح اليوم، ومثل هذا المؤتمر كان يكفي حضور أحد رؤساء الأقسام، ولكنهم سجلوا حضور مديرِ المصنع، وهذا يدل على مدى أهمية هذا المؤتمر"، ثم حركت ذراعيها قليلًا وأكملت قائلة:

ـ لا حيلة لدي؛ فالوقت ضيق، وأنا مضطرة أن أبدل بوقت النوم وقت الاجتماع!

ـ لكن فيما يخص مضمون الاجتماع.

ـ لابأس في ذلك، فأنا لدي هذا. وأخرجت شريط تسجيل من جيب معطفها في أثناء حديثها وتابعت: بعد عودتك للمصنع أخبر السكرتيرة لتفرغ هذا التسجيل الصوتي، على ألا يتجاوز ورقتين!

ـ وهل أخبرتِ المكتب بهذه الملاحظات؟

ـ أجل، لكن...

لم تكمل حديثها، ونظرتْ إلى الطريق أمامها. في هذه اللحظة، تزاحم برأسي بيتان من الشعر:

ـ مديرة المصنع الجديدة أخذت خُطبة رئيسها المباشر المُطولة

وكثفتها لتصبح "أقصوصة منمنمة"!

***

رغبات أسرية، حكايتنا أنا وأنت وهو "ثلاثية"

قائد الجيوش الثلاثة

قصتي

تتكون أسرتي من ثلاثة أفراد، هم أنا وزوجتي وابنتي، ولثلاثتنا لقب رسمي مشترك، ألا وهو "القائد".

أدعَى "قائد البط"، وذلك لأنني أحب بشدة تناول كل من بط نانجينغ المالح وبط البحر، وحتى إذا ما عدت مرهقًا ومتعبًا من عملي إلى البيت لا أشبع فرحًا إلا بصحن من البط على طاولة الطعام.

وتُدعى زوجتي "قائدة البطيخ"، ولأن لقبها "وانغ" (الملك) فنسميها أيضاً "ملكة البطيخ"، لأنها تُجن كلما رأته، وكلما شققنا بطيخة تأخذ أكثر من نصفها، وآكل أنا وابنتي أقل من النصف.. إذن ماذا تفعل في الشتاء عندما لا تجد بطيخ؟ إنها تأكل بذور البطيخ، وتكون سلة القمامة مملوءة عن آخرها بقشر البذور.

فماذا إذن عن ابنتي؟ إنها بالكاد في السادسة من عمرها، وهي الابنة والوريثة الوحيدة، فلا مفر من دلالها المفرط.. إنها تحب ألا تأكل إلا ما تختار، فلا تأكل الباذنجان ولا البيض ولا السمك، وأحيانًا لا تأكل البتة.. فماذا تأكل إذن؟ إنه الحساء! إنها تستطيع شرب وعاءين صغيرين في المرة، فسميناها أنا وزوجتي مازحين "قائدة الحساء"، وأحيانًا عندما نراها أنا وزوجتي قادمة من الخارج إلى الشقة، نقول معًا بصوت عالٍ كلهجة فيلم "حرب شانغهاي": لقد جاء قائد الحساء!

ولأن كلًا من ثلاثتنا يفضل طعامًا معينًا، فينتج عن هذا صراعات أكيدة، فإذا لم أرَ لحم البط لمدة ثلاثة أيام أشعر فورًا أن الطعام كالشمع لا مذاق له، وتترقرق عيون "قائدة الحساء" بالدموع على الفور إن لم تجد الحساء ليومين، أما إذا ما تذمرت من الصوت المزعج البغيض لفرقعة زوجتي بذور البطيخ، فأنها تغضب لدرجة أنها من الممكن أن ترمي البذور المتبقية كلها على الأرض.

وبسبب شؤون طاولة الطعام الهينة، نشب بيني وبين زوجتي في أحد الأيام مؤخرًا خلاف كبير، وتطور إلى أن لملمت ملابسها وعادت إلى بيت أهلها، "قد تحطم رياح خفيفة شجر الصفصاف...".

لقد غاب نصف القمر برحيل "قائدة البطيخ"، وجعلت القائدين الآخرين يحنان لها ليلًا ونهارًا، فأصبحت أمضغ البط ولا أستطيع بلعه، وتسكب ابنتي الدموع بينما تحمل حساء الطماطم.. ليس باليد حيلة، لقد اعتذرت إليها بالأمس أخيرًا طالبًا منها الصفح والعودة لبيت الزوجية، وكانت نتيجة "المفاوضات" رائعة، فزوجتي ستعود هذا المساء!

انتهيت من عملي قرب العشاء، وتوجهت مسرعًا إلى البيت، وبمجرد دخولي من باب المنزل ذهبت مباشرة لأعد الطعام، لترى زوجتي كم كنت أهتم بابنتنا في أثناء غيابها عن البيت، وكنت أمزج المكونات و"أخطط" بمنتهى الإتقان، فصنعت لابنتي حساء البازلاء وقشر الأرز مع الفطر وبراعم الخيزران.

وعندما عرفت ابنتي أن أمها ستعود إلى البيت بعد قليل، قالت لي:

ـ أبي، أعطني نقودًا.

ـ أعطيكِ نقودًا؟! ماذا ستشترين بها؟

ـ سأشتري بطيخة كبيرة، أكبر بطيخة!

وبينما نتحدث، دفعت زوجتي الباب ودخلت وهي تحمل في يدها حقيبة طعام، وضعت فيها بطة مالحة قد قطعتها قطعًا.

***

عاصفة "الملعب"

قصتك

أنت تحب مشاهدة مباريات كرة القدم وكرة السلة وتنس الطاولة والكرة الطائرة، وتحب جميع مباريات الكرة، فماذا عن زوجتك؟ لقد تأثرت بك، وأصبحت تحبها أيضًا، وأنت أيضًا تحب التدخين، لكن هذه لم تستطع زوجتك أن تحبها، بل تصر على معارضتك فيها.. وهكذا، دائمًا ما ينشب صراع بينكما عاشقَي الكرة بسبب التدخين.

لقد عدتما معًا منذ نصف ساعة بعد مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم بملعب الضوء، وبسرعة انكببت بجانب الطاولة تكتب مقالًا لجريدة "كرة القدم"، أما زوجتك فقد جلست بهدوء شديد على الأريكة تطالع كتابًا اشترته للتو اسمه "يوميات لانغ بينغ".

فجأة نهضت زوجتك، وسارت حتى وصلت إلى جانبك، ثم ربتت على كتفك بخفة، وأشارت إلى العشرات من أعقاب السجائر داخل المطفأة، وإلى الدخان الذي يملأ الغرفة، ثم وضعت رأس سبابتها اليمنى في قلب يدها اليسرى إشارة إلى "إيقاف" التدخين.

فأومأت برأسك، وعاودتَ التدوين بسرعة، وظللت تكتب وأنت مستمر في التدخين مرة أخرى.. عندها فتحت زوجتك الدرج محدثة ضجة جعلتك تخرج من "بين السطور" وتعود إلى الغرفة الصغيرة، وأخرجت زوجتك من الدرج سجل

الإقامة[1](*****) ذا الغلاف الأصفر، ورفعته عاليًا أمامك، فذهلت من فعلها، وأعدتَ التفكير قليلًا، فاستنتجت أنها رفعت "كارت الإنذار"!
تنهدت وزفرت الدخان على مضضٍ والأفكار تدور داخلك: كيف لها أن تقطع حبل أفكارك دومًا؟ وكيف لك أن تنتهي من كتابة هذا المقال إذا استمرت هي على هذا المنوال؟ فأخرجت بطاقة عملك ذات الغلاف البلاستيكي الأحمر بغضب، ولوحت بها تجاه زوجتك بصرامة شديدة.
ولم تتوقع أن تضع زوجتك يديها بهدوء أمام صدرها، وتديرهما بتقديم يد وتأخير أخرى دورة تلو الأخرى.. لقد كدت أن تصرخ بصوت عالٍ لأن زوجتك عليها أن "تستبدل بك شخصًا آخر"!
فأسرعت بتقديم الاعتذار لزوجتك في خوف شديد..
***

تقلبات "الحب"
قصته

هو مولع بلعبة الشطرنج الصيني، وهي مهووسة بالرقص..
يغوص الزوج في غرفة لعب الشطرنج بالقصر الثقافي بمجرد أن يجد وقتًا فارغًا، وتدخل زوجته مساء كل يوم قاعة الرقص فرحة مسرورة.
هو لا يفهم ما الحكمة من الرقص، ولا تستوعب الزوجة كم البهجة التي يمكن أن تنشأ عن لعب الشطرنج، ويتمنى الزوج لو استطاعت زوجته أن تتحمل أعمال المنزل كاملة فتترك له المزيد من الوقت ليقاتل على رقعة الشطرنج،

وكم تود هي لو أن زوجها يبقى مساء كل يوم ليحرس المنزل حتى تتخلص من مخاوفها في أثناء رقصها "التانجو" و"الفالس".

في أحد الأيام تشاجر الزوجان الشابان، فقال الزوج بغضب: تذهبين فور انتهاء عملك للرقص ولا ترقصين حتى معي!

فردتها له قائلة: وأنت، إن لم تكن تعمل فإنك تلعب الشطرنج، ولا تلعبه معي أيضًا!

فقال كأنه يستهزئ بها: لا ألعبه معك أيضًا؟ يؤسفني أنك لا تستطيعين اللعب!

فردت بنكهة ساخرة: وأنا لا أرقص معك؟ يؤسفني أنك لا تستطيع الرقص!

فقال بطريقةٍ مثيرةٍ: إن كان لديك القدرة لتعلم لعب الشطرنج فهيا نتقاتل جولة.

فردت بأسلوب "السن بالسن": وإن كنت تستطيع أن تصبر على تعلم رقصة الديسكو، فهلا رقصناها ليلة!

فنفذ صبره وقال بقسوة: موافق، سأرقص.

فأبت أن يتفوق عليها وقالت: حسنًا، وأنا سألعب.

وانتهى نقاشهما على ذلك الاتفاق، وهو أن يعلمها لعب الشطرنج مساء كل يوم فردي، وتعلمه الرقص مساء كل يوم زوجي.

فحدث تغير تدريجي للوضع، فقد قال الزوج ضاحكًا: لم أكن أتخيل أن الرقص ممتع هكذا، ألهذا يقول البعض إن الموسيقى هي الأزهار التي تجمِّل الحياة والرقص هو الفوانيس الملونة التي تزين المناظر الطبيعية؟!

وقالت زوجته: يا إلهي! لم أتوقع أن يكون لعب الشطرنج ساحرًا هكذا! لا عجب مما قيل في كتاب الشطرنج، وهو أن رقعة الشطرنج ليست فقط ميدانًا للحرب يتنافس فيه الرجال في الذكاء والشجاعة، بل أيضًا حلبة تنافس لمهارات البطلات.

ومنذ ذلك الوقت أصبح الزوج دائمًا ما يزاحم وقته بالذهاب إلى قاعة الرقص، فماذا عنها إذن؟ انظروا، إنها ذاهبة بحماس الآن إلى غرفة لعب الشطرنج بالقصر الثقافي.

***

رد التذاكر

حجزت أختي تذكرتين إلى السنيما رغبةً في أن أصحبها لمشاهدة فيلم، ولكنني حقًا لم أكن قادرة على الذهاب، فذهبت وحدها، ولكن على غير المتوقع عادت بعد نصف ساعة فقط، وقصت عليَّ ما حدث قائلة: ''بمجرد أن وصلت إلى مدخل السنيما وجدت العديد من الشباب واقفين بموقف السيارات والدراجات منتظرين الوصول إلى شباك التذاكر، وجميعهم يسألونني: هل معكي تذكرة إضافية؟

وعلى الرغم من أن أسلوبهم كان مهذبًا للغاية، فإني حرصت على تجاهلهم جميعًا، وأحكمت الإمساك بالتذكرتين خاصتي.. نعم، أنا معي تذكرة إضافية، ولكن لأن مقعدي التذكرتين متجاوران لم أجرؤ أن أعطي التذكرة الأخرى لأي شخص بشكل عشوائي، فماذا لو أعطيت التذكرة لأحدهم وكان شخصًا "لئيمًا"، حينها خطرت ببالي فكرة، فأنا على استعداد أن أهدر هذه التذكرة ولا...

وحينما دخلت من بوابة السينما الكبرى، لمحت فتاةً بنفس عمري تقريبًا تقف على سلم السنيما، فذهبت إليها وسألتها بصوت خافض: أتريدين تذكرة؟.. "نعم، أريد بالتأكيد"، وأخرجت النقود على الفور، خوفًا من أن يأتي شخص آخر مسرعًا ويخطف التذكرة مني، وكنت أنا أيضًا لدي الخوف نفسه، وقالت: ''من الممكن أن أعطي لكِ النقود بعدما ندخل؟!" قالتها بلهجةٍ فيها رجاء، فنظرت في ساعة يدي، ووجدت إنه لا يزال أمامنا عشرة دقائق، فأومأت برأسي موافقة.

"ووجدتها تصعد الدرج مسرعة، إلى أن وصلت أمام شاب، فتناقشت معه قليلًا، ثم عادت بجانبي مرة أخرى.

فأشارت إلى هذا الشاب وقالت: "هذا الشاب صديقي، ممكن أن يأخذ هو التذكرة ويدخل معكِ؟".

"لا يمكن" هكذا أجبتها بمنتهى الحزم.

"لكني أظن أنني يمكنني أن أحصل على تذكرة بسهولة أكثر منه.." قالتها وهي تستسمحني.

لكني كنت مصرّة على رفضي.

فوجه ذلك الشاب كلامه لي، وقال بأدب جمّ: سألت حضرتك قبل قليل إن كان معكِ تذاكر زائدة أم لا، غير أنها لم تسألكِ، لكنك بادرتِ إليها وأعطيتها التذكرة.. أنا أعلم أنكن لا تأمنَّ لهؤلاء الشباب المنتظرين شراء التذاكر، لكن في الحقيقة من أين سيأتي هذا الكم الكبير من الناس السيئة؟ ولماذا يتعامل الناس فيما بينهم بهذا الحذر؟

فنظرت إلى هذا الشاب، ثم نظرت إلى الشباب المتلهفين على شراء التذاكر.. أجل، ما الذي دفعني إلى ألا أثق بهم؟ ولماذا لم أعطِ التذكرة الزائدة معي إلى أحدٍ من هؤلاء؟ بصراحة ووضوح!

***

مباراة كرة قدم أمام غرفة الولادة

"أيها السادة الرجال، في هذه اللحظات، زوجاتنا بالداخل، يتحملن آلامًا لا تطاق، ينجبن لنا البنين والبنات، أما نحن، أمام باب غرفة الولادة هذه، ندخن السجائر واحدة تلو الأخرى، نطوي الفراغ ذهابًا وإيابًا بلا توقف، ولا ننفك عن القلق على سلامة زوجاتنا وفلذات أكبادنا.. هيه، نحن أيضًا نعاني"!

"نحن، وبالأخص محدثكم، نشبه من يقف في ملعب كرة قدم متابعًا مباراة كرة قدم دولية محتدمة الأحداث، فإذا أنجبت زوجتي صبيًّا كان هذا بمنزلة إحراز المنتخب الصيني لهدف، فسوف أقفز من الفرحة، وأقفز وأقفز، أما إذا أتت بفتاة، كان ذاك بمنزلة إحراز المنتخب الأجنبي لهدف، سأصفق بالتأكيد، ولكن، سيكون ذلك إحياء لمشاعر الصداقة لا أكثر"! قبل أن يكمل "عاشق كرة القدم" هذا الذي على وشك أن يصبح أبًا حديثه، دُفِعَ باب غرفة الولادة، وأطل منه وجه أبيض وضّاء: "سرير رقم ثلاثون"، هرع رجل يرتدي نظارات إلى الأمام سائلًا: صبي أم فتاة؟

ـ صبي، يزن ثلاثة كيلوجرامات ومائتي جرام.

اندفع "عاشق كرة القدم" مقاطعًا الممرضة صائحًا: "هدف ممتاز، واحد صفر لصالح المنتخب الصيني!" وما إن أنهى كلامه حتى أصر على التوجه في حرارة إلى الرجل ذي النظارات ليصافحه مُهنئًا. استمر الجانبان في التهديف، أربعة خمسة، الفريق الصيني متأخر حتى هذه اللحظة.. غادر الآباء الجدد راقصين على قمم البهجة، وبقي "عاشق كرة القدم" وحيدًا أمام باب غرفة الولادة، بقي وحده محدقًا بعينين كبيرتين ككرتي قدم في باب غرفة الولادة، هامسًا بحرقة: تشجع.. تشجع.. تشجع يا منتخب الصين! فُتح الباب مجددًا، وأطل الوجه الأبيض الوضاء مرة أخرى: سرير رقم سبعة عشر.

هرع "عاشق كرة القدم" فور سماعه الجملة: صبي أم فتاة؟

ـ صبي، ويزن...

ـ حقًا؟! هتف "عاشق كرة القدم" وقد قفز بالفعل راميًا قبعته القطنية عاليًا..

ـ فرحٌ أنت للغاية.

انفرجت أسارير الممرضة وابتسمت قائلة: "لا يزال هناك واحد آخر!"، ثم انغلق الباب مجددًا.

ـ لا يزال هناك واحد آخر؟! المباراة لم تنتهِ بعد؟ خمسة خمسة؟ وقت إضافي؟ لا بأس، صبي وفتاة كزوجين من الأزهار، فلتحرزوا الهدف أيها

الأجانب.
ولأول مرة في حياته، تطلع "عاشق كرة القدم" إلى أن يحرز الفريق الأجنبي هدفًا!
عندما أطل الوجه الوضاء مرة أخرى، ازداد توتر "عاشق كرة القدم": فتاة؟ فتاة أليس كذلك؟
ـ صبي يزن كيلوجرامين وخمسين جرامًا.
ـ ماذا؟.. صبي؟! فليكن!
ـ أيها الرفيق..
قالت الممرضة وهي تتفحص "عاشق كرة القدم" بعناية: قدراتك لا بأس بها حقًا، لا يزال هناك واحد آخر!
وأُغلِق الباب مرةً أخرى.
ـ لا يزال هناك واحد آخر؟! يا للسماء! قالها "عاشق كرة القدم" وسقط لتوه على الأرض مشلول الحركة، وأفاق بعدها بفترة ليست بالقصيرة، مغمغمًا: ثلاثة؟! ثلاثة؟! كيف أقدر على ثلاثة؟ أين الحكم؟ لماذا لا ينهي المباراة؟ لا يمكن أن تلد زوجتي مجددًا!

***

إنقاص وزن

في هذا العالم يقلق المنشغلون، ويقلق العاطلون، ويقلق النحيف منهم، كما يقلق السمين بشكل أكبر.

فتلك المرأة العاملة شياو بان صار الناس ينادونها بـ"شياو بانغ"[2*****]، فذلك دفعها إلى أن تكون خسارة الوزن هو هدفها طويل الأمد.

لقد مارست التمارين الرياضية، ولكن كمية الطعام تناسبت تناسبًا طرديًا مع الرياضة المبذولة، مما جعلها تزداد وزنًا كلما أكلت، وقد امتنعت عن تناول اللحم كثير الدهن، وكذلك البيض واللبن، وعلى الرغم من أن جهازها الهضمي يؤدي وظائفه بصورة ممتازة، فإن تناولها للماء كان يكسبها وزنًا، ولطالما بحثت كثيرًا عن وصفات لفقدان الوزن، فتناولت شيئًا لإنقاص الوزن، وتناولت من قبل دواء من الأعشاب الصينية يدعى "ودِّعي السمنة وكوني جميلة"، وشاركت فصول الوخز بالإبر لإنقاص الوزن، كما دهنت جسدها بكريم جديد لإنقاص الوزن.. ولكن كل هذا لم يعد عليها بالنفع!

ومنذ فترة ليست ببعيدة اجتاحتها رغبة صادقة في ممارسة رياضة "تشيقونغ لخسارة الوزن"[3*****]، فهذه طريقة سحرية لخسارة الوزن، فلا تتناول أي شيء طوال اليوم، كأنك مُضرب عن الطعام، ولكن ما العمل إن أصابك الجوع؟ تمارس تمارين "فان لانغ"[4*****]، حينها يختفي الشعور بالجوع، ويقال إن هناك أناسًا مارسوا هذه التمارين خمسة أيام متتالية، فخسروا خمسة كيلوجرامات، وآخرون مارسوها عشرة أيام، فنقص وزنهم بصورة كبيرة لدرجة أن آباءهم لم يعرفوهم، بل تساءل بعضهم: من أين أتى هذا الضيف؟!

وبالفعل، مارست شياو بان هذه التمرينات لثلاثة أيام، إلا أنها في إحدى الليالي أصيبت بتشنجات في ساقها، حتى إنها أخذت تصرخ من حدة الألم، وما كان منها إلا أن احتضنت ركبتيها وبكت بحرقة، وتناولت بسرعة المكملات الغذائية، كما تناولت حساء الأضلاع الذي لم تتناوله من قبل قط. ومع هذا كانت شياو بان لا تزال سمينة كما هي، فظلت طوال اليوم مقطبة الجبين عابسة الوجه، فكانت قلقة من أن يتركها حبيبها بسبب مظهرها. وفي هذا اليوم اتصلت بحبيبها، فقد أرادت مقابلته ليتنزها معًا بالحديقة، إلا إن زملاءه هم من تلقوا اتصالها. ماذا، شياو بان؟ شياو ليو إجازة اليوم، وسمعنا أنه تعرف لتوه إلى فتاة وذهب يتنزه معها في الحديقة...".

وقعت هذه الكلمات على شياو بان كالصاعقة، جعلتها تتسمر في مكانها داخل كابينة التليفون وكأنها أصيبت بالشلل.. وبعدها ظلت عدة أيام لا تتناول شيئًا، كما لم تذق للنوم طعمًا، حتى أصبحت ملابسها فضفاضة تدريجيًا، فلقد خسرت الكثير من وزنها.

وفي اليوم الخامس، ذهب شياو ليو لزيارتها، حاملًا في يده باقة من الأزهار النديّة، وطبع قبلة حانية على وجنتها، وقال لها بصوت هادئ: "ضياع الحبيب لإنقاص الوزن"، تعد هي الطريقة الأمثل لخسارة الوزن!

***

واحد وثمانية

نحن ثمانية أشخاص زلت أقدامنا في طريق الحياة فمكثنا في السجن، نضع أستاذنا الغالي على كرسي من الخيزران ونحمله بهدوء وبطء؛ فهو مُسن طريح الفراش، ومصاب بالشلل!

ننقسم إلى فريقين من أربعة أشخاص، ونتناوب في حمل الكرسي، ونسير بأستاذنا في الأزقة والشوارع الرئيسية، وبجوار الأنهار التي توجد في ضواحي المدينة.

منذ سنة، وفي الفترة نفسها التي خرجت فيها من السجن، قرأت إعلان قبول طلاب جدد بإحدى أعمدة الجريدة، حيث ينظم شخص يُدعى أو يانغ كوان "دورة تدريبة سريعة تسبق امتحان القبول بالجامعة المسائية" في بيته، وسيتم تسجيل ستة طلاب مجانًا.

وفي يوم تسجيل الأسماء، تقابلنا نحن الثمانية، رفقاء سجن الإصلاح من خلال العمل الزراعي، أمام بوابة منزل الأستاذ أو يانغ.. حقًا، لم أكن أتوقع أنه من أجل فتح صفحة جديدة علينا أن نلتقي بالصدفة!

وبمجرد أن التقينا بالأستاذ أو يانغ، أصابتنا الدهشة، فهو رجل مُسن مصاب بالشلل طريح الفراش، تصافح مع كل منا وهو مستلق على الفراش، ووافق على تسجيلنا جميعًا، فقد غير العدد المحدد للطلاب إلى ثمانية، كما أنه شكرنا على إعطاء فرصة لرجل في مثل هذا السن المتقدم.

في صباح كل يوم، نلتف حول فراش موته، ونستمع إلى حديثه عن المثل والأخلاق والأدب والتاريخ والرياضيات.. حقًا، إنه بحر من العلم، ففي كل مرة نطرح فيها سؤالًا نستطيع أن نحصل على شروح عميقة بعبارات بسيطة. عندما نقف أمام مثل ذلك الشخص، لا يجرؤ أي منا إلا على طاعته. ففي كل مرة يبدأ جبينه بنز العرق، يتدفق الدمع من عيوننا جميعًا، من كان ليصدق أن أولئك الذين كانوا غارقين في مستنقع من الطين بالأمس حصلوا جميعًا على إشعار القبول بـ"الجامعة المسائية"؟!

وبمجرد حصولنا عليه انطلقنا بأسرع ما يمكننا، لم نكن نتجه لبيوت إخواننا وأخواتنا، كما لم نكن نتجه لبيوت حبيباتنا، فقد كان الأستاذ أو يانغ هو أول من جال بخاطرنا. نظر الأستاذ إلى إخطار القبول بحماس، وقال بصوتٍ مرتجف: إنكم أكثر من يحتاج إلى التغذية، بمجرد أن تصلوا إلى الجامعة عليكم أن تتناولوا الكثير والكثير منها.

اليوم نأتي إلى أستاذنا لنعبر عن مدى شكرنا له، فارغي اليدين، لأننا نعلم أن هذه الطريقة ستكون أفضل في التعبير عن مشاعرنا الودية.

نحن الثمانية، ننقسم إلى فريقين من أربعة أشخاص، نحمل أستاذنا الجليل على الكرسي، ونجول به في الأزقة والشوارع الرئيسية وبجوار الأنهار التي توجد بضواحي المدينة.

***

الهـــديـــــة

تخرجت أنا وزملائي الطلاب في كلية العمارة، وأصبحنا على وشك أن نتقلد مناصب العمل ونحقق حلمنا بأن نكون مهندسين إنشائيين ومعماريين، ولكن قبل تفرقنا ظل كل صديق ورفيق ينظر إلى الآخر، وعز علينا جميعًا الفراق، فاقترح رائد الدفعة أن يهدي الزملاء الشباب هدية لكل زميلة، وأن تهدي الزميلات تذكارًا لكل زميل حتى نخلد ذكرى رفقتنا لأربعة أعوام، فصفقت الزميلات على الفور بالموافقة، وأضفن أنهن بالتأكيد سيهدين كل شاب منا هدية خاصة بالرجال للاستخدام اليومي ولها علاقة بالعمارة، وتعهد رائد الدفعة بالنيابة عنا بإهداء كل زميلة منهن هدية خاصة بالفتيات، ولها علاقة أيضًا بالعمارة.

وظل الجدال قائمًا، إن جمع المال يسير، ولكن ماذا نشتري بالضبط هدية لزميلاتنا؟ ظللنا نتناقش في السكن طوال الوقت حتى ساعة متأخرة من الليل لنحل هذه المشكلة، فقال دا ليو، ممثل حصة التربية الرياضية: لنشترِ حافظات تدفئة المياه، فهذه الأكياس يمكنها تدفئة كل من اليدين والقدمين، اليد والقدم صعودًا وهبوطًا، ألا تحتاج المباني العالية إلى سقالة؟

أثار كلامه ضحكاتنا الصاخبة؛ إن الرجال والنساء جميعًا يمكنهم استخدام حافظات المياه، فقال رائد دفعتنا: يمكننا شراء ساعات يد إلكترونية، فساعة اليد لها علاقة بالوقت والسرعة، لنشترِ ساعات من صنع مدينة شنتشن، فهناك يستطيع العمال إنشاء مبنى متعدد الطوابق في ثلاثة أيام فقط، وتسمى هذه "سرعة شنتشن"! فقلت مقاطعًا: غير ممكن، لا فرق بين ساعة اليد وحافظة المياه، فالرجال والنساء جميعًا يستخدمونهما على نحو سواء.

ـ سنشتري نوعًا رقيقًا ذا طراز أنثوي!

لاقى كلام رائد الفصل استحسانًا، ولكني شعرت بقصور في تصوره، فاختيار الهدايا ليس فيه قرار "قاطع". وفي أثناء الحفل الساهر قبل افتراقنا بيوم أحضر رائد الدفعة أربع عشرة ساعة يد إلكترونية ذات شكل أنثوي رقيق، صنعت في شنتشن، ليعطيها هدية لزميلاتنا، وخلال حديثه شرح المغزى الرمزي من إهداء الساعة، مما جعل الحاضرين يصفقون لبرهة تصفيقًا ليس حارًا بدرجة كافية. ثم ألقت لو شياو لي، عضو لجنة الترفيه والثقافة بالنيابة، كلمة نيابة عن الفتيات إذ قالت: "إلى جميع زملائنا الشباب، أنتم على وشك توديع حياة الطلاب، لقد أصبحتم بالفعل رجالًا حقيقيين! أنتم...". وظل كلامها يتخلله صوت ضحكات متقطعة.

ـ "...أتمنى أن يتقلد كل منكم مكانته في العمل المعماري، وأن تكونوا باستمرار في سرعة شنتشن، بل أن تتخطوا سرعتها، وبالتأكيد لا نريد أن تظهر اللحى التي ستطول وتستمر طوال فترة العمل، لذلك نهدي كل رجل منكم ماكينة حلاقة كهربائية".

ماكينة حلاقة كهربائية لحلاقة "مشروع اللحية"؟!.. إنني أتسلم أول تحفيز لي، هذه هدية مبتكرة جدًا..

***

هدية تعارف

شقيقتي الصغرى على علاقة بشاب يتسم بالصدق والجدية. وفي أثناء تناول الغداء، سمعتها تقول لأمي: أمي، يريد أن يأتي لزيارتنا مساء اليوم. سألتها أمي عمدًا: من هو؟ فاحمر وجهها خجلًا وقالت: ألا تعرفينه؟ "يأتي، لا مانع لكن..."، هكذا قالت أمي بجدٍ وحزمٍ: لكن لا يأتي بيدٍ فارغة، لا بد أن يحضر معه هدية التعارف. فقاطعتها قائلة: هدية تعارف؟! أليس هذا تفكير قديم عقيم؟!

ـ أنتِ لا تفهمين شيئًا في هذه الأمور، هذا هو العُرف، ومن خلال الهدية الأولى يمكننا أن نرى كيف ستكون معاملته معنا ومع أختك فيما بعد.

ـ بالتأكيد سيُحضِر معه هدية. هكذا قالت أختي، وأكملت: لكن العُرف يحتم عليه هدية بعينها؟

ـ مدفع رشاش وعبوتين من الديناميت وكذلك أربعمائة رصاصة!

أصيبت أختي بالذهول، فبادرتها مُسرعة بالشرح والترجمة: أما المدفع الرشاش فالمقصود به فخذ خنزير، والعبوتان الناسفتان فما هُما إلا علبتا كعك إسفنجي كبيرتان، وأخيرًا فالأربعمائة رصاصة هما خرطوشتا سجائر.

تجهمت أختي قائلة: لكن هذا يتطلب عشرات من اليوانات، وهو مجرد شاب قد تخرج من الجامعة لتوه...

ـ في الحقيقة أنا لا أحب الهدايا الثلاثة هذه، وبعدما يُحضرها سأفكر في طريقة لاسترجاعها واستعادة ثمنها، وسأدخر لكما هذه النقود معي، ولكن إعادتي لهذه الهدايا لا يعني ألا يُهديها.

استشاطت أختي غضبًا، فأزاحت عنها الطعام وخرجت، وبعد ربع الساعة عادت تحدثني بصوت خفيض، وأخبرتني أنها اتصلت بحبيبها، وطلبت منه ألا يأتي مساء ذلك اليوم، إلا أن شياو وانغ أصرَّ على المجيء، ونظرًا لظروفه المادية، فقد أوصته بأن يُحضر معه "أربعمائة رصاصة" فقط. فأسرعت لتنبيه أمي قائلة: "إهداء خرطوشتي سجائر ليس هدية بسيطة، وإن اشترى سجائر مستوردة، فبالتأكيد سيكلفه الأمر كثيرًا"، فكرت أمي فيما قلته لها، وتنازلت أخيرًا عن بقية الطلبات.

لكن حدث ما لم يكن مُتوقعًا نهائيًا بعدما اتصلت أختي بحبيبها، ذلك الشاب الخريج الجامعي، أخذ يفكر ويمعن النظر في هذا اللغز المُحيِّر، حتى حله، ووصل أخيرًا إلى معناه..

وفي المساء، جاء فَرِحًا متحمسًا يحمل في يده الهدية الأولى، فتلقت أختي الهدية منه والشك يساورها بأن الأمر به شيء غير طبيعي، وما إن فتحت

العلبة، حتى صرخت: يا إلهي!
فطِرتُ إليها لأرى ما الأمر، فوجدت كيلو من الفول السوداني!
***

نصيحة فراق

"زملائي، رفقائي الأعزاء، لا يوجد في عالمنا أشخاص لا يحلمون، إلا أولئك الذين يفارقون الحياة بمجرد ولادتهم". بهذه الجملة استهل مدير مدرسة الإصلاح كلمته التي ألقاها في حفل التخرج: "لقد كان لكل منا الكثير من الأحلام البراقة، وإذا تمكن أحدهم من تجميع أحلامنا وتسجيلها في كتاب، فسيعد ذلك واحدًا من أعظم وأثرى المشروعات على مر التاريخ!".

كانت نبرته حادة مفعمة بالحماس، مما جعل الخريجين من الشباب والفتيات الجالسين أسفل المنصة، والذين يُطلق عليهم "شباب زُلت أقدامهم في طرق الحياة"، يشعرون بالحيرة، فهم لا يفهمون لماذا يتحدث المدير عن "الأحلام" بكل هذه الجدية في مثل هذه المناسبة. وتابع كلامه قائلًا: "لا أعرف هل لاحظ الزملاء ذلك أم لا؟ فنحن جميعنا لدينا الحلم نفسه: عندما كنا صغارًا، كنا نذهب إلى الحديقة، نغني ونرقص، ونلعب الغميضة (الاختباء)، ونلهو ونحن فرحين، وفجأة، تلح علينا الرغبة في قضاء حاجتنا، فنبحث عن دورة مياه ولكن بلا جدوى".. ثم استدار في حركة دائرية وهو أعلى المنصة، مظهرًا نظرات اللهفة في البحث عن دورة مياه في كل مكان، وأخيرًا وجد واحدة: "والنتيجة.. النتيجة هي أننا نتبول على الفراش". عَلت ضحكات الحضور أسفل المنصة حتى غرقوا في الضحك. واليوم، وفي هذه اللحظات، ومن موقعي هذا، تظنون لماذا أحدثكم عن الأحلام في وضح النهار؟ ما الداعي لذلك؟" قال هذه العبارة بنبرة تغلب عليها الصرامة. عم الصمت أرجاء المكان.

"الداعي لذلك هو أنني أدركت أننا جميعًا منذ الصغر نفعل الأشياء بتلقائية ونحن بكامل وعينا، لا رغبة لنا فيها، بل إننا نخلق لها أسبابًا ومبررات". وبدأ بعضهم تخمين مغزى هذا الكلام.

وفجأة أنهى كلمته قائلًا: "يا رفاق، لقد تقدم بنا العمر، لم يعد بمقدرتنا التبول على الفراش مجددًا!"

***

الانتظار المتبادل

مساء يوم الأحد، بدأت السماء في إسقاط قطرات المطر، وكان هناك رجل مسن ذو شعر أبيض يقف ساكنًا لا يتحرك على الطريق الواقع في منتصف المدينة، وكان هذا الرجل طويلًا ونحيفًا لدرجة تُبرز عظام وجنتيه، وبالنظر إليه يتضح أنه كان رجلًا ضخمًا قوي البنية في شبابه، وكان مرتديًا بزة نظامية "زي موحد" من اللون الرمادي الفاتح، وعلى الرغم من تساقط وبر ملابسه منذ وقت طويل فإنها تبدو متسقة، كما لو كانت مصنوعة من الورق المقوى.. كان مغمض العينين، واضعًا في فمه غليونًا كبيرًا مصنوعًا من الخشب الأحمر، متكئًا على عكاز له رأس منحوتة على هيئة تنين، ثابتًا في مكانه، لا يستطيع أن يتحرك حركة واحدة.

لا أحد يعرف أن هذا الرجل ذا الشعر الأبيض هو رئيس البلدية الذي تقاعد لتوه، ولكن لماذا يقف ساكنًا على قارعة الطريق في هذا الوقت؟ هل السبب هو أنه يريد أخذ قسط من الراحة ليريح عظامه التي تؤلمه، أم ليتنفس بعض الهواء المنعش؟

إنه ينتظر أحدًا، فقد انتظر سلفًا في المطار قياديًّا بالسلطة المركزية، وانتظر بعض الضيوف الأجانب في دار الضيافة لاستقبالهم، وقبل هذا وذاك بوقت بعيد، في سنوات الحرب الضاربة، كان ينتظر بقلق داخل الأنفاق ليتلقى البلاغات الحربية التي ترسلها الجبهات القتالية الأمامية، وفي طفولته، كان كثيرًا ما يقف أعلى جرف شاهق ينتظر والده الذي يذهب لاصطياد السمك، أما الآن فمَن المُنتظَر؟ إنه ينتظر طفلًا لا أهل له ولا أقارب، ولا اسم له يُدعى به.

الانتظار هو أكثر ما يقلق المرء، وهو كأغلب الناس لا يرغب في إضاعة الوقت عبثًا في الانتظار لوقت طويل، ففي كل مرة ينتظر فيها شخصًا ما كان يقف فوق قطعة أرض فارغة، ويشبك يديه خلف ظهره، ويبدأ في السير ذهابًا وإيابًا، وأحيانًا من شدة القلق يبدأ في التدخين سريعًا ودون انقطاع، كما لو كان يتسابق مع أحدهم.. هو أيضًا لا يحب أن ينتظره أحد، فلا يتأخر مطلقًا في كل مرة تُسند إليه مهمة عقد الاجتماعات.

أما الآن فهو يقف منتظرًا في صمت، ويمر الوقت ولكنه لا يسير ذهابًا وإيابًا، وأيضا لا يدخن السجائر واحدة تلو الأخرى، فهل بهذا الشكل أدرك أنه أصبح مسنًّا ومتقاعدًا، وأن الوقت لم يصبح بقيمة الوقت الماضي! ابتل تبغ الغليون بفعل الأمطار، ولكنه ظل ممسكًا بالغليون بين شفتيه، كان ببساطة يشبه تمثال لرجل مُسن هائم في التفكير.. وشعر بما يحك جانبه، وعندما فتح عينيه في عجالة وجد أمامه نبتة صغيرة، تُغرس هذه النبتة الصغيرة مع بداية فصل الربيع، وبعد حوالي أكثر من نصف شهر تبدأ فروعها بالتماسك وتظهر براعمها..

وقبل عشرين دقيقة، آتى هذا المُسن كليل البصر إلى هذا المكان متمهلا، دهس هذه النبتة الصغيرة دون قصد منه، والنتيجة..

وفي هذه الأثناء ظهر أمامه فجأة طفل يرتدي ربطة عنق حمراء وشريطة الساعد للمناوبة، فحيّاه أولًا تحية الطلائع، ثم أشار إلى النبتة الصغيرة الملقاة على الأرض وقال له: أيها الجد، أنت، أنت، كيف لك أن... فنظر في ذهول إلى النبتة الصغيرة التي تحت قدميه، ثم أدرك الموقف، فانحنى لالتقاطها، ولكنه تأخر لأن النبتة الصغيرة كانت بالفعل قد اقتُلعت من جذورها. قال له الطفل الصغير وهو على وشك البكاء: "يجب عليك دفع غرامة"، وفتح ورقة كانت مطوية ووضعها أمامه.

ويعرف الرجل المسن جيدًا كل ما يمكن أن يكون مكتوبًا بهذه الورقة دون الحاجة إلى التدقيق، فهي تحتوي على القوانين المصاغة بشأن المساحات الخضراء وحماية النباتات الخضراء، والتي وفقًا لها يجب تغريم من يدهس النباتات الصغيرة.

فأخرج الرجل المسن منديلًا لليد من جيبه، وأعطاه للطفل الصغير، وأشار له أولًا بأن يمسح دموعه، ثم وضع يده في جيبه الآخر، لكنه لم يجد حافظة نقوده.. أين حافظتي؟! ولكن ليس أمامه متسع من الوقت للتفكير، فأسرع بإخراج يديه الفارغتين تجاه الطفل معبرًا عن أسفه. فقال له الطفل بلهجة حادة جدا: ليس لديك نقود؟ وأين كارت العمل الخاص بك؟

أدخل الرجل يده في جيب أعلى بذلته الرسمية، بداخله بطاقة كادر قديمة، وضعتها له زوجته في معطفه قبل خروجه من المنزل عندما علمت بذهابه إلى قاعة أنشطة الكوادر القدامى، ولأن البطاقة مكتوب عليها اسمه ووظيفته السابقة فلم يخرجها خوفًا من عدم التزام الطفل بالمبادئ بعدما يعرف وظيفته، فنظر الرجل إلى الطفل بوجه مبتسم وقال له: "إنك عفريت صغير، ليس لدي عمل، وليس لدي بطاقة عمل، وأيضًا لا أملك نقودًا، فماذا سوف تفعل؟"، يريد أن يرى إذا كان الطفل سيستطيع معالجة هذه المشكلة أم لا.

ففتح الطفل عينيه الكبيرتين اللامعتين، وأخذ يدقق النظر بالرجل ثم قال له: من أنت في النهاية؟ غير إنك تناديني بالعفريت الصغير. فضحك الرجل بصوت عالٍ وقال: أنا شخص مرتكب للأخطاء!

وقال له الطفل: دعك من أنك شخص مرتكب للأخطاء، وأيضًا دعك من كونك بلا وظيفة، فأنت مثل الشاب المنتظر للعمل، ولكن يجب عليك أن تتوخى الحذر في المرة المقبلة.

وأعاد الطفل منديل اليد للرجل، ثم هم بالرحيل، ولكن الرجل المسن أوقفه وقال: أيها العفريت الصغير، كيف لي أن أدعني من هذا؟ هل يمكن أن تعاقبني بطريقة أخرى؟ فقال الطفل: سأجذبك من أنفك! فأجاب الرجل: لكني أخشى الألم، استبدل بها طريقة أخرى.

ـ هل حقًا تريد أن تعاقَب؟!

ـ مستحيل أن يكون غير ذلك.
ففكر الطفل مليًّا ثم قال: حسنًا، يجب أن أذهب لتنفيذ مهمة عاجلة، فعليك أن تساعدني بأن تحل محلي بالمناوبة، فلو أن شخصًا... فعليك. تسلم الرجل شريطة المناوبة وإيصال الغرامة من الولد الصغير بسعادة غامرة، وشعر أن هذه فرصة مناسبة لتعويضه، وقال للطفل:
ـ أيها العفريت الصغير، اذهب سريعًا وأنا في انتظارك، ولن أغادر قبل أن أراك.
أضيئت الطرق، ومازال الرجل المسن واقفًا ممسكًا بساعته.. إنها السادسة والربع، لقد انتظر مدة نصف الساعة.. ازداد المطر شيئًا فشيئًا، فأمسك أطراف ملابسه بأصابعه، فتجمعت المياه بها وسقطت على الأرض أمام حذائه، ونظر حوله، لم يجد أي شخص، فأغلق عينيه.. بماذا يفكر في هذا الوقت؟
فكر في أنه لو اشتد المطر، وحتى لو أمطرت سكاكين، فلن أستطيع الرحيل؛ لأنني قلت للولد الصغير "لن أخطو خطوة قبل أن أراك"، فيجب على الإنسان أولًا أن يكون محل ثقة!
وبدأت السماء ترعد، ففتح عينيه ووجد في الجهة المقابلة من الشارع دراجة، وكان هناك رجل مسن آخر يقف حارسًا للدراجة رغم هطول المطر، وجاء في تفكيره أن هذا الرجل حارس الدراجة محل ثقة، فعلى الرغم من أن هذه الدراجة لا تستحق أكثر من يوانين، فإنه يقوم بمهمته حتى النهاية، ويستحيل أن يترك الدراجة دون حراسة، فيجب عليَّ أيضًا أن ألتزم بوعدي حتى لو كان هذا الوعد لطفل صغير!.. صحيح يجب ألا أغادر قبل أن يعود حتى لو انتظرت ساعة أخرى أو ساعتين. مرت ساعة، ومرت الأخرى، ولم يأتِ ذلك الولد الصغير، ولم يمنع الرجل الكبير نفسه من التساؤلات: ماذا عليَّ أن أفعل إذا لم يأتِ ذلك العفريت الصغير؟
وبعد أن طرح السؤال بدأ بتوبيخ نفسه قائلًا: كيف أفكر بهذه الطريقة؟ إن من لا يتحمل مسؤولية قوله ومن لا يلتزم بمواعيده دائمًا ما يؤكد على "اعتقدت أنك لن تأتي، لذلك أنا..."؛ وبهذا الشكل يُخلي مسؤوليته ويلقيها على شخص آخر.
أسدل الليل ستاره، وشعر الرجل المسن بأن ملابسه تبللت، وراح يرتجف من برودة الجو، وقل عدد الناس في الطريق، فشعر بأن استمرار مناوبته في هذا المكان لا طائل منها، غير أن الطفل الصغير ربما وقع معه ظرف استثنائي ولن يأتي مساء اليوم.. وظل الرجل المسن يفكر في الأمر، فتذكر أن غدًا يوم الاثنين، ويجب على التلاميذ الذهاب إلى مدارسهم، فإذا التزم بوعده للطفل "بأنه لن يغادر قبل أن يعود" فربما سيظل منتظرًا حتى يوم الأحد المقبل؛ لذلك قرر المسن العودة إلى منزله، على أن يأتي إلى هذا المكان مرة أخرى صباح الغد ليلقي نظرة، وإذا لم يجد هذا الطفل الصغير سيأتي عدة مرات كل يوم، وسينتظره حتى يلقاه ويعيد له شارة المناوبة وإيصال الغرامة.

فكرّ الرجل في آن يستقل الآتوبيس العام، لكنه تحسس جيبه وتذكر أنه ليس لديه أي نقود، وأخذ يردد: حافظتي؟ على الأغلب أحضرتها معي، فأين ذهبت؟
اضطر الرجل المسن أن يتوكأ على عصاه، ويسير خطوة بخطوة قاصدًا منزله.. وبالفعل، سار نحو عشرين دقيقة، بعدها وجد طفلًا صغيرًا يقف في ضوء عمود إنارة الطريق بجانب شجرة البلوط الأخضر الصيني، وكان حال هذا الطفل مثل حاله، فقد تبلل حتى أصبح يشبه الدجاجة المبتلة.. كانت كل خطوة يخطوها الرجل تقربه من الولد، وعندما دنا منه كاد يصرخ لأن هذا الطفل هو...
تعرَف الطفل الصغير إلى الرجل أيضًا، وقال له: "أيها الجد، كدت أموت من القلق هنا، لقد وجدت حافظة نقود، انظر"، وأخرج الطفل المحفظة ثم قال: "حتى هذه اللحظة لم يأتِ الشخص الذي أضاع المحفظة للبحث عنها، لذلك لم أستطع العودة إليك".
ظلَّ الرجل ينظر إلى حافظة نقوده، ثم ضمّ الطفل الصغير إلى حضنه بشدة.
***

المكان المعهود

كان "مكاننا المعهود" لي ولها يقع أسفل عمود الكهرباء الثالث داخل الزُقاق الضيق الثاني عند الجهة اليمنى من سينما W، كنت إذا ما هاتفتها نهارًا نتواعد أن "نلتقي بعد انتهاء العمل عند المكان المعهود"، فلم يكن يحل المساء إلا وتلتقي وجوهنا في قرب تحت عمود الكهرباء الخالي من المصابيح.

وفي "مكاننا المعهود"، كنا نتحدث فيطول بنا الحديث لعدة ساعات، ولأن الوقوف طويلًا دون حَراك متعب حقًا، كنا نتحدث بينما نحك أديم الأرض بأقدامنا، فمثلا "أحبك" كنت أقولها وأنا أفرك نعل حذائي في الأرض من التوتر، "وأنا أيضًا" كانت تقولها وهي تحدّق في طرف الحذاء الذي كان لا يكف عن الانتفاض من التأثر.. وبمرور الزمن، شهد الطريق الأسفلتي عند "مكاننا المعهود" على "النقرات" الأربع لأحذيتنا (في الواقع إن "نقرات الأحذية" تلك انطبعت في تلك الليلة القائظ حرها، حيث أوشك الأسفلت على الذوبان). "مكاننا المعهود" هو "نقطة اتصالنا السرية"، هو الواحة الأنقى، الأجمل والأخصب لصميم رُوحنا.

كنا نود لو نلتقي أنا وهي عند ذلك المكان مساء كل يوم، لكن الجامعة الليلية أطالت شوقنا نحن الاثنين إليه.. واليوم، تخرّجنا وتواعدنا أن نلتقي في الثامنة مساءً عند "المكان المعهود"!

وفي الثامنة، التقينا أنا وهي عند مدخل الزُقاق الضيّق الثاني على اليمين من سينما W، وركضنا نحو عمود الكهرباء الثالث.. آه، يا للأسف! لقد "استولى" عجوزان على "المكان المعهود"، لم نرَ تحت ضوء القمر سوى ذلك الجد العجوز بلحيته البيضاء يقول وهو يفرك نعل حذائه في الأرض من التوتر: "لن أقضي الوقت مع الأطفال، فهم لم يوافقوا، سأقضيه معكِ وحدكِ!"، فقالت الجدة العجوز، التي ملأ الشعر الفضي رأسها، وهي تحدِّق في طرف الحذاء الذي لا يكف عن الانتفاض من التأثر: "سأذهب لأتشاور مع ابنتي، وإذا وافقت سأوافيك".. "حسنًا، أين سنلتقي مساء غدٍ؟" سأل الجد العجوز بلحيته البيضاء.. "هنا في المكان المعهود؟" أجابت الجدة العجوز.

وعلى الفور قررت أنا وهي ألا نأتِ إلى "مكاننا المعهود" ثانيةً، وأن نتنازل عن هذا "المكان المعهود" إلى العجوزين اللذين كانا في صراع مع المفاهيم التقليدية الموروثة.

***

أصدقاء المرحلة الابتدائية

أصدقاء المرحلة الابتدائية، يا له من مصطلح ودي لطيف!
يوجد تقريبًا لدى كل شخص بالغ أصدقاء من المرحلة الابتدائية، إذا كان يوجد في فصلكم وقتها أربعين طالبًا، فأنت إذن لديك تسعة وثلاثين صديقًا من المرحلة الابتدائية، وإذا كان هناك خمسون طالبا، فأنت لديك تسعة وأربعون صديقًا.
أما أنا فلدي أصدقاء كُثر من المرحلة الابتدائية، يشكلون مجتمعين مائة وثلاثة وأربعين صديقًا! ربما ستتساءل: "وهل يوجد هذا العدد من الطلاب في الفصل الواحد؟" سأصدقك القول، أنا لم أكن أؤدِّ واجباتي المدرسية جيدًا، فرسبت مرتين، ولهذا التحقت بثلاثة فصول، أليس الطلاب من هذه الفصول الثلاثة هم جميعًا أصدقائي في المرحلة الابتدائية؟
في ذلك الوقت، كان من لا يستذكر دروسه جيدًا يلقى ازدراءً من قبل زملائه، وبعد رسوبي مرتين متتاليتين أطلق عليَّ الزملاء لقب "سيد الراسبين"، فيما معناه أن من كان يريد الرسوب فعليه أن يتخذني معلمًا وقدوة.
في تلك السنوات الثمانية الشاقة، لا أعرف كم مرة قامت أمي التي كانت سريعة الغضب بوخز أصابعها في رأسي، أما أبي فكان يصفعني على وجهي في كل مرة.. في إحدى المرات طلب مني المعلم أن أستخدم عبارة "شق الصوت عنان السماء" وأضعها في جملة مفيدة، فقلت بصوت عالٍ: "مساء الأمس عندما كنت أقوم بواجباتي المنزلية، أخطأت في حل أحد أسئلة الحساب، فصفعني أبي صفعة قوية شق صوتها عنان السماء".
سأظل أتذكر هذه الجملة إلى الأبد، فقد سطرت كم ذرفت من دموع!
في ذلك الوقت كنت مشتتًا ومشوشًا جراء الشتم والضرب والفزع، ونتيجة لذلك ازداد غبائي أكثر فأكثر، فلم أعد أفرق بين "الضحك" و"البكاء"، أحيانًا كنت أخطئ في قراءة كلمة "الضحك" وأقرؤها "البكاء"، وأحيانًا أخرى كنت أخطئ في قراءة كلمة "البكاء" وأقرأها "الضحك"، حتى أختي الكبيرة أطلقت تنهيدة وهي تنتقدني قائلة: "أنت حقًا جعلتنا لا نعرف أنبكي أم نضحك!".
أتذكر أنه في إحدى المرات لم أحصل على درجة كافية لاجتياز امتحان مادة اللغة الصينية وآدابها، فأصابني الفزع، ولم أجرؤ على العودة إلى البيت، ذهبت إلى أطراف المدينة، وفكرت أن ألقي بنفسي في النهر، وكان هناك صياد مسن رآني على هذه الحال المريبة، فسحبني من يدي، وأخذ يسأل عما حل بي، أخبرته وأنا أبكي بحرقة، ما إن استمع لي حتى أخذني بسرعة إلى بيته، ودعاني

لتناول الطعام، وقص عليَّ قصة أينشتاين، قال: إن أينشتاين عندما كان في الرابعة من عمره كان لا يجيد الكلام، وعندما بلغ عمره عشر سنوات كاد أن يُفصل من المدرسة، لكنه لم يصبه اليأس، وبعد مجهود شاق طويل، كانت النتيجة.

كل شخص عادة ما يكون لديه لحظة تنوير، بعدما تخرجت من المرحلة الابتدائية عضضت على نواجذي وأكملت دراستي بالمرحلة الإعدادية، وبعد أن حصلت على عمل خصصت بعض الوقت وتعلمت بنفسي، وأنهيت بكل إخلاص دراسة جميع مواد قسم اللغة الصينية في الجامعة، وزدت على ذلك إتقان إحدى اللغات الأجنبية.

قبل فترة قصيرة شغلت منصب مدرس في "الجامعة المسائية"، وعندما وقفت أول مرة على المنصة لألقي المحاضرة، اكتشفت أن من بين طلاب الذين يستمعون للمحاضرة، كان يوجد صديقان لي من المرحلة الابتدائية، بل أن واحدًا منهما كان رائدًا للفصل في ذلك الوقت!

***

الأعزب العجيب

منذ ما يقرب من ستة أشهر، انتقل إلى عمارتنا شخص أعزب، يعمل بمصنع الآلات، وذلك طبقًا لما يقال، وهذا الشخص حقًا.. فجاء إليَّ بعد أن انتقل إلى عمارتنا بيومين فقط!

أتذكر أن هذا اليوم كان يوم العيد القومي، فجاء إلى باب شقتي، وقال لي بوجه مبتسم: "أأنتِ ماو دي؟"، فأومأت برأسي مؤيدة، فقال: "أعتقد أنكِ تريدينني لأمر مهم، أليس كذلك؟"، ودخل البيت بعد ذلك وتحدث مباشرة قائلا: "أنا لي دا، أسكن بالطابق العلوي من المنزل، ومنذ قريب كنت أدرس طرق تفصيل الملابس، ورأيتك بالأمس اشتريتِ قطعة من القماش، فهل من الممكن أن تعطيها لي كي أفصلها، وذلك دون مقابل"، وبعد أن استمعت إليه، بدأت أفكر: هل هو يريد أن يتعلم التفصيل؟ لم أكن على يقين من ذلك، فهو رجل أعزب فربما يرغب في البحث عن... وعندما وصلت إلى هذه النقطة من التفكير، فأجبته بشيء من عدم الاكتراث قائلة: "معذرًة، فقطعتي القماشية ليست منتجًا تجريبيًّا لك"، فانتقل بنفسه إلى المقعد وجلس، ورجاني بإخلاص قائلًا: "أعطني إياها أفصلها، وإذا فسدت فأنا مسؤول أن أعوضكِ عنها"، وبهذه الطريقة لم أجد سببًا كي أبرر به رفضي، ولكي أجعله يغادر مسرعًا، أخذت قطعة القماش وأعطيتها له، وقلت: "حسنًا، أريد معطفًا مبطنًا بالقطن"، وبمجرد أن انتهيت من كلامي أخرج هو "مازورة" من حقيبته لمعرفة المقاس والحجم.

وبعد ثلاثة أيام ذهبت لأتسلم قطعة القماش المُفصلة، ودخلت الغرفة، وجلست متعجبة، فجوانب الغرفة جميعها ممتلئة بصور لقطع ملابس مفصلة، فالسرير والمنضدة حتى الأرض مملوءة بالبترونات.. أعطاني الأعزب ما فصَّله لي، وعلى الرغم من أن قطعة القماش كانت تبلغ خمسة أقدام وخمس بوصات فقط، فإنه لم يفصِّل منها معطفًا مناسبًا لي تمامًا مبطنًا بالقطن فحسب، بل فصَّل حذاء قماشيًا أيضًا، ولم يهدر أي أقصوصة من القماش، فقد لملمها وصنع منها منشفة شاي فريدة غاية في الجمال والأناقة، فلم يسعني إلا أن أمدحه قائلة: "خياط ماهر! فأنت بارع حقًا في أخذ المقاسات؟! لقد حولت الجوارب إلى ملبس".

إن دا لي حقًا شخص عجيب، فهو لم يبادر بتفصيل قطعتي القماشية فحسب، بل أجبر أخي لأن يصبح نجارًا له، فأمسك بأخي وقال له: "أنا سأصنع لك أثاث بيتك، فإذا جعلت آخرين يصنعونه لك فهذه القطع القليلة من الخشب لن تكفي"، فوافق أخي باعتباره نوعًا من واجب الجيرة.

وصل الخشب وثلاثة ألواح إلى يد "دا لي"، وكأنه كما لو كان حصل على قطع

من الذهب، فكان يصعب عليه إهدار أي قطعة من الخشب، ففي بعض الأحيان كان يجلس وقتًا طويلًا يرسم الخطوط ليحسب المقاسات جيدًا. وبعد ذلك تم تفصيل الأثاث كاملًا، كما فصَّل خزانة سريرية صغيرة مستخدمًا قطع الخشب المتبقية.

ساعد الأعزب "دا لي" أخي، فصنع الأثاث دون أن يأخذ منه فتًّا واحدًا[5******)]، وقال: "إنني أساعدك في أوقات فراغي، غير أنك جاري، فكيف لي أن آخذ منك أموالًا؟ أشعرتني طريقته هذه ببعض القلق، فليس من الممكن أن تكون كل هذه المساعدات التي يقدمها لأفراد عائلتي دون مبرر، فهو رجل أعزب، وأنا آنسة كبيرة، وإذا كان كل ذلك من أجلي فماذا سأفعل؟

واليوم، أشار والدي إلى مقالة بالجريدة قائلًا لي: "لي دا مينغ، هو حقًا لي دا مينغ من يسكن في أعلى العقار، إنهم يمدحونه في الجريدة"، ورغم انشغالي فقد أخذت الجريدة وقرأت ما فيها عنه، إنهم حقًا يمدحون لي دا مينغ قائلين: "من خلال دراسته المركزة في أعمال التفصيل والفولاذ اكتسب خبرات عديدة في التفصيل والطلي بالنيكل، كما أنه دائم التطوير من نفسه، ويصيغ ما يُطلب منه بأقل نسبة من المواد الخام، ويحول قطع الفولاذ الكبيرة المفككة وغير المنسقة إلى قطع منسقة، وبهذا الشكل يوفر حوالي 18 طنًّا من الفولاذ لمصنع الآلات كل عام".

لقد أسأت فهمه، لم أستمع إلى أذني بعد ذلك، وسأصعد دون تردد إلى أعلى العقار وأطرق باب دا لي، وأقول له بكل جرأة: دا لي، أريد أن أنسج لك معطفًا.

***

اذهب، اذهب لرؤية طائر العقعق

في الآونة الأخيرة، كانت هناك أزمة عاطفية بيني وبين زوجتي، فحطمت أنا الوعاء، وألقت هي بالأواني، وفي أثناء المشاحنات بيننا خرج لفظ "الطلاق" عدة مرات، ومع ذلك فإن كل تفكيرنا كان يتركز على ابننا الذي يجري اختبارات المرحلة الثانوية، فلم يجرؤ أحد منا على التوجه إلى المحكمة.

لم نستطع إذابة ما بيننا من خلاف، وفي الوقت ذاته لا نجرؤ على اتخاذ قرار الطلاق، ومرت الأيام بيننا بصعوبة شديدة.. سمعت حماتي العجوز تلك الأخبار؛ فلم تضيع وقتًا، وجاءت مسرعة لتتوسط بيننا، ووجهها كان قد امتلأ بالدموع.. حقًا، يمكننا أن نقول إنه عتاب بشكل أمومي، وفي النهاية أخبرتنا بـ"الوصفة السرية للمصالحة" ألا وهي: الذهاب إلى البرية لرؤية طائر العقعق، فإذا كنا محظوظين برؤيته فحتمًا ستعود حياتنا للأفضل كما كنا من قبل زوجين سعيدين.

على الرغم من معرفتنا بأن تلك الوصفة لا طائل منها، فقد فكرنا في أن نجرب ذلك، وهذا يوضح أنه على الرغم من أن لدينا نية الطلاق، فإننا لم نفقد الأمل في المصالحة..

يا إلهي.. إنه أمر معقد حقًا!

بالأمس، قمت أنا وزوجتي كل منا على حدى بتجهيزات الذهاب لرؤية طائر العقعق، قد استعرت منظارًا من أجل توسيع مجال الرؤية، أما هي فقد اشترت الخبز والمربى والإوز المشوي، يبدو أنها تريد أن نتنزه معًا.

واليوم في الصباح الباكر، ركبت زوجتي "طائر العنقاء" للخروج من المنزل، وسارعت أنا لإحضار المنظار، وتقدمت خطوة في سبيل "حياتنا الأبدية".

الضاحية، والسماء الزرقاء الصافية التي لا تشوبها شائبة، ونعومة النسيم اللطيف المضيء بتألق الذي يبعث روائح عطور البرية وأوراق الشجر وزهرة الأرز، جلست أنا وزوجتي أعلى تل صغير في هدوء يتخلله تركيز سارح الفكر مع التحديق إلى الأمام، ومن حين لآخر يظهر حولنا طائر من بين الشجيرات يهز أجنحته في إيقاع أنيق سابحًا بلطف في الهواء على شكل موجات زرقاء اللون، وهذا ما جعل زوجتي تحدق بعينيها، وأثار أيضًا نبضات قلبي. وعلى الرغم من أنه لم يكن طائر العقعق، وربما يكون طائر الأوريول أو البلشون الأبيض أو عصفورًا آخر؛ فإن هذا المشهد الخلاب كان كفيلًا بأن يشعر قلبي بالارتياح والتحرر من الأفكار التافهة، كما كانت لطائف النسيم الساحرة تداعب وجه زوجتي.

وبدأنا في تجاذب أطراف الحديث، وتحدثنا عن تلك الليلة المقمرة التي قضيناها على ذلك التل الصغير في بدايات حبنا، وتكلمنا عن ذلك الفندق الذي قضينا فيه رحلة شهر العسل، كما تذكرنا معًا الحفل العائلي الراقص الذي أقمناه لابننا بمناسبة "أسبوع الاستيعاب[6*****].

كانت نزهة فاخرة، فقد رفعت المنظار، ولم يكن هناك طائر العقعق.. لا يوجد، لا وجود لأي طائر عقعق هناك، ولكن كان هناك مسافات بعيدة، مسافات بين سعادة الماضي وسعادة المستقبل.

***

زجاجة النسكافيه الفارغة

الشيء الذي يلازم مديرنا دائمًا كظله هو كوب من الشاي، وهذا الكوب في الحقيقة ما هو إلا زجاجة فارغة تبدو وكأن بها قهوة نستلة، كما يوجد أعلى غطاء الزجاجة البني اللون كلمة بالإنجليزية."NESCAFE"

في الصباح الباكر، عندما أستقل السيارة وأذهب إلى منزل المدير لأصحبه للذهاب إلى العمل، دائمًا ما أراه يضع بتأنٍ حقيبة الوثائق الموجودة على المكتب وجراب النظارة وقداحة السجائر، وغير ذلك في حقيبة يد سوداء، وفي النهاية يمسك بكوب الشاي هذا ويشرب القليل منه، ثم يلف الغطاء ويحكم غلق الزجاجة، ويقلب الزجاجة مرة أخرى ليرى ما اذا كانت يتسرب منها الشاي أم لا حتى يطمئن بذلك، ويضع كوب الشاي الممتلئ بالشاي المغلي جيدًا في حقيبة يده بحرص شديد.

وحينما كنت أقف على درج المبنى وأرى المدير، دائمًا ما كنت أراه يمسك بالجزء العلوي من الكوب بيده اليمنى والجزء السفلي منها بيده اليسرى، بينما يصعد الدرج أو ينزل منه، ويتحدث إلى السكرتارية ورؤساء الأقسام والمديرين أو أي شخص آخر، ويشرح لهم بعض الأمور.

وذات مرة، كنت أقود السيارة مصطحبًا المدير إلى منزله، وكان لديه - على الأغلب - أمر طارئ، فجعلني أقود السيارة بسرعة أكبر، وعندما مررنا بتقاطع الطرق، أضاءت الإشارة الحمراء فجأة، فضغطت على فرامل السيارة بسرعة، وشعرت بأن المدير قد اصطدم فجأة في الجزء الخلفي من مقعدي، نظرت بسرعة إلى الوراء، فإذا به يتصبب عرقًا، ولكنه ابتسم بلطف في وجهي وأراح قلبي قائلا: "لا يهم، لم يصبني أي مكروه، أنا الذي جعلتك تزيد من سرعة السيارة، فلا ألوم إلا نفسى".

بعد ذلك رأيته يفتح سحَّاب حقيبته اليدوية، وأخرج منها كوب الشاي هذا، وأخذ يفحصه على ضوء شعاع النور المنبثق من نافذة السيارة ليتأكد إن كان الكوب الزجاجي أصيب بكسر أم لا.

باختصار، ترك كوب الشاي الخاص بالمدير انطباعًا عميقًا لدي، مما جعلني أفكر في عمل شيء ما، ففي الليلة الماضية سألت زوجتي: شيو تشن، هل اشترينا في منزلنا زجاجة قهوة نستلة أم لا؟

ـ كيف لك أن تفكر في شراء تلك السلع الأجنبية، وأنا كلما طلبت منك شراء كوب من الزبادي لابننا كنت تستكثر ذلك؟ أنسيت المرة الماضية حينما كنا بمنزل شقيقتك الصغرى، وشربنا كوبًا منه، كان به مرارة شديدة، تشبه مرارة الدواء الصيني.

فحدثتها بالتفصيل عن مديرنا وكوب الشاي الذي لا يفارقه..

ـ ولو أن ذلك الكوب تعرض للكسر أو التلف في يوم من الأيام، فحينها سأكون...
ـ ألم تقل دائمًا إن مديرك لا يقبل الأشياء التي يهديها إليه الآخرون مطلقًا، وقد أشادت به الصحف جميعها؟
ـ ولهذا السبب أهديه زجاجة فارغة طبق الأصل منها، فأنا أعتقد أنه سيقبل الزجاجة الفارغة.
ـ كم سعر الزجاجة؟
ـ لقد ذهبت لرؤيتها، المتوسط منها بسبعة وثلاثين يوانًا.
ـ لكنها باهظة الثمن بالنسبة لنا، فهي تساوي ما نحصل عليه معًا من المكافآت في الشهر الواحد!
ـ في الحقيقة، في الحقيقة هي غالية الثمن بسبب ما تحتويه، نحن نضع القهوة في أكياس بلاستيكية، ونحتفظ بها بعد ذلك لتقديمها للضيوف.
ـ لكنها مكلفة جدًا، فلا تشترها.
أومأت برأسي.. ونمت. وفي وقت مبكر من صباح اليوم، أيقظتني زوجتي: يا تشي تشيانغ، وقالت لي وهى تفرك عينيها:
ـ حسنًا، أنا لم أنم جيدًا تلك الليلة، فكرت كثيرًا وكثيرًا، عليك بشرائها.
***

لا تعش أو تمت أنانيا

كان رائدًا للفصل بالمرحلة الثالثة المتوسطة، وكانت هي مساعدة رائد الفصل، ولكنهما خسرا هذه المرة من إعادة انتخاب الكوادر، فقد كان السبب المتفق عليه تقريبًا هو الأنانية وعدم الاهتمام إلا بالنفس، وعدم استطاعتهما قيادة الصف نحو الأمام.

لم يكن والداه بالمنزل يوم الأحد، فاتصل بهاتفها المنزلي قائلًا لها: ما جيه، هل تعرفين الجملة التي قالها أوستروفيسكي من قبل؟

فسألته: أي جملة؟

ـ "من يعش لنفسه فهو بهيمي، ومن يعش لأسرته فهو مذلول، ومن يعش للناس فهو سعيد".. ولكن المدرسين والطلاب جميعًا يعتقدون أننا نعيش لأنفسنا.

ـ قد يكون لدينا فعلًا بعض الأنانية.

ـ إذن فلتأتي فورًا إلى بيتي ما جيه، حسنًا؟

ـ آتِ إلى بيتك؟! ماذا سنفعل؟

ـ لأن عيشنا لأنفسنا ليس له معنى، فسوف نقوم معًا بـ...

ـ نقوم معًا بـ... نقوم معًا بماذا؟! تكلم!

ـ سننتحر معًا.

ـ ننتحر معًا؟! حسنًا.. سآتي فورًا.

ولم يُتوقع أن يأخذ طالبان بالمرحلة المتوسطة قرارًا صادما كهذا بكل بساطة وبمنتهى التهور، فظلت ما جيه تخطو مهرولة على الثلج الكثيف طوال الطريق حتى وصلت إلى بيت ليو جيه. وقال ليو جيه إنه لا يوجد عقار المنوم، ولكن هناك عقار لعلاج نزلات البرد، فإذا أخذا حبتين فسيخلدان سريعًا إلى النوم، ولكن أهم ما في الأمر هو إغلاق جميع أبواب النوافذ بإحكام قبل تشغيل سخان المياه الذي يعمل بالغاز...

استلقى كلاهما نائمًا على سجادة، وتواثب الغاز ليكوِّن شعلة زرقاء داخل السخان، وانسكبت المياه من فوهات الصنابير متوزعة بالتساوي على البلاط المصقول، فانتشر البخار في جميع أرجاء دورة المياه.

ولكنهما أفاقا من شدة البرد بعد ساعة، فنهضا ليريا ما حدث لسخان المياه، فوجدا شعلة النار ما زالت تخفق بكل قوتها، ما الأمر إذن؟ آه، لقد فتح ليوجيه شفاط المطبخ عندما كان يقلي البيض الأومليت ونسي أن يغلقه بعدها، فاستمر الشفاط بتبديل الهواء الخارجي بالهواء داخل الغرفة!

لم يمر الوقت على غلق ليو جيه ذلك الشفاط حتى صدر فجأة من أفراد العائلة بالدور السفلي صوت نحيب متواصل يدمي القلوب ويمزق الصدور،

فنزل ليو جيه وما جيه مسرعين إلى الدور السفلي لرؤية ما حدث، فوجدا آن ذاك الطفل الصغير بالدور السفلي كان يلهو، فزحف إلى تحت السرير، وسحب قاطعًا بيده الصغيرة أسلاك كهرباء متصلة.

كان والدا الطفل يبكيان، وكانت جدته تضرب رأسها في الجدار، وكان والجيران المحيطون وزملاؤهم في العمل الذين أسرعوا بالمجيء يبكون جميعًا، فبكت ما جيه، وبكى ليو جيه أيضًا.

قالت ما جيه: مفجع جدًا! موته مفجع جدًا! فقال ليو جيه: إنه بالفعل مفجع جدًا! وجعل أيضًا كل هؤلاء الأحياء في حزن شديد.

ـ ولكن الطفل الصغير لم يرد إطلاقًا أن يُحزن عائلته، أما نحن..

ـ إذن، لنترك فكرة الانتحار.. ما جيه، لقد نسينا أن نطفئ سخان المياه مرة أخرى، فلنصعد بسرعة.

واتخذ الصبيان بكل بساطة قرارًا في غاية الأهمية والرشد!

***

المصباح الخلفي

سيحل الظلام قريبًا، المصابيح ليست منارة بعد.
ركب هو "الحمامة الطائرة" وسار نحو الأمام، وركبت هي "طائر العنقاء" ولحقت به خلفه.
أكانا أخًا وأختًا؟ حبيبًا وحبيبة؟ زوجًا وزوجة؟ لا، لم يكونا أيًّا من كل هذا.
كان هناك حفرة في الطريق، فكبح فرامل الدراجة على الفور، أما هي فقد تأخرت ردة فعلها قليلًا واصطدمت.
التفت خلفه، ليجد العجلة الخلفية قد انشقت من الاصطدام، فأدار دراجته تسعين درجة وعبر الطريق.
تجمع الكثير من المارة أكثر فأكثر.
ـ ماذا أفعل؟ انظروا، تهشم المصباح الخلفي، عليكِ أن تعوضيني الآن.
قالها وهو واضعًا يديه حول خصره.
ـ أعوضك؟ أقصى ما يمكنني فعله هو الاعتذار..
تطلعت بعينيها نحو غروب الشمس.
ـ تعويض بالمال.
ضاربًا بيده فوق مقعد الدراجة، فارتد ارتدادًا عاليًا.
بالمناسبة، على غرار هذا الزنبرك، تكون قويًا فيضعف وحينما تكون هينًا معه يصبح هو قويًا، فلا يمكنني أن أظهر ضعفًا!
ـ أقول لك الحق، لم يخلق بعد من يدعو العمة لتدفع تعويضًا ماديًّا.
انفجرت حشود الناس في الضحك.
سار نحوها، خطوة، اثنتين، ثلاث... لم يضربها، إنما صك قفل دراجتها بسرعه ثم سحب المفتاح.
انزعجت بشدة، لكن لم يكن بيدها حيلة.
رفع مفاتيحها عاليًا، إن لم تدفعي التعويض، سيودعك عمك، إلى اللقاء.
سحبت دراجته في الحال: كم أدفع؟
ـ السعر الرسمي، ثمانية ماوات وفِنَّان.
عضت على شفتيها، وهى تفكر، أخرجت أربع عملات ورقية من فئة الماو وعملة معدنية من فئة الِفن، وسلمتها له.
لم يأخذها، وقال بلهجة ساخرة: إنك سخية للغاية! أربعة ماوات وفنَّا، أتعوضينني بالنصف، لن أقبلها!
ـ أليس لديك أي مسؤولية؟
مسحت وجهها من رذاذ اللعاب الذي نثره على وجهها..
ـ كيف كنت سأصطدم بك إذا لم تكن ضغطت على الفرامل؟

تحدث المارة، وقال أحدهم: "اليوم حار، لم كل هذا؟ لأجل بضعة ماوات؟"، والآخر يقول: "لا عليكما، لا عليكما، دفعت النصف، ليكن، لتدفع النصف". ضرب بيده على الدراجة إشارة للجميع كي يصمتوا، وقال كمن يطلق بيانًا هامًا: "هكذا الصينيون، يحبون دائمًا الحلول الوسط، ثمانية ماوات وفِنَّان، ولا ينقص منهما فنًّا واحدًا".

ـ أربع ماوات وفِن واحد هو أقصى مبلغ يمكن أن أعطيه لك.

ضربت هي الأخرى بيدها بمقعد الدراجة، قابل الشباب الصغير من محبى إثارة الشغب ذلك بالتصفيق الحار. لم يلتفت أحد إلى فتاة ترتدي تنورة حمراء كانت قد زاحمت ووصلت إلى وسط الحشود.

ـ عمي..

صاحت نحو صاحب "الحمامة الطائرة "..

ـ عمي، أنا لا أشرب المشروبات الغازية.

في لحظة اتجهت أنظار الجميع نحو الفتاة الصغيرة التي ترتدى التنورة الحمراء.

ـ عمي. رفعت رأسها لأعلى، وهى ممسكة بأربع ورقات نقدية من فئة الماو..

ـ أعطاني أبي هذه الورقات الأربعة لأشتري زجاجة مياه غازية لأشربها، وقد أعطتك الخالة أربعة ماوات وفِنًّا، وأنا أعطيك أربعة ماوات أخرى، ولكن يتبقى فِنًّا، انتظر هنا، سأعود للبيت فورًا وأحضره، فمنزلي ليس ببعيد عن هُنا، سأذهب أنا، وأنت لا.. لا داعي لأن...

ألصقت سبابة يدها اليمني بشكل عمودي على شفتيها. واحمر وجه صاحبة دراجة "العنقاء"، وجلست القرفصاء، وأخذت الأربع ماوات من يد الفتاة الصغيرة، ووضعتها بجيب الفتاة نفسها، وقفت، ثم أخرجت أربعة ماوات أخرى وفِنًّا، ثم أعطتها له:

ـ تفضل، هذه ثماني ماوات وفِنّان.

لكنه لم يأخذ التعويض، وضع مفتاح دراجتها فوق النقود التي تعطيها له وقال: لا عليكِ، هذا المصباح الخلفي سوف ألصقه بغراء، سوف يفي بالغرض. وأفسح الناس لكليهما الطريق.

قاد دراجته نحو الأمام، وسارت هي بالخلف قابضة على فرامل الدراجة، وعلى غير اتفاق أدار كل منهما رأسه للخلف، لوحت له الفتاة الصغيرة ذات التنورة الحمراء بيدها، وأضيئت مصابيح الطريق، وكانت تلك التنورة تشع نورًا وبريقًا خلف الدراجة.

***

ما زالت خضراء زمردية

غادر ورحل عنها، ورحلت عنها "قرينة الروائي"، "الزوجة الفاضلة للأديب العظيم" وغيرها من الألقاب التي لُقبت بها.

مرضت، وتدهورت حالتها الصحية، فظلت طريحة الفراش لم تبرحه.

وكانت الابنة تخرج مبكرة وتعود متأخرة، كانت غارقة في عملها، فهي تعمل بقسم التحرير، وحينها فقط وفي المساء، تجد أحدًا يصاحبها ويتحدث معها.

كان النهار من أصعب الأوقات التي تمر عليها، وكثيرًا ما كانت تتمنى أن يأتي أحد ويدق جرس بابها، أو تسمع خطوات أحدهم أتى لزيارتها.

في يوم ما، شعرت ببعض التحسن، فنهضت من فراشها وذهبت إلى الشرفة تشاهد من بعيد المارة والعربات السائرة في تلك الطريق الصغيرة. كانت جدران البناية الصغيرة المقابلة لها حافلة بنبات اللبلاب، وجاءت الرياح فتطاير بعض من أوراقه وسقطت واحدة منها في الشرفة، فالتقطت هي تلك الورقة ووضعتها بزهرية ورد، وانتظرت حتى تذبل هذه الورقة، وتتحول إلى سماد.

وبعد مرور أيام، تفاجأت بالورقة التي تركت الجدار، وتركت جذوع النبات، ما زالت بلونها الأخضر الزمردي، فرفعت أحد أطراف الورقة بحذر، فاندهشت لإنبات الورقة جذورًا جديدة.

في اليوم الثاني تعافت من المرض بالأعجوبة!

***

تلك الليلة، على ضفة البحيرة المجهولة

على ضفة البحيرة، تحت ضوء القمر، جلست أنا وأنت، وكانت هي معنا.. كان لكل منا ما يشغل باله، وعلى ما يبدو أنكما أيضًا لا تعرفان بعضكما.

كانت هي بعيدة عني تمامًا.. أما أنت، فكنت منكبًّا على كتاب، تقرأ شيئًا ما في هدوء، جلست أنا كثيرًا، وسرت حتى وصلت إلى أحد القوارب الجانحة، وأخذت ألقي بقصائد الشعر صفحة تلو الأخرى في البحيرة.

ظللت أكتب الشعر عشر سنوات كاملة، ولكن لم ينشر منها سوى قصيدة واحدة.. والليلة، جئت لأودع الشعر! انقضت أيام شبابي مع الشعر، وتبددت في غمار تلك الانفعالات المشوشة.

آه من الشعر! كان القمر الذي كنت أتوق إلى التقاطه، إما في أعالي السماء، وإما في أغوار البحيرة!

فجأة، سمعت صوت "سقوط شيء في الماء"، تلاها تكرار الصوت نفسه مرة أخرى، بعد فترة وجيزة، كنت تحملها أنت من البحيرة، فركضت أنا بسرعة.. كانت في حالة إثارة، تضحك عاليًا ولا تزال تريد أن تقفز نحو البحيرة.. لكم أريد تهدئتها، بكل أسف، لا أجد كلامًا ملائمًا.. أما أنت، أخرجت كتابًا من الحقيبة المدرسية، أخذت تقلب صفحات الكتاب حتى وصلت إلى صفحة ما، قربت الكلمات لعينيك، وأخذت تقرأ لها بصوت عال:

"صديقي، لا تحزن.. لا تيأس، إن كنت تفهم حقًا، قيمة الحياة، فإنك حتمًا ستقبِّل كل قطعة من الأرض، سوف تجعل المناديل التي مسحت دموعك المخضبة بالدماء من قبل، تتشبع ثانية بالعرق".. آه، ما قرأته كان هو القصيدة الوحيدة المطبوعة لي!

قالت وهى تبتسم: "إن الحياة هي تلك العيون المشرقة، هي وجود القمر في ليالي الصيف، أوراق القيقب في الخريف، أن تلتحف بسعادة ثيابك الزاهية". هنا فقط اكتشفت تحت ضوء القمر أنها كأنت ترتدي ثوب السباحة.

احتضنتك وقلت وأنا في غاية الامتنان: "القصيدة التي قرأتها لتوك، التي كتبتُها.. أنت جعلتني أتشجع كثيرًا، لم تنقذها هي، بل أنقذتني أنا.. الليلة سوف أكون بالتأكيد قادرًا على كتابة قصيدة جيدة، انظر، ما يعانقاك هما يدان مفعمتان بحماسة الإيحاء الشعري".

* * *

أعياد أسرتي

ابنتي ذات السنوات العشر تحب الأعياد، وتتمنى لو أن كل شهر يضم عيد رأس السنة أو عيد الربيع، وأن يكون كل يوم هو 1 يونيو. أنا وزوجتي نحب الأعياد أيضًا، ففيها نجتمع مع الأقارب والأصدقاء لنأكل ونشرب معًا بكل استماع وسرور، لذلك نشعر دائمًا أن الأعياد الرسمية غير كافية لإرضاء احتياجاتنا، فقمنا بتعيين "أعياد محلية" خاصة بنا، أي "أعياد منزلية"، فكل شهر نختار اليوم الذي تتخذه زوجتي "إجازة" ليكون "عيدًا للأم"، وفيه نتعهد أنا وابنتي بأعمال المنزل لنوفر الغذاء والراحة لأم ابنتي.

وفي كل فصل دراسي، كنا نتخذ اليوم التالي ليوم انتهاء امتحانات نهاية الفصل الدراسي "عيد الابنة"، ففي النهار نخرج أنا وزوجتي لشراء عدة كتب من رفوف الكتب من مكتبة "شين خوا" للأطفال، وفي المساء أحكي القصص المثيرة والرائعة لابنتي، وتحتضنها والدتها لتنام في حضنها.

أما أنا، فأنا كاتب، وعندما يُنشر لي عمل أدبي في الصحف، يكون اليوم التالي "عيد الأب"، هذا اليوم أقضيه وكأني "ملك"، فتحضر ابنتي الشاي لي، وتحضر لي النعال، أما زوجتي فتحضر لي الخمر، وتشتري الإوز المشوي، وبعد العشاء أترك المنزل لأخرج، وأذهب إلى قصر العمال والثقافة لأحل الألغاز، وأذهب للسينما لأشاهد فيلمًا، وأسمع الموسيقى، وأذهب لقاعة الرقص لأرقص الفالس.. فأذهب أينما أردت الذهاب، وأقضي هذا اليوم في راحة وحرية.

بينما تشكو ابنتي دائمًا من قلة "أعياد الابنة"، حيث هناك أربعة أعياد لابنتي سنويًا، أما "عيد الأم" يأتي 12 مرة على الأقل كل عام، واللافت للنظر أن عدد مرات "عيد الأب" يتزايد باستمرار؛ لذا طلبت الابنة باعتبار أيام "الامتحانات الصغيرة" أعيادًا للابنة، وكانت النتيجة واحد مؤيد واثنان معارضان؛ لذلك لم تنجح خطتها.

انتهت امتحانات الفصل الدراسي، وتبعًا للمتفق عليه فإن اليوم التالي هو "عيد الابنة"، وللحظ كان اليوم نفسه هو إجازة زوجتي ليكون أيضًا "عيدًا للأم"، بل الأكثر أنني اليوم السابق كنت قد نشرت رواية فكاهية صغيرة ليكون بذلك أيضًا "عيدًا للأب"!

هذا أوقعنا في مشكلة، فمن سيقوم بأعمال البيت في هذا اليوم؟!

* * *

خبر من جملة واحدة

وفقًا لتقرير الصحفي "تشوان شي" و"دون هاو" بمحطة الإذاعة السلكية التابعة للمحافظة:

إن الابن الفاضل الممتاز ابن الشعب، المقاتل الثوري المجرب المخلص، نائب رئيس اللجنة الدائمة لمجلس الشعب الوطني بالمحافظة، ممثل المجلس الوطني للحزب بالمقاطعة، مطور ومؤسس مجال تربية اللآلئ البارز بمحافظتي، الرئيس السابق لمزارع تربية اللآلئ بمحافظته، سكرتير لجنة الانضباط بمكتب الموارد المائية بالمحافظة، رئيس مجلس إدارة شركة الموارد المائية بالمحافظة، مدير مكتب إدارة المياه بالمحافظة، رئيس قسم تهيئة الثروات المائية بالمحافظة، الباحث بالجمعية العلمية للحد من التلوث المائي بالمحافظة، نائب رئيس مجموعة التقييم الوظيفي بالمحافظة، عضو لجنة تنمية التجارة الخارجية بالمحافظة، نائب الوزير الثالث لوزارة استشارات جذب الاستثمار من الخارج بالمحافظة، مستشار العلوم الزراعية بالمحافظة، المدير الفخري الثاني للمدرسة المتوسطة بالمحافظة، اختصاصي سجل المحافظة، عضو لجنة صندوق رفاهية المعاقين بالمحافظة، رئيس جمعية صيد الأسماك للكوادر القديمة بالمحافظة، الأمين العام لجمعية الصداقات المكونة بصالات الديسكو قديمًا بالمحافظة، رئيس مجمع القنال للرسم والخط بالمحافظة، رئيس حكام نادي الكروكيت بالمحافظة، الزميل الموكل خصيصى لإدارة وتوسيع تدريبات فريق الشطرنج الصيني بالمحافظة؛ قد وافته المنية مع الأسف في أثناء انشغاله بمهام العمل، وذلك في اليوم الخامس من شهر أبريل عام 1998م، في تمام الساعة الخامسة وثلاث وعشرين دقيقة.

* * *

اللقاء في السماء

عندما كنا صغارًا قضينا أنا وهو العديد من الأوقات الجميلة معًا، ففي ربيع مارس كنا كثيرًا ما نركض إلى غابات البامبو التي تقع خلف القرية، فنرى كيف تنمو براعم البامبو بعد سقوط المطر، وفي قيظ الصيف بشهر يونيو كنا دائمًا ما نقفز معًا في الجدول الصغير المقابل للقرية، لنصطاد الأسماك ونلاحق الروبيان، وبالأخص ذوات العيون الثاقبة منها، وطوال شهر سبتمبر الذهبي، كنا نقف بعيدًا، فنكتشف الزعرور الصيني المتدلي من فروع الأشجار، وفي الشتاء، كنا دائمًا ما نلحق بالسناجب ونبيعها لكسب المال، وفي كل مرة كنا لا نعود فارغي الأيدي.

ولكن لاحقًا أخذه والده الذي يعمل في الجيش، وانتقلا إلى مركز المقاطعة المدينة للدراسة، ومنذ ذلك الوقت لم أره مجددًا!

كثيرًا ما أشتاق إليه، متلهفةً لسماع أخباره ومعرفة أحواله، ودائمًا ما أرى اسمه على أوراق الصحف، فكثيرًا ما يظهر اسمه في الصحف بعد أن صار أحد الكوادر المهمة ذات الشأن المرموق بديوان المقاطعة.

أرسلت له العديد من الرسائل، الأول كان لأطمئن عليه، والثاني لأذكره بذكرياتنا في الماضي، أما الثالث فلم يكن مضمونه بالشيء غير المألوف، إذ أردت أن يتحمل عني بعض أعمال مصنع القرية المسؤولة أنا عنه.. ولكن، لم أتلقى منه أي رد.

وعندما ذهبت إلى المدينة ذهبت إليه ثلاث مرات، ففي المرة الأولى كان قد ذهب إلى بكين لحضور اجتماع، والثانية كان قد غادر البلاد من أجل جولة استكشافية، أما في المرة الثالثة فقد استقبلتني سكرتيرته وأخبرتني أن لديه العديد من الأعمال للقيام بها، ولا يستطيع أن يجد وقتًا لمقابلتي، وإن كان لدي أمر مُلِح فعليَّ أن أترك له رسالة.. أردت أن أترك له ملاحظة صغيرة، ولكنها مثل كتابة الخطابات، دون أي جدوى!

منذ وقت ليس ببعيد، راسلني مصنع بمدينة "قوانغدونغ" مقرًّا بجودة منتجاتنا، وأراد مني أن أذهب على وجه السرعة إلى مصنعهم لإجراء محادثات معهم. لقد كانت هذه أول مره أصعد فيها على متن طائرة، فقد كنت خائفة للغاية، يساورني القلق حول احتمالية سقوط الطائرة، ولكن اطمأن قلبي بمجرد أن رأيت بجانبي العديد من الأجانب، فلحياتهم قيمة أكبر من حياتي.

ولكن على غير المتوقع، اكتشفت أن معي على الطائرة نفسها، يجلس في مقعد يبعد عني بثلاثة صفوف، صديق طفولتي الذي طالما تشوقت لرؤيته

لكني لم أستطع! ناديت عليه بصوتٍ عالٍ، فأدار رأسه نحوي ببطء، وبصوت عال أيضًا أخبرته باسم طفولتي، فأومأ برأسه، ثم لوح لي بيده اليمنى.

فرحت كثيرًا برؤيته، فأردت أن أذهب إليه على الفور، لكني كنت مُقيدة بحزام الأمان، غير أنه لم يكن هناك مقعد شاغر بجانبه، كما كانت المضيفة في ممر الطائرة تقدم الطعام للركاب، فما كان أمامي إلا أن أنتظر بمكاني، وفي كل الأحوال سأتمكن من التحدث إليه بعد مغادرة الطائرة.

وأخيرًا هبطت الطائرة، وبدأ المسافرون فتح حزام الأمان، وبدأ كل واحد منهم يغادر مقعده، وفُتح باب الطائرة وامتلأ الممر الضيق بالركاب، وكان بيني وبينه ما يعادل سبعة أو ثمانية أجانب مسافرين، وبدأت في التحرك ببطء، فلم أكن على عجلة من أمري. ولكن عندما وصلت إلى باب الطائرة وجدت أنه كان قد غادر الطائرة بالفعل، فقد جاءت سيارة صغيرة وتوقفت بجانبه، واستقل السيارة دون أن يلتفت خلفه، ثم غادرت السيارة بسرعة.

ـ يا إلهي! غريب.. كيف لم أتمكن من مقابلته أبدًا على الأرض؟!

* * *

طباع لا تتغير

طرأت على رئيس قسمنا في العمل فكرة مباغتة، ودفعنا للتعبير والإفصاح عن آرائنا به، وجعلنا هذا الأمر نكن له التبجيل والاحترام. استخدم - على غير العادة - لهجة محببة ولطيفة في الحديث قائلًا: يا رفاق، أعرب الكثيرون في تقييم ديمقراطية الكوادر السابق عن قلة الوعي الديمقراطي لدي، وجهلي بالديمقراطية في العمل، آملين أن يتغير هذا الأمر سريعًا.. واليوم سأغير للجميع سوء الفهم هذا بتصرفات فعلية، من سيبدأ الحديث أولًا؟

لم ينبس أحد ببنت شفة، وبدأ صوت تدخين السجائر وارتشاف الشاي وتقليب صفحات الجرائد مزعجًا جدًا.. ثم قال وهو يقدم لنا السجائر ويدعونا للتدخين معه: من سيرفع الستار أولًا؟ فبمجرد أن يُرفع الستار سيبدأ الكل في الغناء. بدأ مساعد رئيس القسم الحذر والمنتبه عادة الكلام قائلًا:

ـ أري أن مقدره السيد سون على العمل جد عظيمة، ومؤشرات عمله مرتفعة جدًا، وقيادته لقسمنا أتت علينا بنتيجة مشرفة.. ولكن.. إذا افترضنا مواجهته مشكلة، فهو يتناقش مع الجميع، ويزيد الأمر صحة وكمالًا، أكمل الحديث السيد وانغ قائلًا:

ـ أنا ورئيس القسم السيد سون كنا زملاء لعده سنوات، إنه يمتلك العديد من المميزات، ودائمًا ما كان قدوة أتعلم منها، وإذا أردت أن أعبر عن رأيي الشخصي به فهو يمكنه أن يفقد أعصابه في بعض الأحيان ولا يمكن السيطرة على غضبه.. وأنا لا أحبذ تقليده في هذا الأمر. أكملت الحديث السيدة لي وقالت متلعثمة:

ـ إن رئيس القسم غريب جدًا.. على الرغم من أنه شخص مغرور، فإنه يتمتع بسمعة طيبة ومكانة عالية، ولا يجرؤ أحد على تجاهله أو التقليل من شأنه، بالإضافة إلى ذلك، فإن تلك القذائف التي يطلقها في غضبه الذي لا ينقطع، ممتعة جدًا، ومع أنها قد تجرح أحدهم، لكنه جرح خفيف لا يضر، ويتلاشى ألمه بلمسات رقيقة.

انتقل الحديث من شخص إلى آخر، وعندما حان دوري كانت ملامح السيد سون متغيرة قليلًا، ولكني مع ذلك قلت الحقيقة:

ـ إن السيد سون طموح للغاية، ويريد دومًا القيام بعمله على أكمل وجه، لكنه ديكتاتوري، لا يستمع إلى آراء الآخرين، ويؤثر ذلك في حماس الرفاق تأثيرًا بالغًا.. وعلى غير المتوقع فتح السيد سون درج مكتبه فجأة وأخرج منه كتابًا، ثم نهض وقال بصوت عال:

ـ انظروا ودققوا النظر، هذا كتاب "فصائل الدم والأبراج"، تعرفون جميعًا أن فصيلة دمي "AB"، وأنتمي إلى برج البقرة.

وفتح صفحة من الكتاب وقرأ المكتوب:

ـ "أنت أيها المولود في عام البقرة وفصيلة دمك AB، أنت مكابر معتد بنفسك، إذا أهانك شخص وقح فسريعًا ما تكشر عن أنيابك، كما أن لديك روح الانتقاد، ولكن ما يشوبك هو أنك تنتقد فقط الآخرين، وغير قادر على انتقاد نفسك.. أنت أيها المولود في عام البقرة وفصيلة دمك AB ربما لأن براعتك تفوق الآخرين فأنت غير قادر على تقبل ضعف قدرة الآخرين على العمل.. أنت أيها المولود في عام البقرة وفصيلة دمك AB".. يكفي ذلك. وفجأة أغلق الكتاب وقال:

ـ أنتم لا تريدون مني أن أصحح أخطائي، بل تريدون أن أغير فصيلة دمي والبرج الذي أنتمي إليه! كيف يمكنني ذلك؟! هيا تحدثوا! ثم خرج من الغرفة وهو يستشيط غضبًا!

* * *

الكتب الأكثر مبيعا

لا هجاء في بلاط صاحبة الجلالة

جلست أمام مكتب رئيس التحرير السيد وانغ، وبعد تبادل التحية شرعت في الإفصاح عن سبب مجيئي قائلًا:

أتيت اليوم متمنيًا الحصول على إذن شركتكم لنشر مجموعة القصص القصيرة خاصتي. رد السيد وانغ بعد أن أشعل سيجارًا:

ـ هذه ليست فكرة سيئة، فقليلًا ما ينشر أحدهم مجموعة قصص قصيرة محليًا في الوقت الحالي.

تناولت كتابًا كبيرًا وأنا مفعم بالأمل قائلًا:

ـ هذا هو مؤلفي، كان يحمل أكثر من مائة قصة قصيرة نشرتها في العشرات من الصحف المحلية في السنوات الأخيرة الماضية.

قال السيد وانغ:

ـ لقد قرأت بالفعل معظم أعمالك القصصية، فأنا أحب قراءة القصص القصيرة، خاصة تلك القصص التي تكتبها، فأعمالك تتسم بالحبكة المحكمة، واللغة الفكاهية، والطبيعة الدرامية الثرية، والقليل من الخيال، ونهاياتها لا يمكن توقعها في أغلب الأحيان، وبها العديد من المميزات، والعديد من...

كان المدير وانغ يُقدر أعمالي جدًا، لقد وجدت مبتغاي أخيرًا، وأوشكت أمنية إصدار الكتاب التي طال انتظارها أن تتحقق.

ثم أردف السيد وانغ بعد أن نفث دخان تبغه قائلًا:

ـ ولكن الكثير من القراء لا يعلمون الجيد من الرديء، وسيكون حكم القارئ محدودًا عند طباعة مؤلفك، وأخشى ألا تحقق الطبعة المبيعات المرجوة.

ـ بل ستُباع جميعها! هكذا رددت سريعًا على السيد وانغ، ثم أردفت:

ـ ستُباع لأن هناك عشرين كاتبًا فكاهيًا وضعوا تسلسلًا لمجموعتي، وكتب كل منهم جملة فكاهية، كما وافق عدد من النحاتين على إدراج بعض من أعمالهم الفنية بصفحات الكتاب.. تخيل يا سيد وانغ أن القصص قصيرة، والتسلسل قصير، والأعمال النحتية هي أيضًا صغيرة..

ـ تبدو فكرة جيدة، ولكن... قالها وصمت يفكر قليلًا، ثم تابع كلامه قائلًا: ولكن حتى نضمن بيع الطبعة بأكملها وعدم الخسارة، ستكون مسؤولًا عن بيع نصف المبيعات بعد الانتهاء من طباعتها، هل توافق على ذلك؟

ـ لكن يا سيد وانغ، ما زال لدي ملحوظة، إذا استمعت إليها فلن تلغي طلبك بتحملي مسؤولية نصف المبيعات فحسب، ولكنك ستزيد عدد طبعات هذا

الكتاب زيادة كبيرة! وقف السيد وانغ بحماس وقال: تكلم إذن. قلت:
ـ أما عن أغلفة الكتاب فلا تصنعها من الورق المُقوى، بل استخدم الجلد الصناعي، لتكون مثل تلك الحقائب السوداء الصغيرة التي توزع دائمًا في أثناء المؤتمرات، وستضع عنوان الكتاب على الغلاف الأمامي بالطبع، أما ظهر الغلاف الأمامي، وهو كما تسمونه "الغلاف الثاني"، فبخلاف السحَّاب والجيب وغيرهما، ستضع آلة حاسبة إلكترونية صغيرة، وأما ظهر الغلاف الأخير، وهو الغلاف الثالث، فسيكون هو الأروع، ألم يُقَل في الصحف مؤخرًا إن اليابان اخترعت نوعًا من الشاشات التليفزيونية الرقيقة التي من الممكن أن تُعلق على الجدران؟ لنستورد منها عددًا، ونضعها داخل الجيب بالغلاف الثالث للكتاب. رد قائلًا: رائع، لكن هكذا ستصبح تكلفة الكتاب مرتفعة للغاية..
قلت: سيكون غاليًا، ولكنه سيلاقي رواجًا، ففي نهاية الأمر كتابي هو مجرد كتاب، ولا يستطيع قطاع خاص تسديد نفقات القطاع العام، ولكن لن يكون هناك أي عائق في الوصول إلى استخدام أموال العامة لشراء الكتاب!
لقد مات الكاتب بعد توقيع العقد مع السيد وانغ!
وفي صباح أحد الأيام الصافية، وقف والد المؤلف أمام قبر ابنه ليخبره أنه بعد أن وافته المنية، حظي كتابه بشعبية واسعة، وطبع مرة أخرى، ووصل عدده بالفعل إلى مليون نسخة.. ولكن لا يُهم إن كان من يشتريه أفراد أم مؤسسات، فمن يشتري الكتاب لا يريد إلا غلافه، ولكن ماذا عن تلك القصص القصيرة؟ لقد كانت المطابع خالية من الحبر في الأساس!

شجار أربعة أشخاص ست مرات خلال خمس عشرة دقيقة

على الرغم من قصر هذه القصة التي لا تُثير الضحك، فإن سردها مزعج، واسمحوا لي أن أُشير إلى أبطال القصة بأسماء يسهل تذكرها، وهي: الرجل الأحمر، المرأة الحمراء، الرجل الأخضر، والمرأة الخضراء.. كان الرجل الأحمر والمرأة الحمراء زوجين، وكذلك كان الرجل الأخضر والمرأة الخضراء. كانوا جيرانًا، لكن لا يوجد بينهم أي نوع من أنواع التواصل.

في أحد الأيام الممطرة، كانت المرأة الحمراء عائدة إلى منزلها من الجهة الشرقية، وفي الوقت نفسه كان الرجل الأخضر عائدًا إلى المنزل من الجهة المقابلة، وفجأة انزلقت قدم المرأة الحمراء وسقطت في مياه الأمطار، وحينها اندفع الرجل الأخضر لا شعوريًّا تجاه الجسم الذي لم يكن يتبين هويته بسبب هطول الأمطار الغزيرة، محاولا إسناد هذا الشخص ومساعدته للنهوض.

لكن الكثير من المصادفات غير السارة تحدث بهذا العالم، ففي اللحظة التي حاول الرجل الأخضر مساعدة المرأة الحمراء، ظهر كل من الرجل الأحمر والمرأة الخضراء عند باب منزله، وشاهدا المرأة الحمراء والرجل الأخضر في وضع أقرب لوضع عاشقين، فاقترب الرجل الأحمر من زوجته وسحبها من ملابسها ثم صفعها صفعة مدوية، وأخذ يسب ويلعن، وسألها: كيف تفعلين ذلك؟ لماذا أنتِ في أحضان رجل آخر؟

وشعرت المرأة الخضراء بالغيرة الشديدة على زوجها، فاندفعت فجأة تجاهه، ولكمته في صدره، وأخذت تلعنه متهمة إياه باستغلال فتاة أخرى والضحك عليها. وبعد أن استفاقت المرأة الحمراء من صفعة زوجها وجهت له الكلام وهي تشعر بالظلم قائلة: لم أطلب منه مساعدتي، وما فعله كان بسبب...

لكن الرجل الأحمر لم يسمع ما قالت زوجته، وكان جُل ما يسترعي انتباهه هو الرجل الأخضر، فهرع تجاه الرجل الأخضر كالمجنون مُوجهًا إليه لكمة تليها ركلة، وكان يضربه تارة ويسبُّه تارة أخرى، وصرخ في وجهه قائلًا: كيف تجرؤ على التعرض لزوجتي، أنت، أنت...

لم يقوَ الرجل الأخضر على إعطاء أي تفسيرات، كان يحاول جاهدًا تفادي الضربات المُوجهة إليه فحسب، سواء المُوجهة من الرجل الأحمر أو من الأمطار التي لم تتوقف عن الهطول لحظة، حتى أُصيب برضوض، وتحول وجهه إلى اللون الأزرق بسبب كثرة اللكمات والكدمات.

عندما رأت المرأة الخضراء زوجها واللكمات تُكال له بهذا المظهر المُهين البائس، تناولت حجرا مُلقى على جانب الطريق، وتوجهت بغضب تجاه المرأة الحمراء لكونها السبب الرئيس فيما يحدث، وألقتها بالحجر الذي استقر على جبينها، فامتلأ وجه المرأة الحمراء بالدماء، فاستشاطت غضبًا، وأمسكت بشعر المرأة الخضراء كنوع من أنواع الانتقام.

في هذه الأثناء، لم يزل الرجل الأحمر يضغط على الرجل الأخضر بجسده، ويُكيل اللكمات إليه، لكنه توقف فجأة والتفت إلى الخلف فرأى ما حدث مع زوجته، وكيف أن جبينها يقطر دمًا، فأفلت الرجل الأخضر من يديه، وذهب لينتقم لزوجته، ووجه الرجل الأحمر ركلة على حين غُرة إلى المرأة الخضراء، تبعتها ثلاث لكمات أخرى.. تلقى الرجل الأخضر الضرب حتى الموت، وأخذ يتطلع إلى المرأة الحمراء ويقول لها: ليتني تركتك تسقطين في الوحل، لكنك.. حسنًا! كان يحدثها وأسنانه تصطك بعضها ببعض، فوصلت كلماته إلى أذنيها كأنها الصفعة.

شاهد ذلك المشهد المؤسف رجل متمرس بالفنون الأدبية والفنون العسكرية معًا يقف على جانب الطريق، أخذ يتحسر ذلك الرجل وتنهد طويلًا ثم قال: إن شجار أربعة أشخاص لمدة خمس عشرة دقيقة يدل على أن الشعب الصيني شعب عصبي بطبعه!

كان هذا الرجل يُعد خطابًا لإرساله إلى موسوعة غينيس للأرقام القياسية، مطالبًا بإدراج هذه الواقعة "دورة روبن" ضمن الأرقام القياسية العالمية.

***

كتاب حكايات العالم الجديدة

(5 قصص)

-1<u>التأثير الخفي</u>

إن أختي الكبيرة منكبةٍ على دراسة كتابات الرئيس ماو تسي دونغ، ولا تكتفي بأن تكون "عنصرًا نشطًا" في هذه الدراسة فحسب، بل أصبحت مسؤولة عن فريق بهيئة على مستوى المقاطعة تطبق ما تعلمته من كتاباته في حياتها، وتنشغل للغاية طوال أيامها.. ومع إنها بلغت الثلاثين من عمرها فإنها لم تتزوج حتى الآن، وهو ما يؤرق والديَّ، وبمجرد أن أرسلت لها خطابًا أحثها فيه على الزواج، جاء ساعي البريد بخطاب، وما إن فتحتُه حتى عرفتُ أنه من أختي، وتقول فيه:

أخي الصغير.. تحية طيبة وبعد.

بشأن الحدث الأهم في حياتي، سأجيبك الآن: أنا أعلم أن الإنسان لا بد من أن يتزوج، ولكن مفهوم الزواج يختلف من إنسان لآخر.. هناك أديب صيني قديم يُدعى تشين شاو يوه، قال ذات مرة "إذا كان الحب بين اثنين سيستمر طوال العمر فما الداعي من بقائهما معًا ليلًا ونهارًا؟"، ولذا قابلتُ الرفيق دا ليو مرة واحدة فقط، ثم أرسل لي عدة خطابات، ولكن بسبب انشغالي رددت على خطاب واحد فقط، ولا أعرف إن كان وصله أم لا.. أنا متأثرة حقًا بشغفه وحبه، أنتم الآن تمدحونه، ويبدو عمق تأثركم به.

أخي، سأذكر لك جزءًا من هذا الخطاب: "ينبغي لنا أن نؤمن بالاتحاد، وأن يثق كل منا بالآخر، وهذان مبدآن أساسيان، إن شككت فيهما فأي حب يكون هذا؟"

كما قلت له: "إن المثل العليا والعمل هما حياتنا، ويجب أن ننتبه انتباهًا كاملًا كي لا نهمل هذا الموضوع المحوري..

الحب والزواج والأسرة وغيرها من الموضوعات العديدة تتلخص في جملة واحدة: الثورة المشتركة".

* * *

2-التوارث

لدينا عادة مأثورة هي "اختبار الاختيار"، يجري هذا الاختبار في أول عيد ميلاد، بأن توضع عدة أشياء على المائدة ويُترك للطفل حرية الاختيار.. ويُقال إن ما يختاره الطفل حينئذٍ هو شيء سيحبه ويمتلكه عندما يكبر.. هذا التقليد الخرافي هو ضرب من العِرافة والسحر يجري في أماكن عدة، ولكن العجيب أنه لم يُصنف من الأشياء الأربعة القديمة[7*****].

تحكي جدتي عن والدها: في أول عيد ميلاد له، وضع جدي على المائدة أمامه عملة نحاسية وفولًا سودانيًا وأحمر شفاه وختمًا، وكانت النتيجة أن والدي لم يرد المال ولا الطعام ولا النساء، بل مد يده لأبعد شيء على المائدة وهو الختم، وكان جدي سعيدًا جدًّا، وقال إنه سيتولى مسؤولية عظيمة عندما يكبر، ولكن ما لم يكن في الحسبان أنه إلى الآن لم يتولَّ أي مسؤولية سوى كونه "ربَّ أسرة"!

وأخبرتني أيضًا عن اختبارها الذي تم وهي بنت ثلاث سنوات في وقت عصيب: وضع والدي أمامي خمسة كروت دقيق[8*****]، ووضعت جدتي، أشد مَن عانت قلة الطعام والجوع، كأسَ خمر صغير مملوء بالأرز الدبق (أرز لامع)، وقدمت أمي طبق معكرونة باللحم ولفَّته بمنديل، وكأن قصدها من ذلك ألا آكل الأرز المدخن، أما عمي الأغنى والأكثر كرمًا فقد اشترى عشر سكاكر غالية كلفته 4 يوانات، فمددت -أنا المفطومة والبالغة حينئذٍ شهرين- يديَّ الصغيرتين لآخذ كل هذه المأكولات التي رأيتها أمامي.

اليوم هو أول عيد ميلاد لابن أخي الثاني، وقد اشتريت له لعبة، وهي مسدس صغير؛ آملًا أن يرتدي الزي العسكري مثلي حينما يكبر، وأن يمسك السلاح ليدافع عن الوطن، ويحمي الطريق الثوري الذي رسمه الرئيس ماو للطبقة البروليتارية.. أما أختي الكبيرة فقد اشترت كتاب "مقتطفات من الرئيس ماو"، وأحضرت صورة مرسومة للرئيس ماو ووضعتها على كتابه، وكانت تريد بذلك أن يصبح مثلها متحمسًا لأقوال الرئيس ماو، يستخدمها في تعليمه وفي حياته.. أما أخي وزوجته اللذان استعدا مبكرًا لعيد الميلاد فقد وضع أخي شارات على ذراع الولد، وقد طُبعت من أجل "مقر قيادة المقاومة الثورية" ليشكل "إنسانًا صالحًا"، أما زوجة أخي فقد وضعت شارات طُبعت خصيصى من أجل "هيئة أركان المقاومة الثورية" ليشكل "إنسانا عنيدًا"، وكل منهما يأمل أن يشكل هذا الابن الفصيل الذي أراده له عندما يكبر.. وعندما قام الولد ليستند على المائدة وضع أخي الشارات على يساره، حينئذٍ قامت الزوجة بسرعة ووضعت شاراتها على يسار شارات زوجها الذي أزاح شارات زوجته بحدة وغضب.. وعندئذٍ نشبت مجادلة عنيفة بينهما من أجل مَن ستشغل شاراته المكان الأقرب إلى اليسار بالقوة!

* * *

3-السارق الهارب

كان محاسب وانغ قلقًا ليلة رأس السنة عام 1967م؛ وذلك لأن المعارضة أبلغته بطريقة فظة ضرورة المشاركة في مؤتمر "اقتلاع الرأسمالية من جذورها"، وذلك في أول يوم في السنة، وأخبروه أيضًا أنه "محاسب من الكوادر".

كانت هذه الليلة صعبة عليه؛ إذ عرف أن أحوال الغد ستكون سيئة للغاية.

وفي صباح اليوم التالي، أعد محاسب وانغ كوب شاي ثقيلًا ليرفع روحه المعنوية، ولكن هذا الشاي انسكب على المائدة بسبب حدوث هزة أرضية، أما زوجته فقالت في أثناء تنظيفها المائدة: "لحسن الحظ لم ينكسر الكوب، فلو انكسر ونحن في بداية العام لكان هذا نذير شؤم بالإفلاس"، وعندما كسر محاسب وانغ الكوب مرة أخرى، ارتعشت يداه دون أن يدري، وقد سقط الكوب على الأرض الإسمنتية فتحطم إلى عدة أجزاء، وعندما رأت زوجته ذلك كنست الزجاج في الحال، وطمأنت زوجها بقولها: إذا كسرت شيئًا في رأس السنة فهذا نذير فأل؛ إذ يشير إلى العمر المديد![9******)]، وشرب محاسب وانغ عدة أكواب شاي؛ ليذهب بعد ذلك فرحًا إلى المؤتمر، وعندما وصل إلى قاعة المؤتمر جلس في أقرب كرسي إلى الحافة في الصف الأخير، وبدأ القائد لو بالكلام:

ـ "... إن الرأسمالية لم تُقتلع بالتمام، فنحن لدينا رأسماليون في القاعة هنا! وفي يوم ما سنطرد كل مَن في زوايا الجدران حتى لو اختبأ بعيدًا وجلس في الصف الأخير".

عندما سمع محاسب وانغ هذا الكلام لم يتمالك نفسه من الرعب الواقع عليه.

واستُكمل المؤتمر بعد الظهر، وذهب محاسب وانغ ليسمع الندوات وهو مرعوب متردد، وجلس في الصف الأول تلك المرة.. واستطرد القائد لو:

ـ "... لا تنظر إلى مَن يتظاهرون بأنهم لم يقتفروا أي جرائم، فالحقيقة أن شبح الخوف قابع في داخلهم ويشعرون بالخزي الشديد، ونحن - أحزاب المعارضة - نقول لهذا الشخص: إنك لا يمكنك أن تهرب من مصيرك المشؤوم حتى وإن كنت جالسًا في أول صف.. الذبابة لا تطير قرب رموش العين ولا تُرى؟ هيهه".

وحينذاك طُرح محاسب وانغ أرضًا من شدة الفزع.

وفي المساء قال محاسب وانغ لزوجته:

ـ إنك قد فكرتِ في مصلحتي، وتمنيتِ الأفضل لي عندما لم ينكسر الكوب وعندما انكسر أيضًا، أما القائد لو فمختلف عنك، فعندما جلست في الصف الأخير وشعرت بالخجل، جلست بعدها في الصف الأول وتظاهرت بالهدوء،

لكنه كان يفكر في أذيتي.. إن رغبة القائد لو في أذيتي لا تضاهي تثميني مشاعرك تجاهي، لذا فهو إن عرفني واكتشف حالتي فلن نتمكن أن نحيا في هدوء وسلام.

وما إن انتهى من كلامه حتى أمسك كلاهما برأس الآخر، وانخرطا في بكاء.

4-المطاردة

كل وحدة من وحدات المعارضة تلوم نفسها دائمًا: "لنعارض في وقت لاحق"؛ فنحن بانتظار تأسيس "مركز قيادة الثورة"، وعقد "مجموعة الاجتماعات" رفيعة المستوى بطول البلاد، وإلا فمن الممكن أن نذهب في رحلة مجانية إلى أبعد مكان.. إنه ليس وقت "الاجتماعات المجانية"، ولكنه وقت "الفسح العامة".. لقد وجدوا رجلًا "شيطانًا وعفريتًا"[10*****] يُدعى وانغ، فعنَّفوه قائلين: "هل تعلم أنك رجل مشتبَه به"؟ فقال: "لا أعلم"؛ فأبرحوا هذا الرجل ضربًا حتى تورَّم أنفه ووجهه وقال: "أعلم أعلم.. أعلم"، فأعطوا لاو وانغ حينها سيجارة!

ـ "هل أخفيت ملفات لجنة الإحصاء[11*****] بعد هروب الحزب الوطني إلى تايوان؟".

أومأ وانغ برأسه؛ إذ أحس أن العصا ستنزل عليه.. قال المحقق بينما كان يلتقط السكين: "هل المكان الذي أخفيتها فيه بقرب جزيرة قولانغ في شيا من؟".

وظل المحقق يستجوب وانغ وهو يجيب حتى جعله يوقِّع حروف اسمه، ثم أودعه مرعى بقر، حيث عاش حياة صعبة لم يذق فيها لحمًا مطلقًا.

وبعد أربعين عامًا جاء محققون من مدينة شيا من ليستجوبوا لاو وانغ مرة أخرى: "لقد اجتزنا البر والبحر حتى وصلنا إلى الساحل البحري لمقاطعة فوجيان، وأجرينا تحقيقًا شاملًا، وقد فهمنا مبدئيًّا ظروف إخفاء الوثائق السرية، وحسبما فهمنا فإنك قد نقلت هذه الوثائق إلى مدينة تشينغ داو، أليس كذلك؟".

اكتفى لاو وانغ هذه المرة بالإشارة، وكان يومئ برأسه وهو يوقع الحروف الأولى من اسمه.. وصاحَب التنقل المستمر للوثائق السرية للجنة الإحصاء المركزية سفر متوالٍ لبعثة المحققين التابعة للمعارضة، وعبروا الجبال والأنهار من أجل الوصول إليها!

* * *

5-الحفر يزيد العمق

يمر نهر صغير في القرية الموجود بها فريق يونغ خونغ التابع لفريق الحرس الأحمر ضمن كومونا دونغ فانغ خونغ الشعبية، ومن الطبيعي أن يجري تيار النهر من الشرق إلى الغرب؛ وذلك لأن الشرق مرتفع، أما الغرب فمنخفض. وفي أحد الأيام كان قائد الفريق الأكبر يجتاز هذا النهر الصغير، فخطرت بباله فكرة، فقال لمن كان واقفًا بجانبه: كيف يصب هذا النهر في الغرب؟ يجب أن يصب في الشرق، في الشرق، في الشرق!

وما إن أصدر الأمر حتى تحرك عمال الإنتاج بسرعة، بنوا السدود، وضخوا المياه، وحفروا بجدية حتى أصبح الجانب الشرقي للنهر أقل علوًّا من الغربي، وأخيرًا بدأ يسري النهر إلى الشرق.. وعندما سمع رئيس الشركة هذا الأمر فكّر مليًّا، فشعر بأن ما حدث كان خطأ، فأصدر تعليماته مكتوبة في التقرير: "يسري النهر الآن إلى الشرق، أي أن الجانب الغربي أعلى من الشرقي، ما يعني التخلي عن المبدأ العظيم، توجيه الضغط إلى الغرب وتخفيفه عن الشرق[12*****]؛ لذا أصلِحوا هذا سريعًا"!

بنى العمال السدود مرة أخرى، وضخوا المياه، وعاد الجانب الشرقي ليعلو عن الغربي مرة أخرى!

ذات مرة، بينما كان رئيس اللجنة الثورية في المقاطعة في مؤتمر احتقر الرأسمالية قائلًا: "إن الأحزاب الثورية البروليتارية بكل تأكيد ستمحو الأحزاب الرأسمالية المتولية السلطة حاليًا، مثلما حدث للنهر الصغير المعروف لكل مَن في المقاطعة من قبل فريق يونغ هونغ التابع لفريق الحرس الأحمر ضمن كومونا دونغ فأنغ خونغ الشعبية، فكلما حفرنا أكثر زاد العمق، كلما حفرنا أكثر زاد العمق[13*****]".

* * *

أخبار يوم كذبة إبريل

(5 قصص)

1ـ يانصيب دخول المرحاض

"أخبار الجريدة ـ يوم كذبة أبريل"..
علم أحد الصحفيين مؤخرًا من بعض العمال المتقاعدين أن محصل رسوم دورة المياه التي تقع بين الزقاقين السادس والسابع من مدينتنا قد نظم "يانصيب التغوط"، وأن العم "هو" مدير دورة المياه قد وضع معيارًا لتحصيل الرسوم، ويبدأ من جياو[14*****)]، ويزيد حتى جياو ونصف جياو، وكل من يدخلون دورة المياه للتغوط يحصلون جميعًا على "تذكرة اليانصيب"، وقد أخرج أحد كبار السن بحرص شديد من جيبه "تذاكر اليانصيب" التي حصل عليها للتو في الصباح الباكر، فوجد الصحفي أن سلسلة التذاكر هذه مصنوعة من ورق لفافات السجائر، وكتبت الأرقام بريشة الكتابة، ووضع عليها الختم الخاص بالعم "هو"، فسأل الصحفي: "وما الجوائز؟" فأتاه الرد بأن الجائزة الخاصة المتميزة ستكون لشخص واحد، وهي عبارة عن 888 ورقة مرحاض، أما الجائزة الأولى ستكون 88 ورقة مرحاض، وهناك أخبار تقول إن اليانصيب العلني الأول سيقام قريبًا بعد ثلاثة أيام، فمن لديه الرغبة من القراء فلا مانع من أن يذهب لمشاهدة الجو المفعم بالحيوية.

* * *

2ـ دفن قطع اللعب

"أخبار الجريدة ـ يوم كذبة أبريل"..
جاء أحد الصحفيين خبر من قسم الصحة يفيد أنه تم تتبع الإصابة بمرض السكتة الدماغية والسكتة القلبية وأيضًا الموت المفاجئ بأثر رجعي خلال السنوات القليلة الماضية في مدينتنا، ووفقًا للدراسات الاستقصائية فإن أكثر

من 80% من حالات الوفاة كانوا من مدمني لعب الماجونغ، وكذلك من كانوا يلعبونها من حين إلى آخر طوال الليل في المرة، حتى إنهم قد يواصلون اللعب غير عابئين إن كانوا ليلًا أو نهارًا.

وبسبب تزايد أعداد موتى "ملاعب السفانغ ج" يومًا بعد يوم، وفرت إدارة قسم الجنازات والدفن مساحة مائتي مو[15*****] تبعد عن محرقة الجثث تسعة كيلومترات مربعة، وتستخدم كمنطقة مخصصة لدفن جثث هؤلاء الأموات، وقد ذهب الصحفي قبل أيام إلى تلك المقابر، فسمع أنهم يفعلون للجميع بلا استثناء عملية "دفن قطع اللعب"؛ فعليهم أن يأخذوا رماد الميت ويضعوه في وسط صندوق الماجونغ ليستطيعوا بعدها إدخاله القبر وتغطية كفنه، ويجب أن يكون شاهد القبر على شكل إحدى قطع الماجونغ.. وأخبرنا أحد كانسي المقابر[16*****] أن والده قد جنَّ بسبب وضعه قطعة غيرت "بيان سان وان" لتصبح "كلها من اللون نفسه"، ففوجئنا بتوقف نفسه حتى مات من شدة الضحك، فنقش على شاهد قبره رمزي "سان وان".. ورأى الصحفي أيضًا "شاهدًا" وُضع على نواحيه الأربعة برواز، ولم يكتب عليه أي رمز، فمن البديهي أنها "قطعة بيضاء"!

هناك أسطورة تقول إنه ما إن ينتصف الليل على هذه المقابر، قد تصدر منها أصوات للعب الماجونغ!

***

3ـ لحاء أشجار أمريكية

"أخبار الجريدة ـ يوم كذبة أبريل"..

جاء أمس وكيل إحدى الشركات إلى قسم الإعلان بالجريدة يطلب نشر إعلان عن لحاء أشجار أمريكية للبيع، ويقول الإعلان موضحًا: "إذا استثمرت فيها القليل يمكنك أن تمتلك للأبد لحاء شجرة أيٍّ من الخمسين ولاية في الولايات المتحدة الأمريكية، هذا اللحاء لا يمكنه فقط أن يورث وأن يوهب أو يُهدَى، بل أيضًا يمكن نقل ملكيته بالتبادل.. لتفكر قليلًا، ما المغزى من امتلاك أحد لحاء الشجر الأمريكي؟ لا تفوت الفرصة الذهبية".

عندها سأله موظف قسم الإعلان: ما المغزى؟ كيف لك ألا تكتبه؟!

فأجاب المندوب: هذا اللحاء مأخوذ من جذوع الأشجار الحية، وهذه الأشجار كذلك قد نمت على الأراضي الأمريكية؛ وهكذا فإن امتلاك لحاء الشجر الأمريكي يعد امتلاكًا لقطعة أرض أمريكية، وامتلاك قطعة أرض أمريكية يعد امتلاكًا لغابة أمريكية، وامتلاك غابة... فقاطعه موظف قسم الإعلان قائلًا: كيف تزيد الحجم كلما زدت كلامك؟

ـ حسنًا، إذا استكملنا القول في اتجاه الأحداث الضيق نفسه، فإن امتلاك غابة أمريكية يعد امتلاك ورق أخضر أمريكي، وامتلاك ورق أخضر أمريكي يعد بمنزلة امتلاك إقامة أبدية في أمريكا بتلك الـ... الخضراء، الخضراء، الخضراء، هيهي إطناب ليس من الجيد قوله مباشرة! وأفادت التقارير أن قسم الإعلان بالصحيفة قد أرسل موظفًا إلى القنصلية الأمريكية العامة بشنغهاي، وسيرَون ما سيؤول إليه الأمر، ثم يقررون بعدها هل سينشرون هذا الإعلان أم لا، فرجاء أن يتابع القراء الأمر عن كثب.

* * *

4ـ مدرسة يحيط بها المحلات التجارية

"أخبار الجريدة ـ يوم كذبة أبريل"..

ذهب أحد الصحفيين الشهر الماضي إلى مكان آخر متطلعًا لرؤية أحد أساتذته وقت المرحلة المتوسطة، ولم يتوقع السير بعد أن أخذ جولة - دائرية - حول مدرسته القديمة؛ فهو في الواقع لا يعرف أين يجد مدخل المدرسة، فقد كانت الناحية الشمالية من المدرسة القديمة متصلة بمصنع لمنتجات البقول، وكان هناك سور مغلق مواجهًا للشارع في النواحي الثلاث الشرقية والجنوبية والغربية منذ البداية، تطوقه المتاجر كقشور السمك، لا يمكن حتى لقطرات المياه أن تتخللها، وتسد الباب الرئيسي كذلك ثلاثة دكاكين لبيع السلع!

وقف الصحفي خارج فناء المدرسة مستمعًا إلى أصوات ذاكرته الصادرة من حديقة المدرسة، ويخمن من أين يخرج ويدخل أساتذة المدرسة وطلابها حاليًا، هل يستقلون المروحيّة؟! أم أنهم حفروا طريقًا تحت الأرض؟! أم أنه...

وبينما يفكر مر بجانبه أحد الطلاب بشارة المدرسة، فسأله الصحفي عن الطريق، فقال ذلك الطالب إن المدرسة هدمت الجدران المحيطة وأعادت بناءها لتصبح واجهات للمحلات لتؤجرها للدكاكين؛ وذلك لتزيد من أرباح المدرسة.

فسأله الصحفي: إذن كيف تدخلون إلى المدرسة وتخرجون منها؟

فأجابه: لقد فتحت المدرسة جزءًا من الحائط بينها وبين المصنع، وأصبح علينا حاليًا المرور على المصنع لندخل إلى حديقة المدرسة.

ـ وكيف وافق المصنع على ما فعلته المدرسة؟!

ـ إن ايرادات المصنع ليست جيدة، فعلينا شراء تذكرة عند دخولنا إلى هذا المصنع، تمامًا كما ندخل إلى حديقة المدرسة، فندفع 5 فن[17(*****)] في كل مرة، وهم يعتمدون على هذا الدخل لدفع العلاوات.

* * *

5ـ النعال الرافعة

"أخبار الجريدة ـ يوم كذبة أبريل"..

دعي أحد الصحفيين منذ أيام للمشاركة في اجتماع فحص منتجات مصنع "ملامسة السماء" العام الذي افتتح في مدينتنا لصناعة النعال الرافعة، ومما جذب انتباه الحاضرين هو أن آنسات التشريفات كان طولهن يقارب أكثر من 1.80 متر، وبعد أن جلسن بجوار الزائرين واحدة تلو الأخرى بحماس واتزان، بدأن فورًا بنزع أحذيتهن وإخراج النعال منها ثم الإمضاء عليها بأسمائهن وإهدائها كتذكار للضيوف، وهذا الأداء الصامت عبر عن أن ارتفاع أطوالهن سببه بلا شك وجود زوج من النعال الرافعة داخل أحذيتهن.

ثم عُرض في أثناء الاجتماع مقطع مصور تظهر فيه منضدة وضع أسفل أرجلها الأربعة نعال رافعة مضغوطة، فرأينا المنضدة تعلو كازدهار براعم الخيزران بعد مطرة ربيعية.. فاقتربت إحدى الشابات من أذن الصحفي بفمها كرزي اللون، طالبة منه وضع النعال الرافعة التي أهدتها له مستوية على الأرض قبل النوم مساء، ثم يضع فوق النعال طبقات كثيفة من المال فئة المائة يوان صيني، وفي اليوم التالي عند الاستيقاظ صباحًا سيكون بالتأكيد...

من يريد أن يطول ويغتني من القراء فلا ضير من شراء زوج من النعال الرافعة للتجربة، ولكن انتبهوا، عليكم شراء علامة "ملامسة السماء" التجارية، واحذروا التقليد!

* * *

الأساطير العالمية

(6 أجزاء)

1ـ إصلاح السماء

في قاعة الاجتماعات تحت الأرض، يعقد الآن اجتماع في غاية الأهمية للبحث والتشاور حول: هل يجب العمل حاليًا على إصلاح السماء أم إصلاح سور الصين العظيم؟

وقف السيد وانغ نائب رئيس المؤتمر ومركز الأبحاث استعدادًا لإلقاء كلمته، ولأن نائب الرئيس وانغ طويل القامة، لا تقل قامته عن مترين، بدا المذياع الموضوع على الطاولة قصيرًا للغاية مقارنة به، لذلك كان من الأفضل أن ينحني ويقترب من الميكروفون ليتمكن من إلقاء كلمته، ثم بدأ في إلقاء الكلمة: لقد رأى الجميع أن السماء تضررت ضررًا بليغًا مرة أخرى مثل شبكة الصيد، لذلك ربما يسأل أحدكم: ألم تقم بالفعل "نو وا"[18*****] بجمع السماوات ومطابقتهما معًا من قبل؟ فكيف إذن تضررت السماوات مرة أخرى؟

أولًا، يجب عليكم التفكير مليًّا في عدد السنوات التي مضت منذ إصلاح "نو وا" للسماء؟ لم يمضِ عام أو عامان، أو ثمانية أعوام، أو عشرة، أو ألف عام، أو حتى عشرة آلاف عام، بل مضى بالفعل مئات الآلاف من الأعوام، وبعد مرور كل هذه الأعوام هل من المعقول أن تنشق وتختل السماوات مرة أخرى؟ فهذا الأمر من شأنه إيضاح الدقة العالية التي قامت بها نو وا لإصلاح السماوات، وإلا لكانت السماوات قد تضررت في وقت مبكر عن هذا.. ثانيًا، فلتقوموا بإحصاء أعداد الأقمار الصناعية التي يتم إطلاقها في كل عام من الآن، وكم من مركبة فضاء انطلقت لتفقد أحوال الكون والمجرة؟ وكم من سفينة فضائية ذهبت وعادت من أعالي السماء؟ إنه حقًا لأمر عجيب! كيف إذن لن تتضرر السماء بوجود كل هذه الأشياء؟

إذا تضررت السماء فلن يستطيع البشر الشعور بالتوازن والاعتدال، فالمياه التي تحتوي عليها المجرة دائمًا ما تتطاير وتتناثر لتصعد للكرة الأرضية مسببة العديد من الفيضانات، كما أن العديد من النيازك تسقط في كل الأرجاء وعلى الصحراء والتلال، حتى إنها قد تسقط على المدن والقرى، بالإضافة إلى التداعيات والتمايلات التي تسببها الزلازل للكرة الأرضية، ففي بعض الأحيان عندما ترى الكائنات الفضائية أبواب السماء مفتوحة على مصارعها يستغلون هذه الفرصة للدخول إليها، ثم يقبضون على جميع البشر على وجه الأرض، ويلقون بهم في الطبق الطائر الخاص بهم ليسخروا منهم ويلهوا بهم، ورغم أن

وقت المزاح واللهو قليل، فإنهم يملكون من القدرة ما يخولهم بتحويل شاب في ريعان شبابه إلى شيخ مسن، وتحويل فتاة يافعة في مقتبل عمرها إلى سيدة عجوز مسنة.
ـ يا رفاق، العديد من الحقائق والبراهين أثبتت أن هذه الأقمار الصناعية ومركبات الفضاء والسفن الفضائية وجميع العلوم والتكنولوجيا الحديثة المتطورة... إلخ إلخ، هي أسباب معاناتنا، هذه الأشياء التي خدعت الإنسان تحت ستار جلب الرفاهية والرخاء للجنس البشري، هي التي جلبت الدمار والخراب للسماء، تلك التي دمرت لنا الحدود المثالية الآمنة المحجوبة عن الأنظار وأتت من وراء الأفق لتجلب البلاء والكوارث.
شعر السيد وانغ بألم في ظهره، لذلك أمسك الميكروفون وقال بامتنان شديد: يا رفاق، لأجل الناس غير الراضين عن مجتمعنا هذا واستسلموا للأوهام ولهذه الأقمار الصناعية والسفن والمركبات الفضائية، علينا جميعًا مسايرة آمالهم وأمنيتهم وجعلهم يتمسكون ويؤمنون بالحقائق، كما يجب علينا القيام بإصلاح عاجل للسماء مرة أخرى.
قاطعه أحدهم قائلًا: نائب رئيس الاجتماع وانغ، أود سؤالك عن إصلاح السماء، فإصلاح سروال داخلي أو إصلاح إناء وغيرها من الأعمال اليدوية بالطبع يختلف عن إصلاح السماء، فماعدا نو وا لا أحد يمكنه إصلاح السماء، إذن ما العمل؟
نظر إلى قاعة الاجتماع ورفع صوته قائلًا: أقترح أن نطلب من نو وا المجيء للعمل مديرة لمقر القيادة التابع لأعمال إصلاح السماء. طرح أحدهم سؤالًا: وهل تملك نو وا القدرة الكافية للقيام بهذا العمل؟
فضحك قائلًا: مَن طرح هذا السؤال لا يعرف نو وا جيدًا، تعال لنستعرض معًا الإنجازات والإسهامات العظيمة التي قامت بها نو وا. ثم توقف قليلًا ليتغرغر وأكمل قائلًا:
ـ في الماضي السحيق تحطمت أعمدة السماء الأربعة وانشقت الأرض فاختل توازن الأرض والسماء وانقسمت المقاطعات التسع، وانتهت الحياة البشرية واشتعلت النيران وألسنة اللهب، وارتفع منسوب المياه، وأصبح البشر طعامًا للحيوانات المفترسة، وأصبح الرجال المسنين والأطفال فريسة للطيور الجارحة، لهذا أحضرت نو وا خمسة أحجار ملونة لإصلاح السماء، ثم قطعت أرجل سلحفاة ضخمة لتشيد بها الأعمدة الأربعة، وقتلت التنين الأسود لتوحد المقاطعات التسع من جديد، وجمعت رماد الأعشاب والنباتات لتوقف بها الفيضانات، وبالفعل أصلحت نو وا السماء، وعاد الاستقرار للسماء، واصطفت الأعمدة الأربع، وتوقفت الفيضانات، ثم توحدت المقاطعات التسع، وماتت الطيور والحيوانات المفترسة، وعادت الحياه البشرية.
وعندما انتهى لتوه من إلقاء كلمته، اضطربت الحركة وعمت الفوضى في القاعة، ثم صاح أحدهم عاليًا وطرح سؤالًا آخر:

ـ السيد وانغ فو، لقد أصاب السماء ضرر بالغ، ولأجل إصلاحها نحتاج إلى خمسة أحجار ملونة، فمن أين لنا بكل هذا الوقت؟
نظر حوله قليلًا وأمسك بالميكروفون وضرب عليه، وأشار للجميع بالتزام الهدوء، ثم أكمل قائلًا:
ـ في الواقع أن هذا السؤال مهم للغاية، وهو ما وددت التطرق إليه حقًا. ثم أمسك بكوب الشاي وأخذ رشفة منه وأكمل حديثه قائلًا:
ـ قمت مؤخرًا بالتفكير مليًّا في هذه المشكلة، وتوصلت أخيرًا إلى الطريقة المثلى لإصلاح السماء.
خرج نائب رئيس المؤتمر تشانغ عن صمته، وقاطع حديث النائب وانغ قائلًا:
ـ سيد لاو وانغ، إن مؤتمر اليوم لم يتحدث فيه أحد سواك، فهلا تركت لي بعض الوقت كي أتحدث أيضًا؟
ثم نهض بتمهل وهدوء وتحدث، فلم يبق للنائب وانغ أي خيار آخر سوى الجلوس وإعطاء الميكروفون لنائب الرئيس تشانغ للتحدث، ولأن نائب الرئيس تشانغ متوسط القامة قام بخفض مستوى الميكروفون حتى يستطيع التحدث، ثم رفع صوته وتحدث ببطء وهدوء قائلًا:
ـ إن اجتماعنا اليوم لا يعد بمناظرة أو مناقشة، لذلك لا أرغب في إبداء رأيي المخالف إزاء مشكلة إصلاح السماء، وأريد الحديث عن ضرورة وأهمية ترميم سور الصين العظيم.
على الفور خيم الصمت والسكون على قاعة المؤتمر، وأكمل نائب رئيس المؤتمر تشانغ حديثه بانفعال قائلًا:
ـ يعد سور الصين ثورة مشتركة بين العالم أجمع، فهو فخر ومجد للشعب الصيني، وقد خربت العواصف والأمطار سور الصين العظيم، لذلك يجب علينا إصلاحه في القريب العاجل، ويجب علينا... قاطع نائب رئيس الاجتماع وانغ حديثه، ودوت ضحكته العالية في الأرجاء: "ها ها ها ها"، ثم التفت إلى نائب الرئيس تشانغ قائلًا:
ـ يا صاح، هل ما زلت لا تعلم الطريقة المثلى التي تحدثت عنها من قبل لإصلاح السماء؟
هز نائب الرئيس تشانغ رأسه، فأمسك نائب رئيس المؤتمر وانغ الميكروفون بأدب ولطف قائلًا:
ـ لأن سور الصين العظيم ثروة مشتركة للبشرية أجمع وفخر ومجد الشعب الصيني، يجب علينا جميعًا استخدامه الاستخدام الأمثل، كما أن الطريقة المثلى التي تحدثت عنها من قبل هي: نزع الطوب الذي شُيد منه سور الصين العظيم ليحل محل الخمسة أحجار الملونة لنتمكن من إصلاح السماء!
***

2ـ عقب أخيل

في الحديقة والغابات تحت ضوء القمر، كان يوجد قطعة أرض شاغرة يقف عليها حصان له أجنحة طويلة يأكل العشب، وبعدما انتهى الحصان من تناول العشب، ضرب بجناحيه في الهواء مثل طائر الكركي.

حينها، أتت كاتبة يافعة تتمتع بمظهر جميل حسن، وعندما رأى الحصان المجنح قدوم أحدهم نحوه غادر المكان على الفور.. أخرجت الكاتبة من حقيبتها قطعة بلاستيكية ووضعتها على العشب المبلل الرطب، ثم جلست عليها وبدأت في قراءة الكتب.

كان تغلغل ضوء القمر اللامع داخل الغصون والأوراق الكثيفة يشكل أشعة عمودية براقة لامعة، بالإضافة إلى اليراعات التي تجوب كل الأرجاء وتصطدم بمصابيح الإنارة الصغيرة؛ كان لكل هذا أثر بالغ لخلق الأجواء والبيئة المناسبة للكتابة والقراءة، فهذه الأجواء جعلتها تشعر وكأنها تقدم عرضًا على خشبة المسرح.

وعندما علا صوتها بالقراءة، بدأ نسيم الليل العليل يتراقص في الغابة ذهابًا وإيابًا، رنَّ صوتها العذب في أرجاء المكان كافة حتى اجتاز حديقة الأزهار وسقط في ظلال شجرة الصفصاف على جانبي البحيرة.

في هذه الأثناء يجلس رجل في منتصف العمر غارقًا في التأمل والتفكير أسفل شجرة الصفصاف، كان مديرًا لأحد المصانع، كما أنه واحد من الشخصيات ذائعة الصيت التي لقبت بالإصلاحيين، قطع عليه صوتها العذب لحظات تأمله وتفكيره وجذبه حتى ذهب إلى هذا المسرح الباهر اللامع بالغابة، فصاح عاليا وقال: صوتك في غاية العذوبة والجمال.

أصيبت الكاتبة بالذهول، رفعت رأسها ونظرت حولها، ثم تزحزحت إلى جانب المفرش البلاستيكي، حتى أخلت له جانبًا كبيرًا من المفرش.. يا له من سخاء!

جلس الرجل بجانب الكاتبة بأدب ولطف، ثم سألها: هل يمكنك قراءة فقرة لي؟

أومأت الكاتبة برأسها وبدأت تقص عليه قصة أسطورة يونانية: "عندما ولد أخيل أمسكت والدته بعقب قدمه وغطسته في مياه النهر العميقة المظلمة، صار جسده الذي غُمِر في مياه النهر من قبل منيعًا يمكنه الصمود أمام السيوف والرماح وغيرها من الأسلحة الحادة، لذلك لا يمكن لأي سلاح خدشه أو إيذائه، ولأن والدته حملته من كعب قدمه، لم يصل الماء إلى قدمه وأصبحت قدمه هي المكان الوحيد في جسده الذي لم تغمره المياه".

ـ لذا، كان أخيل بطلًا أسطوريًا لا يعرف الهزيمة.

ـ أجل بالطبع، لا يمكن لأي سلاح أن يخترق جسده، صار شجاعًا مقدامًا لا يقهر، فقد انتصر في معارك عِدّة.. لكن كان لديه جرح قاتل، كان يخشى أن يصيبه أعداؤه بعقب قدمه، وبعد ذلك لقى حتفه لهذا السبب.

ـ وأنا..
قالها مدير المصنع مبتسمًا..
ـ فقد غُمرت بمياه النهر المظلمة، من رأسي حتى أخمص قدمَي، لذا فأنا لم أخشَ شيئًا.
ـ حقًا؟!
ـ حقًا.
ـ لا تخشى أي شيء؟
ـ لا أخشى أي شيء على وجه الأرض!
ـ ألا تخشى ظهور بثور على وجهك؟
ـ لا أخشاها، لأنني بالفعل أصبت بمرض الجدري، واختفى أثره من وجهي.
ـ ألا تخشى الإصابة بمرض السرطان؟
ـ لا أخشى، فالخوف لا يجدي نفعًا.
ـ ألا تخشى انفجار الكرة الأرضية؟
ـ لا أخشى ذلك، لأن الكرة الأرضية لا تزال شابة، وحتى يأتي يوم الانفجار ستكون البشرية قد وجدت بالفعل ملجأ للذهاب إليه، ألا وهو الذهاب إلى كوكب آخر.
ـ ألا تخشى من الافتراء عليك والوشاية بك؟
ـ لا أخشى من هذا كذلك، لأن الافتراء على أحد هو مجرد افتراء، ففي أثناء الثورة الثقافية الكبرى قال أحدهم إنني سرقت قنبلة ذرية وفجرت جسر تشانغ جيانغ، فقابلت هذا الافتراء بابتسامة فاترة، وقال أحدهم إنني سرقت البساط الذي يجلس عليه تمثال كونفوشيوس، فقابلت هذا الافتراء بابتسامة عابرة أيضًا.
ـ وألا تخشى من ظهور مجموعة من الأرواح الشريرة والتماسيح والذئاب الجائعة أمامك؟
في أثناء حديثهم سمعا فجأة صوتًا يثير الذعر آتٍ من حديقة الحيوانات يقول: يا لها من كارثة! لقد فر الديناصور من القفص.
تحت ضوء القمر، فر ديناصور عملاق من الصندوق الحديدي بحديقة الحيوانات متجهًا ومندفعًا نحو الغابة الصغيرة.
ابتسم، وطلب من الكاتبة النهوض، ثم قال لها بلهجة باردة هادئة: "هل سمعتِ؟ لقد أتى الديناصور"، كان الحيوان القادم نحوهما ليس ديناصورًا ضخمًا، بل كان دودة الأرض.
ـ أنا خائفة!
قالتها الكاتبة وهى تشعر بشيء من الخجل..
رفع هو المفرش البلاستيكي الموضوع على الأرض ثم قال: "رائع! إنها قطعة بوجهين، والوجه الآخر منها يتكون من كيس بلاستيكي"، وفتح الكيس.

وعندما أتى الديناصور مندفعًا نحوهما استقبله دون خوف أو ذعر، وأمسك بالكيس البلاستيك وغطى به رأس الديناصور ليحجب عنه الرؤية؛ فتحول هذا الديناصور إلى ديناصور أبيض اللون بدون عينين، ساكن بلا حراك على جدران معبد آن لا بمقاطعة جين لينغر.

ثم قام عشرة من حراس الحديقة بإمساكه سريعًا، ووضعوه داخل القفص الحديدي.

وأصبح بعد ذلك بطلًا أسطوريًا في ترويض وإخضاع الديناصورات المفترسة، وعندما سمع الزائرون بهذا الخبر أحاطوه وحاصروه بالكامل، وسرعان ما جاء إليه العديد من المراسلين.. وبعد مرور ثلاثة أيام، هاتفت الكاتبة مدير المصنع.

ـ مرحبًا رفيقي مدير المصنع، كيف لم أسمع أو أقرأ أي أخبار عن أمر إخضاعك وترويضك للديناصور في الجريدة ونشرة الأخبار؟

ـ لقد تعرضت للافتراء..

ـ ماذا؟ افتراء؟ ألم تقل إنك لا تخشى الافتراء؟ ألم تغمر مياه النهر جسدك بالكامل من رأسك حتى كعب قدمك؟

ـ هذه المرة حقًا، وفي خلال هذه الأيام راسلني العديد من الناس عبر إرسال خطابات إلى الصحف والمحطات الإذاعية ومحطات الراديو، حتى إن هناك البعض أرسل خطابات إلى لجنة الانضباط القانوني والمحكمة، ادَّعوا فيها أني عندما كنت معك بالغابة أمسكت بالكيس البلاستيكي وقمت بمواجهة الديناصور!

***

3ـ تسانغ جيه و"السيد واي" و"الآنسة شين"

إننا جميعًا أبناء وأحفاد الإمبراطور هوانغ، أما تسانغ جيه، الذي قارب عمره ألف عام، هو المؤرخ الخاص بالإمبراطور، وهو أيضًا مخترع الكتابة الصينية.. يرتدي السيد تسانغ جيه قميصًا أزرق اللون ومعطفًا فضفاضًا وقبقابًا خشبيًا، وهو متكئ على عكاز، ويسير مترنحًا نحو المنضدة الموضوعة بجوار ردهة منزله.. في تلك الأثناء أتى شاب أجنبي، من أصل صيني، في منتصف العمر برفقة فتاة أجنبية ذات أصول صينية، ترتدي أزياء على الموضة.

كان الشاب يرتدي بذلة وقبعة رسمية، ويلقب بـ"الكلمات الدخيلة"، في حين كانت الفتاة ترتدي قميصًا جميلًا مصنوعًا من قماش الدانتيل، وبنطالًا ضيقًا، اسمها الشرفيّ "الأسماء الجديدة".. بعد إلقاء التحية، جلس الشاب على الأريكة، وجلست الفتاه على كرسي قابل للطي.

أخذ تسانغ جيه رشفة من الشاي وقال: "كلمات دخيلة وأسماء جديدة، على الرغم من أنني أكبركم بأعوام كثيرة، فإني أرغب في تجاذب أطراف الحديث

معكم باللغة الحديثة"، ثم استخدم لهجة لطيفة مهذبة وأكمل قائلًا: هل بإمكاني مناداتكم بالسيد واي والسيدة شين؟
ـ OK.
نهض الشاب سريعًا، وسار نحو تسانغ جيه ليقف أمامه قائلًا: "سيدي المبجل المحترم مخترع الكتابة الصينية، رجاء اسمح لي بتقبيلك مرة أخرى؛ فاللقب الذي أنعمت علينا به ومنحتنا إياه جعلني أتذكر بحبور ذلك اللقب الذي أطلقه الناس على "الديمقراطية" و"العلوم"، "سيد ده" و"سيد ساي".
ـ سيد تسانغ، يسعدني كثيرًا قبول دعوتكم للانضمام إلى اجتماع المكاشفة والمصارحة اليوم في تمام الساعة الثالثة. قالت الفتاة بحماس:
ـ أنا أؤمن أن حديثنا اليوم بشأن تطارح المعلومات حول نظام الكتابة الصينية وشبكة مفردات اللغة سوف يكون مثمرًا.
أشار تسانغ جيه إلى المشروبات الموضوعة على طاولة الشاي قائلًا: هل تود احتساء الشاي أم شراب النبيذ؟
أجابه الشاب سريعًا ودون تفكير: أود احتساء المياه الغازية أو القهوة.
وأجابته الفتاة قائلة: هل يوجد لديك زجاجة مياه معدنية؟ ويفضل أن تكون مغلفة أيضًا.
أمسك تسانغ جيه بكوب الشاي قائلًا: هنا يوجد كل ما تشتهيه النفس وتستلذه العين، هيا، لنتحدث بينما نحتسي الشاي.
وبعد تبادل التحيات والمجاملات بدأت المحادثات الرسمية.
أرغب اليوم في دعوة ضيفين لأعبر عما بداخلي من ضيق وانزعاج، لقد التزم هذا الرجل الصمت لعدة سنوات، فهل ما زال يرغب في التزام الصمت أكثر من ذلك؟
السيد تسانغ جيه مخترع الكتابة الصينية صاحب الإنجازات العظيمة والمآثر الجليلة، إن وجهك المتواضع ممتلئ بالهم والحزن، أتكون قد غرقت بالفعل في بحر الأحزان والهموم؟
تسانغ جيه، لا تدع الأحزان والآلام تتراكم وتغص قلبك وذهنك، اتركني أحمل عنك ولو قليلًا من أعبائك وهمومك، وأتمنى أن يشعر الجميع، بأسرع ما يمكن، بأعبائك وهمومك التي تتكبدها وحدك.
إنني لا أطيق رؤية هذا، تسانغ جيه مخترع الكتابة الصينية تغيرت ملامحه وتبدلت، حتى إنني لم أستطع التعرف عليه.. من منا لم تعد إلى ذهنه الذكريات وتملأ وجهه الدموع عندما رأى هذه الكلمة "دموع"؟
إن رمز "مهيب" الذي تكرمت بتقديمه للبشرية يعبر تمامًا عن أحد جنرالات جيش الولايات المتحدة العظماء الأجلاء، وعن أسلوب الصدام الصيني الأجنبي.. Very Good.
ورمز "مليح" الذي اخترعته هو انعكاس لحيوية فتاة يافعة تتطلع خلفها ضاحكة في دلال، يبدو لي مدهشًا كلما نظرت إليه!

إن الرموز التي وضعها فو شياو تشن، أو التي بُسِّطت أو استوعبت أو أبعدت أو لم يهتم بها أحد، كأنما قد أُحرقت جميعها، أما الرموز التي تحيا حياة بائسة في هذا العالم فهي لا تتعدى النصف، حتى إن كانت هذا الجزء اليسير.

لم يسمع النبيل ما قاله السيد ماو رون تشي "يجب تبسيط الرموز، علينا أن ننسج على منوال المقاطع الصوتية المتبعة في الكتابة العالمية".

أستتحول الرموز كلها إلى مقاطع صوتية؟! لا مناص من تبدل الأعراف.. يا للهول!

تحدث الشيخ الكبير حتى اعتلج الهم في صدره، وبدت عليه أمارات الحَنَق، فهرع السيد واي والآنسة إلى تهدئته ومواساته.

قال السيد واي: إن جهدك المشكور في اختراع الرموز الصينية يشهد به العالم أجمع، لكن العالم أيضًا قد أقر - في وقت مبكر - بصعوبة قراءة الرموز الصينية وكتابتها وحفظها، وصار تبسيطها أمرًا لا بد منه.

أومأت الآنسة برأسها غير مرة: "سأطرح وجهة نظر شائعة كل الشيوع، وأرجو أن تنال إعجاب السيد الكبير.. أعتقد أن الكتابة يجب ألا تتقيد بقيد، لكنها يجب أن تُبسط.. إن آلية معالجة الرموز يجب أن تؤول إلى نظام ديناميكي دائم التغير، ليس فقط أن تتفاعل مع اللغات الإنجليزية والروسية واليابانية، بل يجب أيضًا أن يُسمح للمصطلحات في شتى فروع العلم، أن تتفاعل فيما بينها، وأن تدب الحياة بداخلها!".

كانت أذنا تسانغ جيه تمجّ الكلام كلما أمعن المتكلم فيه، وقد صرّ على أسنانه حَنَقًا، وبلغ منه الغضب مبلغًا عظيمًا.

أشاحت الآنسة شين بوجهها عن هذا، وأمعنت في الكلام قائلة: "أيها السيد تسانغ، اعذرني على الكلام بشكل غير لائق عن الرموز الصينية ذات الشرطة الأفقية والشرطة اليسارية المنحنية والشرطة الرأسية والشرطة اليمينية النازلة، وغيرها من توليفة الحركات الخطية التي بها خطوط كثيرة غير مفهومة، فعلى سبيل المثال، قلب الإنسان ما هو إلا جهاز عضوي يباشر الدورة الدموية، ولا يمكنه أن يضطلع بعملية التفكير، بينما العقل هو المنوط بالتفكير، لكن ما وضعتموه من ’想 يفكر‘ ’爱 يحب‘ ’恨 يكره‘ وغيرها من الرموز، لا علاقة لها إطلاقًا بـ ’心 القلب‘"

قاطع الأجنبي الكلام مضيفًا: "’القلوب تتفاهم‘ يجب أن تترجم، لأول وهلة، إلى ’العقول تتفاهم‘!".

واصلت الآنسة وقد غيرت لهجتها المهذبة المتواضعة التي ابتدأت بها اللقاء إلى لهجة متهكمة ساخرة: "إن الصواب أن تقول ’أخمدت النار‘، بينما الهزل أن تصير ’أنقذت النار‘، إن الصواب أن تقول ’حلقت شعري‘، بينما الهذل أن تصير ’حلقت رأسي‘ و’قصصت رأسي‘، ولا جرم أن تقول ’قطعت رأسي‘!".

أرخى السيد واي ربطة عنقه، وتابع الحديث قائلًا: "أن تستبدل بـ’كنس القمامة‘ ’كنس الصحة‘، والأدهى أن أحدهم استبدل بـ’الاستراحة من التعب‘

’استعادة التعب‘.. هذه اللغة لا تشبه المرح في عبارة ’من شدة الزحام صرت في الباص مثل سمكة في علبة سردين، أو كصورة مسطحة، كما أنها ليست كلطف ورقّة السيدة آنجل التي ترتدي التنورة.. إنه أمر لا يمكن فهمه، غير معقول تمامًا!".

"معقول!"

قالتها الآنسة شين كالذي يعلن نتيجة بحث علمي: "لقد انتقلت العدوى إلى هذه الكلمات؛ لأن الكتابة وضعت على نحو غير منظم".

ـ إن لم تستح فاصنع ما شئت.

هكذا دمدم السيد تسانغ في النهاية!

***

4ـ القُنينة النحاسيّة المُبطّنة

هذه أبسط غرفة مكتب في الجنة، هناك منضدة قبالة النافذة، وأرى لو شون منكبًّا عليها ومنهمكًا في الكتابة.. وإذا استرقنا النظر من زجاج النافذة، يمكننا أن نرى نيزكًا يهوي من السماء، وقمرًا اصطناعيًا يعلو فينة ويرتفع أخرى.

وضع لو شون قلمه وأشعل سيجارًا، من ثم غرق في الذكريات، وكان قد فرغ للتو من كتابة مسودة.

فجأة قرع شخص الباب ثلاث مرات.

ذهب لو شون ناحية الباب كي يفتحه؛ فإذا بالطارق فتاة تدعى تشانغ تشي شين.. قال لو شون: هل لي أن أسال من أنت؟

فتحت تشانغ تشي شين فمها، لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة.

قال لو شون: آه، فتاه صماء!

ثم أغلق الباب، وقال بصوت عال: لم أنت آتية في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ما الأمر؟

ظلت تشانغ تشي شين فاتحة فمها، وأشارت إلى جوف فمها بيدها.

قال لو شون: آه، تشعرين بالظمأ.

فملأ لها كوبًا من الماء وأعطاها إياه.. شربت تشانغ تشي شين الماء بأكمله دفقة واحدة، ولكن بمجرد أن دخل الماء جوفها، خرج من حلقها خارج جسدها.

أصاب لو شون ذهول ودهشة.

امتلأت عينا تشانغ تشي شين بالدموع، ثم أخرجت ورقة شكوى من جيبها وأعطتها للو شون.

قال لو شون: آه، تقدمين لي شكوى!

ثم أخذ الورقة وذهب قبالة الطاولة، ووقف إلى جانب المصباح كي يرى بوضوح، وقف لو شون فجأة، وضرب بيده على الطاولة، ثم صاح بصوت عالٍ

وقد انتاب جسده بالكامل قشعريرة من شدة الغضب: أنبوب التنفس العنقي؟ هل يمكن أن يحدث ذلك؟ هذه هي أداة الحكم المستبد وسياسته الجائرة، وهذا هو تصرف أدولف هتلر بعينه.

تقدمت تشانغ تشي شين نحوه لتمسك به - لو شون الرجل الضعيف المسن - وتجلسه على الكرسي.

فسأل لو شون بهدوء وروية: صغيرتي، هل سبق لك وأن قرأتِ كتابي الذي أصدرته بعنوان "من أجل إحياء الذكرى المنسية"؟

أومأت تشانغ تشي شين برأسها.

ـ وهل تتذكرين مقتطفات الشعر التي كان يحتويها الكتاب؟

أومأت تشانغ تشي شين برأسها مرة أخرى.

ـ لقد قمت بإجراء بعض التغييرات عليها، فغيرت جملة "قضاء فترتي الربيع والخريف" لتصبح "قضاء فترة الربيع"، أيضًا غيرت كلمة "نظرة عين" إلى "نظرة قاسية"، كما غيرت كلمة "حد السكين" (وتشير إلى الحكومة الظالمة) لتصبح "مجموعة السكاكين المتشابكة" (وهي تشير إلى الحكومة الظالمة التي تستبيح أرواح الشباب)، لكن لم يخطر ببالي أنني لا بد أن أغير أيضًا الجملة التي تلي كلمة" نظرة قاسية" لتصبح: "بعد رؤيتنا للشباب وقد أزهقت أرواحهم، تملكنا الغضب فكتبنا الشعر هجاءً لهذا الحكم الأسود الغاشم وتعبيرًا عن الاستياء".

في هذه اللحظة انهمرت الدموع على وجه الفتاه العنيدة المكابرة، ونسي لو شون للحظة أن تشانغ تشي شين لا تستطيع الكلام، فسألها في عجلة قائلًا:

ـ هناك فوضى عارمة تحدث بين العامة مؤخرًا، أنتِ آتية من هناك، هيا أخبريني بسرعة، ماذا يحدث بين العامة؟

فاتجهت تشانغ تشي شين إلى خزانة الكتب، وأخذت تبحث عن كتاب تريده، وسرعان ما وجدته، وكان اسم هذا الكتاب "ألف ليلة وليلة"، ثم قلبت صفحات الكتاب، حتى وصلت إلى صفحة بعنوان "قصة الصياد"، ثم وضعتها على طاولة الكتابة الخاصة بلو شون، فعرض لها لو شون القصة التي تناقلتها ألسنة العرب.. "منذ زمن بعيد، كان هناك رجل صياد، رمى بشباكه، فوجد فيها قمقمًا مصنوعًا من نحاس أصفر مبطّن من الداخل بالزجاج، فأخرج خنجرًا كي يكسر ختم القصدير الموجود على عنق القمقم، وما أن انكسر عنقه خرج من القمقم دخان أخضر، وتطاير حتى صعد إلى الهواء، ثم انتشر على الأرض وملأ الأرجاء، بعدئذ تآلف الدخان شيئًا فشيئًا حتى صار عفريتًا ضخمًا.. بعد أن خرج العفريت، أنكر معروف الصياد فيه، وأراد أن يقتله، فخطرت ببال الصياد فكرة، قال للعفريت: هذا القمقم صغير للغاية، لا يكفي لأن تضع يدًا واحدة به، وأيضًا ليس به متسع كي تضع به قدمًا واحدة، فكيف استطعت أن تمكث فيه بهذا الجسم العملاق؟ قال العفريت: ألا تصدق أنني كنت أمكث فيه؟ رد الصياد: لا أصدق أبدًا، إنتفض العفريت حينها، ثم تحول إلى دخان متصاعد في الهواء، وانكمش

حتى أصبح ذؤابة دخان تدخل شيئًا فشيئًا إلى القمقم، وعندما رأى الصياد أن الدخان كله قد دخل إلى القمقم، أسرع وأغلق القمقم بإحكام مستخدمًا ختم القصدير، ثم صاح بصوت عال وقال للعفريت: سوف ألقي بك في البحر هذه المرة، وأخبر الجميع بأن من يصطاد هذا القمقم، يلقيه مرة أخرى إلى البحر، فبه عفريت مريع".

أشار لو شون إلى الكتاب قائلًا: ولكن.. ما علاقة هذا بما يحدث حاليًا بين العامة؟

فأحضرت تشانغ تشي شين كوبًا من الماء، ثم سكبت بعض المياه، وصنعت خطين منه على الطاولة، ثم غطت الكوب ودفعته على الطاولة ليخترق خطي المياه.

فكر لو شون مليًا، ثم قال: هل تقصدين أن القمقم النحاسي المجوف بالزجاج يسير فقط حسب التيار، ثم يمر بالمحيطين الهندي والهادي، ليصل إلى نهري الأصفر وليانغتسي، ثم يلتقطه الناس بشباكهم؟

أومأت تشانغ تشي شين برأسها، ثم رفعت غطاء الكوب.

قال لو شون: آه، فتح أحدهم ختم القصدير!

اكفهر وجهه قليلًا ثم قال: مستحيل أن يوقع العفريت بنفسه في الشباك مرة أخرى بهذه السهولة.

بعد عدة سنوات كانت تشان تشي شين لا تزال موجودة بغرفة المكتب الخاصة بلو شون، وكان لو شون شابكًا يديه خلف ظهره يتجول في الغرفة، وإذا بمجموعة من الأقمار الاصطناعية التي تتبادل المعلومات والاتصالات تهوي أمام نافذة مكتبه، التقط لو شون واحدًا بيده، وفتحه، فسمع أخبارًا عبر صوت مسجل لرجل مسن: "أنا أدعو لتأسيس متحف للثورة الثقافية الكبرى، لقد أودت الثورة الثقافية الكبرى بالبلاد وشعبها إلى كارثة عظيمة، من المحتمل أن تؤدي إلى إفناء العديد من الأجيال، لذلك يجب علينا ألا نؤيد تلك الثورة، وأن نلخص هذا الدرس القاسي، وألا نجعل الجميع والأجيال المقبلة ينسون هذا الدرس الدامي".

فرح لو شون فرحًا شديدًا، ووقف بجانب تشانغ تشي شين وقال: سأقدم اقتراحًا، وهو أن يُبنى المتحف على طراز القمقم النحاسي الأصفر المبطن من الداخل بالزجاج.

أومأت تشانغ تشي شين برأسها تعبيرًا عن تأييدها له، ثم نزعت أنبوب التنفس العنقي الخاص بها وأعطته إياه، ثم أشارت إلى الأسفل.

أدرك لو شون أن تشانغ تشي شين تريد أن تسهم بأنبوب التنفس العنقي الخاص بها في المتحف.

وبعد مرور نصف عام.. كان لو شون في غرفة مكتبه، ينظر من خلال النافذة متفقدًا أحوال العامة، رأى فيتنام الدولة التي تغير حالها إلى دولة مزدهرة وقوية، فماذا عن الصين؟ رآها في تقدم وازدهار، فقد رأى البروج المشيدة،

كما رأى الكباري المخصصة لعبور المشاة، ببساطة أصبحت الصين دولة تشبه موقع بناء يضج بتغيرات دائبة، ولكن أين متحف الثورة الثقافية الكبرى؟
ظل لو شون ينظر بعينه في جميع الأرجاء باحثًا عنه!
***

5ـ التفاحة الذهبية

"التفاحة الذهبية المتنازع عليها" مثل شعبي أجنبي، انبثق من إحدى الأساطير اليونانية القديمة، وتشير إلى التمسك بأصل المشكلة.
دق جرس العمل، وانتشرت من أحد مكاتب المصنع أخبار سارة أثارت حماس الناس، فحسب دراسة قسم الإدارة للمصنع وقرار مديره، سيتم إعطاء كل عامل سلة تحتوي على تفاح من النوع الأصفر، وقد أكد مسؤول المصنع مرارًا وتكرارًا على رئيس الورشة، أن يذهب كل شخص بعد الانتهاء من العمل بعد الظهر، إلى مخزن شركة الفاكهة بالضواحي، وتسلم التفاح حسب الإيصال المختوم، وذلك تجنبًا للحسد من قبل المحيطين والتدخل من قبل الأقسام الأعلى، أما بالنسبة لدفع النقود، فقد كُلفت وحدة المصنع بدفعها للشركة المنتجة للتفاح، وغير مسموح لأي عامل الإفصاح عن أمر إرسال التفاح لهم.
لم يغادر أحد اليوم مبكرًا، وعند حلول الليل في تمام الساعة السادسة بعد الانتهاء من العمل، قامت كل ورشة بالتنظيف الشامل، حتى أصبحت جميع الماكينات لها بريق لامع مثل بريق الثلج، كأنهم طلَوها بالكروم الذي يمتاز بلونه اللامع المتلألئ.. وبعد حلول الظلام، أخذ كل عامل قسيمة الشراء الخاصة به، ثم ذهب وهو مفعم بالفرح نحو مخزن شركة الفاكهة لتسلم التفاح.. ولكن للأسف، لم تستمر هذه السعادة لأكثر من ليلة واحدة، حيث انتشرت أخبار أخرى أطاحت بتلك، فعلى الرغم من أنه مسموح لكل عامل الحصول على سلة واحدة فقط، فإن مدير المصنع هو الوحيد الذي حصل على سلتين من التفاح، وهو ما لا يقل عن ثلاثين كيلوجرامًا، بالإضافة إلى أنه لم يدفع قرشًا واحدًا من المال.
ـ كيف لمدير المصنع أن يفعل ذلك؟ كيف يكون خادم العمال والمسؤول عنهم خنزيرًا طماعًا يأخذ أكثر مما خُصص له!
ـ فكيف لنا أن نعيش بعد ذلك إذا استمر هذا المدير على هذا النحو؟
ـ ينعم هو بالراحة والدعة، ويترك لنا التعب والمشقة! هه!
ـ علينا أن نخبر الصحف بالأمر، ونقدم شكاوى ضده للجنة الانضباط.

وفي يوم العمل، كان العمال المتبرمون يعملون بدون همة وحيوية طوال اليوم، حتى وصل الأمر بهم إلى مغادرة معظمهم قبل حلول موعد انتهاء العمل، ولكن للأسف، ذلك التبرم والضجر الذي خيم على العمال لم يستمر أيضًا أكثر من ليلة واحدة، ففي اليوم التالي حُلت المشكلة بمجرد مسألة حسابية أوضحها رئيس حرس المدخل، وهي أن في حالة حصول مدير المصنع على سلة واحدة، فسوف يحصل كل عامل على نصف سلة، وإذا حصل على أربع سلال، احتمال أن يحصل كل عامل على سلتين، لذلك فإن المدير قد أخذ سلتين من التفاح ليصبح نصيب الفرد سلة واحدة، وهذا يعني أنه كلما زاد نصيب المدير، زاد نصيب العمال.

"اثنان مقابل واحد" قالها المسؤول عن أعمال المصنع بينما يهز رأسه إيجابًا، ثم قال: إذا ضُرب نصيب الطرف الأيسر في اثنين، فسيُضرب نصيب الطرف الأيمن أيضاً في اثنين، وإذا ضُرب نصيب الطرف الأيسر في ثلاثة، سيُضرب نصيب الطرف الأيمن أيضاً في ثلاثة، وهكذا..

ابتهج الجميع، وغمرت الابتسامة شفاههم بعد سماعهم لتلك المسألة الحسابية، ثم قالت المحاسبة الآنسة لي: إن مدير المصنع حقًا رجل جيد، فقد حصل على سلتين فقط مقابل سلة واحدة، فهناك بعض الرؤساء يحصلون على ثلاثة مقابل واحدة، أو خمسة مقابل واحدة، أو عشرة مقابل واحدة، أو مائة وهكذا إلى ما لا نهاية.

أما عن الرجل الذي استعد أن يذهب إلى دار الصحيفة ولجنة الانضباط، من أجل تقديم شكوى ضد المدير أدرك حقيقة الأمر، ثم مزق أوراق الشكوى، بل تمنى أن يحصل المدير على عشرة آلاف من السلال.

* * *

6ـ تطور قدم الإنسان إلى عجلة

في غرفة المكتب الخاصة بي، تحدثت اليوم مع اثنين من الجهابذة الذين يقدسون داروين مؤسس نظرية التحول، واحد منهم يُدعى الأستاذ شيا، وهو عالم ومفكر في علم تطور الأحياء، وأيضًا ممارس ومهتم بتطبيق نظرية التحول لداروين، استفاض في الحديث عن تجربته التي قام بها في معمل التجارب الخاص به، حيث أحضر مجموعة من الفئران البيضاء، وقطع ذيولها، ثم جعلها تتزاوج وتنجب، واستمرت عدة أجيال على هذه الوتيرة، ولم يتخلَّ

الأستاذ شيا عن هذا النوع من التجارب، ولا يزال مستمرًا فيه، على الرغم من أن جميع الأجيال المنتجة من هذه التجربة لديها ذيول ولا ينقصها شيء.

أما عن الأستاذ سون قليل الكلام صاحب التجارب الناجحة، فقد جعل بناته الأربعة يتزوجن من رجال لديهم شعر مجعد، فكانت النتيجة إنجاب ستة عشر حفيدًا، من بينهم اثنا عشر حفيدًا لديهم شعر مجعد، بعد ذلك أجبر أحفاده الأجانب من الإناث والذكور الزواج من آخرين لديهم شعر مجعد، وحتى الآن فإن مظهر شعر أحفاده الأجانب أفضل وأجمل من الشعر الذي يصففه حلاق الشعر، لكني لم أجرِ تجارب من هذا القبيل من قبل، فقط سميت نفسي "كاتب القصص الفكاهية القصيرة جدًّا"، و"العالم الصغير هو دائمًا قصة قصيرة"، لكن تخيلاتي وأفكاري دائمًا ما تجعلني أتقدم عليهم وأتجاوزهم، فقد عرضت نظرية متميزة أثارت أنتباههما لينصتا لها جيدًا، ألا وهي "بعد مرور مليون عام من الآن، سوف تطور جميع أجزاء الساق والقدم البشرية لتصبح عجلات متحركة"، ثم قمت تلقائيًا بتحريك يدي في الهواء بشكل دائري، وقلت: "يجب أن تتمكن البشرية من تحويل ساقهم إلى عجلة بدلًا عن السيارات، ولنا أن نفكر، إذا تحول الجزء الأسفل من جسم الإنسان إلى عجلة متحركة فذلك.. انتبها من فضلكما، بهذا الشكل سوف يصبح الإنسان بعينه وسيلة مواصلات متنقلة، فيا له من تطور عظيم ورائع!".

ويبدو أن أستاذ شيا متحمس جدًا لآرائي، حتى إنه لم يستطع أن يصمت أكثر، وقطع حديثي قائلًا: "لم يعد هناك أحد يسير على الأقدام الآن، بل أصبح الناس يستخدمون الدراجات، ولم يعد هناك أحد يركض فقط، بل أصبح يجري ويسابق الريح، ولم يعد يتجول في نزهة، بل أصبح يركب الطائرات والسفن أحيانًا من أجل السفر والتنزه".

ثم وضح الباحث سون في تمهل وهدوء قائلًا: وعندما يمرض الطفل، يقول لوالدته تعطلت قدماي. ثم أكمل أستاذ شيا الحديث قائلًا: وبذلك يمكن أن تذهب إلى المكان الخاطئ، لكن لن يستقل وسيلة المواصلات الخاطئة في أي حال من الأحوال..

صار العالمان مثل طفل مشاغب قد غرق تفكيره لحل لغز من الكلمات، فلم يفكروا في تلك اللحظة عن المغزى الحقيقي والأهم من نظرية تحول قدم الإنسان إلى عجلة متحركة، لذلك قلت لهم: "في ذلك الوقت، سيستطيع كل شخص ليس لديه القدرة على السير أن يسير آلاف الأميال، ولنا أن نفكر، إذا تحول الإنسان نفسه إلى وسيلة مواصلات، ألن تصبح المولدات والسيارات تحفة من الطراز القديم؟ وتصبح الكرة الأرضية خالية من المولدات والسيارات، ستختفي معها الأضرار التي تسببها مثل الضوضاء والدخان النابع من عوادم السيارات، ويعود ذلك بدوره على الحد من زيادة تلوث البيئة".

حينئذ طرق أحد ما الباب، وفتحته، فوجدت فتاة مصابة بشلل القدمين، وتجلس فوق كرسي المقعدين. قالت الفتاة: يا سادة. ثم اقتربت من الباب

وقالت: "لقد كنت آذهب للتنزه مثلما تقولون، وبمروري من أمام النافذة سمعت حديثكم"، ثم واصلت الفتاة حديثها في شيء من التوسل قائلة:
ـ لقد تحولت قدماي إلى.. عجزتُ حتى أصبحتْ بالفعل عجلات متحركة، هيا أيها الجد، أخبرني بسرعة عن طريقة تجعلني أستطيع الوقوف والسير كالماضي.
وقف الرجال الثلاثة في آن واحد، ثم حيُّوا الفتاة وكأنهم يقفون أمام نصب تذكاري في هيئة حادة وصارمة، وأصبح حالهم كحال من وُضع على عاتقة مهمة عظيمة يقدرها، فيجب علينا نحن البشر، بغض النظر عن الزمان والمكان، أن نسعى جاهدين لأجل تحقيق مثالية "تطوير الأقدام إلى عجلات، لا لتحقيق نظرية تطوير عجز الأقدام إلى عجلات".

***

حينما يبدو المقلد أكثر أصالة

ـ متى اشتريتِ هذا العقد يا آمي؟ إنه رائع حقًا!
ـ إن خطيبك غني حقًا يا آمي!
ـ كم عيار هذا العقد؟ لا بد من أن مقدار الذهب الصافي يبلغ 99.99%، أليس كذلك؟
لم تكن "آمي" تجرؤ على إخبار الآخرين أن هذا العقد "الذهبي" عقد مقلَّد، قد اشترته من بائع متجول يعرض بضاعته فوق بساط على الرصيف، ولم يكلفها غير يوانين فقط، كانت "آمي" تسلك مسلك اللصوص، حيثُ كانت تخشى دائمًا من أن يكتشف الآخرون عيوب هذا العقد "الذهبي"، وكانت تخشى من أن يسخروا من أنها تُحب التفاخر، وأنها مغرورة وتتصنعُ الغنى، بل من أنها حتى لم تحظَ بحب حقيقي من صديقها!
كيف يمكن اعتباره عقدًا؟ إنه أشبه بأنشوطة حول رقبتها، وعلى الرغم من ذلك تركت "آمي" هذا العقد معلقًا في رقبتها من أجل المظهر الجميل، وإلا ستصبح رقبتها عارية، وستكون مثار سخرية الآخرين.
مارس خطيب "آمي" التجارة، وحقق ثروةً أخيرًا، وأهداها عقدًا أصليًّا من الذهب، لكن "آمي" لم تجرؤ على ارتداء هذا العقد الجديد؛ إذ كانت تخشى من أن ترتديه في رقبتها فيسرقه منها أحدهم، وكانت تخشى من أن يسقط منها سهوًا في الطريق، وكانت تخشى...
خبّأت "آمي" العقد الذهبي في علبة حديدية داخل صندوق كبير، ومع أنها كانت ترتدي في رقبتها ذلك العقد القديم الذي اشترته بيوانين فقط، فالغريب حقًّا أن جميع المشاعر التي كانت تخالطها عند ارتداء هذا العقد من توترٍ وقلقٍ وخوفٍ، قد زالت جميعًا.

***

ارتفاع سريع، ارتفاع عجيب، ارتفاع جيد، ارتفاع سيئ

عند دخول أسواق المزارعين، ستجد الكثير من الخضراوات الطازجة، مثل الخس الصيني الأخضر، والفجل الأحمر الكبير، وجذور اللوتس البيضاء كالثلج، وقشرة التوفو الذهبية، وعلى الرغم من أننا في الشتاء القارس، فإنك تستطيع أن تجد الطماطم والخيار والفلفل الحلو وفول الصويا عند الباعة، وتجد كل ما تفكر في شرائه، وفي أثناء التجول داخل السوق تسأل عن أسعار الخضار، وتبدأ في التذمر والشكوى تدريجيًا منها: "إن هذه الخضراوات باهظة الثمن لدرجة لا يمكن وصفها"، وفي وسط الزحام سمع أحدهم همسك وقال: "يمكن وصفها، فهذه الخضراوات غصونها ذهبية، وأوراقها من اليشم"، فضحك كل من سمع هذه الجملة.

وعند فصالك مع أحد بائعي براعم البامبو الشتوية تقول له: سأشتريها بيوانين وثلاثين ماو، هل ستبيع أم لا؟

يرد البائع: يوانان ونصف اليوان، أقل من هذا المبلغ فن واحد لن أبيع.

فتسأله: هل هذه براعم البامبو الربيعية؟

فيقول: لا، إنها براعم البامبو الشتوية.

فتقول له: إنها براعم البامبو الربيعية.

ـ سأعيد قولي، إنها براعم البامبو الشتوية.

ـ أقصد أن سعرها مثل سعر براعم البامبو التي تنمو بعد الأمطار الربيعية!

وعندما تنهي كلامك يصمت البائع أيضًا، ولسوء الحظ لم يفهم البائع ما يحمله كلامك من معنى، ويقول: إذا كنت لا تريد الشراء غادر. وتستشيط أنت غضبًا وتقول: إن ما تفعله أمر كارثي، لقد أصبح طبق الخضراوات أغلى من طبق اللحم!

فيقول البائع: حسنًا، اذهب إلى المطعم وانظر بنفسك، إن سعر وجبة لحم الخنزير المقلي ثلاثة يوانات ونصف اليوان، أما وجبة الجذع الأخضر المقلي بأربعة يوانات وثمانين ماو!

ويقاطعنا شخصٌ آخر قائلًا: "إن اليقطين الأبيض الآن أغلى ثمنًا من البطيخ"! تفكر قليلًا، ثم تهز رأسك تلقائيًا، ففي فصل الصيف، نجد البطيخ الذي يُباع النصف كيلو منه بثمانية فنات متكدسًا في الشوارع، ومبلغ اثني ماو لا يكفي إلا لشراء شريحة من اليقطين الأبيض.

وأكمل هذا الشخص حديثه وقال: "إن الصور ذات اللونين الأبيض والأسود أغلى ثمنًا من الصور الملونة".. تصيبُكَ الدهشة، ثم تفكر قليلًا، فتجد أن هذا الكلام حقيقي! ثم يقول ذلك الرجل: "إن صنع الصواريخ لا يُضاهي بيع البيض"،

فتندهش مما سمعت، ثم يضيف الرجل: "لقد ذُكر هذا الخبر في الجريدة"، وتنظر إلى الجهة المقابلة وتجد صفًا من باعة البيض، فتعرف أن هناك أشخاصًا يجنون أموالًا كثيرة. اشتريت سلة ممتلئة بالخضراوات ذهبية الغصون وجميلة الأوراق، وتسير شاكيًا: لا نقدر على شراء الطعام.. لا نقدر على شراء الطعام!

***

إبداع أحدهم

يوم الاثنين، نسخ نكتة كانت بإحدى الجرائد المسائية، وكان نصها ما يلي:
"أبت بيتي أن تتزوجني، وبعد ذلك أخبرتها بأن لدي عمٌ ثري...
ـ بالتأكيد وافقت على الزواج منك..
ـ لا، بل أصبحت اليوم زوجة عمي".
يوم الثلاثاء، أرسل لإحدى الصحف اليومية مقالة بعنوان "عمل جديد"، وكان محتواها:
"أبت سيو شيو يينغ أن تتزوجني، بعد ذلك أخبرتها بأن لدي أخ يتخطى دخله السنوي عشرة آلاف يوانًا..
ـ بالتأكيد وافقت على الزواج منك..
ـ لا، بل أصبحت اليوم زوجة أخي".
ومن أجل "تحسين الفائدة الاقتصادية"، أرسل يوم الثلاثاء مقالة بعنوان "العمل الحديث" إلى إحدى المجلات، وكان محتواها:
"أبى آسيانغ آشيانغ أن يتزوجني، وبعد ذلك أخبرته بأن والدتي ثرية..
- بالتأكيد أراد أن يصبح زوجك..
- لا، بل أصبح اليوم زوج والدتي".
وعندما أصدر أول "عمل فني" له.. وبعد ذلك "أبدع" العمل الثالث والرابع والخامس.. وقرأ أحدهم "أعماله العظيمة"، ثم قال له دون رحمة : "هل ما تكتبه حقًا من تأليفك؟"!

***

الأشياء الثمينة

عندما خلع ملابسه أدرك أنه ما زال يرتدي ساعة اليد، فهو عادة يترك ساعة يده في المنزل عندما يذهب إلى الحمام العمومي، لتجنب سرقتها.

أخذ يحدق حوله بحذر، وبدا وجه الرجل المستلقي قبالته على المقعد يدخن السجائر مألوفًا، فاندهش، إذ هو الرجل الذي يبيع الإوز المشوي لحسابه الخاص، وهذا الذي يرتدي بنطالًا هو بائع اللحمة بمتجر الخضراوات واللحوم، وذلك الرجل الذي يهز رأسه مدندنًا بأغاني أوبرا بكين هو لاو يه تسي والد شياو يه تسي وحارس بوابة مؤسسة الخدمات الجنائزية.. يتردد على الحمام العمومي يوميًا شتى ألوان الناس ومشاربهم، كان يرى أنه عاجلًا أم أو آجلًا سيحصل على شقة في المجمع السكني، وحينها سيكون في غنى عن ذهابه لهذا المكان ومخالطته لهؤلاء "البرجوازيين المدنيين" و"المتسكعين".

خلع ساعة يده، وضعها في كيس من النايلون، ثم وضعها في جيبه ذي السحَّاب، لكنه ما زال غير مطمئن، فلوح بيده للنادل، ورفع صوته قائلًا: هيه، هل تأتي إليَّ هنا؟ جاء النادل المسن "يو" يحمل بين يديه كومة من المناشف الساخنة.

أمسك هو بتلك الساعة الإلكترونية ووضعها بكف يده، وطلب منه أن يضعها في الخزانة.

ضحك المسن "يو": يا فتى، قبل بضع سنوات كنّا نتولى مسؤولية حفظ الساعات، أما الآن فهذه ساعات إلكترونية، وعلى ما يبدو الأمر لا يستحق.

حدق الشاب في المسن قائلًا: الأمر لا يستحق؟! ماذا لو سُرقت؟ ستتحمل المسؤولية؟

أعطاه المسن "يو" منشفة ساخنة وقال: "يا أخي، تكلم بهدوء، وإذا كنت حقًا تشعر بالقلق فأعطها لي." سلمه الشاب الساعة وقال: كما ترى، ليس بها أي عيب.

أومأ المسن برأسه موافقًا، ثم ارتدى الساعة في يده، واستدار ليكمل عمله.

أمسك الشاب بالمسن "يو" قائلًا: مهلًا، لقد أعطيتك الساعة لتحافظ عليها، وعليك أن تعطيني إثباتًا على ذلك، وإلا كيف يمكنني أن آخذها منك ثانية؟

التفت إليه المسن ولم يستطع التفوه بكلمة واحدة من شدة غضبه، لكن كل مَن رأى وسمع هذا الحوار أقر أن "هذا الشاب قد فقد حقًا شيئًا ثمينًا"!

* * *

التحكم عن بعد

قبل شهر، خسرت، أنا رئيس تحرير مجلة "الوسادة والقبضة"[19******)]، عملي فجأة، وصادرت الجهات المعنية أرباح قسم التحرير كافة، تم وقف كود تسجيل النشر، وتم تغريمي عشرين ألف يوان، الأمر الذي جعلني أفقد ثروتي جميعها، وهوى بسمعتي إلى الحضيض.

كان عليَّ أن أجد طريقًا آخر، عليَّ أن أهجر الأدب وأتجه للعلوم، ويكون لي اختراعات علمية، بل أسجل أيضًا براءات اختراع.

أنا رجل متقد الذكاء، أريد أن أفعل شيئًا مختلفًا..

منذ عشرة أيام توصلت بعد جهد مضنٍ من التفكير إلى اختراع جهاز للتحكم عن بعد، سيكون ابتكارًا مذهلًا، ولن أخفي عليك، سيكون ابتكارًا بسيطًا سيُدرُّ عليَّ ربحًا عظيمًا، فمن خلال رأس مال صغير يمكنني أن أجني الذهب والفضة، والتلفاز الملون، والمبرد، وغيرها من السلع والاحتياجات، وهذا غير الآلاف والآلاف من العملات الورقية، وإن فزت بيانصيب كرة القدم لألمانيا الغربية، فمن المحتمل أن أنضم لقائمة المليارديرات في العالم.

ولكن سيكون جهازًا للتحكم بماذا؟

للتحكم بفتح وغلق جهاز الفيديو والتلفاز والمروحة عن بعد؟ لا.

سيكون ريموتًا للطائرات بدون طيار والقنابل المضادة للغواصات؟ بالتأكيد لا.

إذن سيكون للتحكم بماذا؟

هل رأيت من قبل ماكينة سحب التذكرة الرابحة وقت الإيداع في البنوك؟ إنهم يستخدمون كرة تضيء لونًا فضيًّا بداخلها عشرة نرود من رقم "0" إلى رقم "9"، وتقوم السيدة الجميلة المكلفة بعمل السحب بإدارة هذه الأداة عدة مرات جهتي اليمين واليسار، مثلما يدير بائع الفشار طاعن السن ماكينته، ثم تتوقف لترى أي نرد قد سقط في أنبوب الماكينة.. وتستمر في تحريك هذه الماكينة، فيكون هناك عدد كبير من الفائزين، وعدد آخر ليس بالقليل ممن لم يحالفهم الحظ.

ما اخترعتُه هو جهاز يتحكم عن بعد بتلك الماكينة.. في البارحة كان احتفال البنك بإعلان أسماء الفائزين، فذهبت وأحضرت جهازي خفية، وجلست مع الجلوس، وحفظت رقم إيداع مبلغ مائة يوان الخاص بي، وحفرته على قلبي، وهو 01988.

وفي أثناء فعاليات السحب جربت جهازي وضغطت زر "0" في منتصف الريموت، وبالفعل خرج رقم "0" من الماكينة، وضغطت مرة أخرى على زر

رقم "1" فخرج رقم "1"... حتى حان وقت إعلان الرقم الفائز، فرفع الموثق صوته بإعلان "الفائز بأعلى جائزة هو رقم 01988"..

لقد فزت!.. نجحت التجربة!.. اقتنصت مبلغ عشرين ألف يوان.. نفس المبلغ الذي خسرته!

لكن بمجرد أن عدت إلى المنزل شعرت بأني لست على ما يرام.. في البداية لم أستطع أن أفتح عيني، ثم تُبِعَ بتعب جسمي كله والكسل والخمول الكلي.. ربما يكون ذلك بسبب أن تلكَ التجربة استنفدت رأسي وتفكيري وبسبب الحماس الزائد بعد الفوز! لحسن الحظ أن زوجتي طبيبة، تعرف ما يجب أن أتناوله من دواء لعلاج مرضي.. أخرجت زوجتي ورقة نقود ووضعتها أمامي، فَفُتِحَت عيناي على الفور، ثم قالت لي: تُسمَّى هذه الوصفة الشعبية "تفتح العين عندما تحس المال"!

ثم أخرجت ورقة نقود بخمسين يوانًا وألصقتها على جبهتي مثل الضمادة؛ فاستعدت نشاطي فجأة، ثم قالت وهذه الوصفة السرية تسمى "يستطيع المال أن يصل للروح".. ولكن ما إن أعادت المال إلى حقيبتها غَمَضت عيني وعُدت لكسلي.

فهل من الممكن أن يكون ثمة جهاز ما متحَكّما بي؟

***

التبادل

ـ شياو ما، من فضلك تعالَ اليوم، لديَّ بعض الأفكار أرغب في تبادلها معك.
ـ سيدي تشانغ، مدير المصنع، أنا لديَّ أفكار أريد أن أناقشك فيها.
ـ سأنبئك الخبر، إنني سأتقاعد قريبًا جدًا، وبناء على مقترحي فسوف أعد الأمر لتتولى منصبي، وهذا الأمر على ما يبدو سيثير اعتراضًا شديدًا؛ فهناك بعض الزملاء لديهم فكرة مسبقة عنك..
ـ سيدي المدير، كيف قررت التقاعد بهذه السرعة؟ فيمكنك العمل لعشرين سنة مقبلة!
ـ السن لا ترحم أحدًا، ولا أخفيك سرًّا، أنا أريد التقاعد، ولكن قلبي لا يطاوعني على هذا الشأن.
ـ نعم، فالمصنع لا يزال لديه الكثير من الأمور التي تنتظر منك البتَّ فيها.
ـ هذه الأمور سوف أعهد إليكم القيام بها أنتم أيها الشباب، فأنت حقًّا كفء لهذا.
ـ سيدي المدير، ما دمتَ عهدتَ إليَّ بهذا العمل فسأبذل أقصى ما في جهدي، وسأكرر تحقيق الرقم القياسي الذي سبق أن حققتَه أنت من ممتلكات ومدخرات للمصنع.
ـ حقًّا، فقد أضيف للمصنع الكثير من الممتلكات في السنوات السابقة، ولكن لا تكن مبذرًا، فتلك السيارة المرسيدس، التي اشتريناها مؤخرًا فئة "بينز"، يجب أن تحافظ عليها جيدًا؛ فلأجل تلك السيارة كاد اسمي أن يدرج في صفحات الجرائد.
ـ سيدي المدير، هُناك مقولة شعبية تقول "لا يشيخ المرء إلا عندما تشيخ قدماه"، أما تلك السيارة فما زالت...
ـ أفراد الأسرة كُثر والممتلكات عظيمة، المبنى الكبير في المجمع السكني الجديد على وشك الإتمام، وعند توزيع العمال على الغرف، يجب مراعاة أصحاب المآثر والأفضال.
ـ سيدي المدير، لا تقلق بشأن هذا؛ فسأتعامل مع الأمر جيدًا، بما في ذلك من تسلم الأبناء لمهام الآباء، وتحويل إقامات العمال الزراعية إلى مدنية، و... على كل حال، اطمئن تمامًا؛ فستسري الأمور على خير حال.. تعالَ نتناول معًا ما تيسر من الطعام، ولنحتسِ قليلًا من الخمر، سنحتسي خمر "ماوتاي"، تلك الزجاجة التي أهديتني إياها من قبل.
ـ شياو ما، أنا لستُ ثملًا، ولا أريد أن أسكر، أنا فقط أريد أن أتبادل معك أمرًا.

ـ سيدي المدير، لا تتردد أن تطلب ما دام طلبك لديَّ.
ـ فلنتبادل إذن.
ـ نتبادل ماذا؟
ـ العمر.
ـ العمر؟!

***

إغضاب لي باي

السيدات والسادة، قبل أن تقرؤوا هذه القصة أود أن أتلو عليكم مقالة من كتابتي، فهل تسمحون لي بذلك؟ كتبت هذه المقالة تلبية لدعوة مجلة ما؛ فقد اتصلوا بي وألحوا عليَّ للكتابة، وبعد ثلاث محاولات أو أربع التقطت قلمي.. حسنًا، يخاف الناس الشهرة مثلما تخاف النعجة أن تسمن! لقد شعرت بعد نشر هذا المقال بأني قد أتقنت كتابته، وباستخدام جملة عصرية أقول: "لقد صعدت درجة جديدة من السلم".. حسنًا، ما دمتم ترغبون في الاستماع فلتعذروا سوء أدائي:

"ملأ ضوء القمر الحديقة، وأنار الجبل البعيد والغابة والنهر بضوئه الفضي، وكان الهدوء يعم المكان بالخارج، لا نقيق حشرات أو نباح كلاب، حتى الرياح لم تكن مثل الصباح تتغلغل داخل غابات الخيزران، ولم يعد صوت ذلك الصفير الحاد موجودًا.. كنت أتقلب في فراشي وحيدًا، وبقيت لمدة طويلة أحدق في السماء وعمقها وأنا أزداد شعورًا بالفقدان والوحدة".

حسنًا، بذلك قد أنهيت قراءة أول فصل، لقد استعدت تذكره الآن، إن هذه الكلمات الطويلة التي تتعدى ألف كلمة هي في الواقع مقالي المترابط! فلأكمل لكم:

"فانهال ضوء القمر الصافي مضيئًا ذلك العالم البارد في تلك الليلة الساكنة، وظن أنه من الممكن أن تكون قد أمطرت طبقة كاملة من الثلج.. لا، إنها تبدو مثل طبقة صقيع".

ما بكم؟! هل تريدون الرحيل؟ إنني لم أكمل قراءة هذه المقالة بعد.. حسنًا، حتى إن انتهيت، فما زال هناك فصلان بالأسفل.. ماذا؟ تريدونني أن أرتقي بأسلوبي؟! عذرًا، هل تريدون أن تعلموا كم كسبتُ من كتابة هذه المقالة؟ لو كنا في الماضي فلا أستطيع الجزم، ولكن الآن ما أكتبه هو من فئة اقتصاد السلع الأساسية.. فليعلم الجميع أن هذه المقالة ذات الأكثر من سبعة آلاف كلمة يجب أن يكون ثمنها مائة وثمانية عشر يوانًا.. أترون؟ تأثيرها الاقتصادي يعدُ جيدًا.. بهذه المناسبة سأقول طرفة: تسمى المقالة التي كتبتها "التفكير خلال ليلة هادئة"، ولو جعلنا الشاعر الكبير لي باي يكتب هذه المقالة لأنهاها في أربع جمل مكونة من اثنتي عشرة كلمة، فكم من المال كان سيحصل عليه؟ ألن يستطيع حتى أن يشتري الخمر؟ ها ها ها..

* * *

موديل

الشهر الماضي، قدم معلمي إليَّ إحداهن لتشاركني الحياة، بعد أن التقينا، دعوتها إلى منزلي لتراه.

دفعتُ باب المنزل، وقلت لها مشيرًا إلى أثاث المنزل المطلي بالشمع: "انظري، هذا هو منزلي!"، أخذت تنظر ثم ابتسمت ولم تتفوه بكلمة.

أكملت قائلًا: "لقد بذلت جهدًا كبيرًا لعام ونصف العام من أجل وضع أحدث الأثاث هذه الغرفة"، كان كلامي يحمل في باطنه معاني أخرى؛ إذ أردت أن أخبرها بأني أمتلك كفاءة عالية.

جلست الفتاة على الأريكة، لكنها لم تشرب الماء ولم تأكل الحلوى، ثم مر وقت طويل حتى قالت: ولكن ينقُص المنزل خزانة كتب.

بادرتها موضحًا: إني لا أملك أي كتب سوى سجل الإقامة (كُتيب الإقامة)، ولكن إذا كنتِ.. فما زال لدي خشب.

فجأة وقفت الفتاة، واقترحت أن نذهب ونتجول معًا في الشارع.

وصلنا إلى شركة أثاث منزلي، ووقفنا أمام واجهة الشركة، أشارت الفتاة إلى الواجهة وقالت: "انظر"، كان بداخل واجهة العرض تصاميم مستوردة لأثاث منزل من الخشب المحفور، وعلى ما يبدو من شكل وجودة الخشب أنه لا مثيل له، وكان جالسًا بواجهة العرض أيضًا موديل لرجل، لا أعلم مما صُنع، مرتديًا بذلة على الطراز الغربي وربطة عنق، بمجرد النظر إليه ستعرف أنه هو مالك معرض الأثاث.

قلت في نفسي: يا إلهي! إن طلبات هذه الفتاة باهظة الثمن، كيف سأبتاع للمنزل أثاثًا كهذا؟ ولم أكن أتوقع ما قالت: إن أثاث هذا الموديل أفضل من أثاثك، لكن للأسف الشديد، ينقصه الروح الداخلية، ولا يجري الدم في عروقه، وأيضًا ينقصه الطموح.. فمثل هذا الموديل يوجد أيضًا خارج واجهات العرض، فمنه الرجال ومنه النساء.. إلى اللقاء.

أنهت كلامها، وأدارت رأسها وذهبت!

***

الرياح

أحدهم يطرق الباب.

إنه وو شي، رئيس مجموعة الصغيرة لتطوير رافع السيارات، دخل ليتحدث بكل وضوح قائلًا: "السكرتير لونغ، لقد اطلعت على مذكرة الملاحظات التي كتبتها، فنحن نعلم أن هذا النوع الجديد من رافع السيارات في حقيقة الأمر هو من تصميم السيد شياو لين، ولكن من المعروف أن يدًا واحدة لا تصفق، فهل كان سينجح شياو لين في ذلك الأمر دون تعاون أفراد المجموعة الأربعة كلهم؟ سيد لونج، عليك بمدح الأربعة جميعهم، القلم في يدك يا سيدي، فأرجو منك الاهتمام بذلك الشأن".

أحدهم يطرق الباب.

إنه لو يي رن، رئيس قسم ورشة العمل الخاصة برافع السيارات، دخل قائلًا: "سيد لونغ، إن المقالة التي كتبتها للجريدة هل تشعر فيها بالحيادية والإنصاف؟! وإن كان كذلك فكيف تذكر واحدًا وتترك الألف الآخرين؟ فنحن العاملون اذا قرأنا الجريدة ووجدنا أنك تمدح فقط السيد شياو لين أو تمدح مجموعة واحدة بعينها فإننا لن... إن هذا العمل من إنجاز الجميع وليس منحصرًا في شخص واحد"، وبعدما أنهى حديثه أخذ ورقة ليكتب أسماء عشرين عاملًا.

أحدهم يطرق الباب.

إنه تشي وان يي، مدير ورش العمل الخاصة برافع السيارات، دخل قائلًا: "سيدي لونج، عليك أن تفهم أنه لابد من الحرص والتعقل في أثناء مدح شخص واحد بعينه، ألم تكن تعلم أن العمال جميعهم في الورش الخمسة مثالًا للعامل الكفء؟ وبالإضافة لذلك، كيف... إنك إن أردت المدح فعليك أن تشمل الكل بمدحك، أما اذا أردت انتقاد أحدهم فعليك بذكره هو خاصة"، وقبل أن يغادر ترك مذكرة بها أسماء العاملين بورش العمل كافة.

أحدهم يطرق الباب.

إنه وو تشيونغ دا، وهو مدير مصنع أدوات السيارات، قائلًا: "شياو لونج، ستعود غدًا للعمل بالشركة، فهذه المرة بذلت مجهودًا مضنيًا لإجراء مقابلات مع القاعدة الأساسية لعمال الورش، أما فيما يتعلق بإخراج التصميم الجديد لرافع السيارة، فهو نتاج كفاح كل شخص في مصنعنا، في المجالات كافة، وبالطبع هذا لا يمكن أن ينفصل عن الإدارة الحكيمة للشركة.. شياو لونغ، عليك أن تذكر مدير شركتنا في تلك المذكرة".

أحدهم يطرق الباب.

فتحت الباب، ونظرت حولي، لا يوجد أحد، إنها.. إنها الرياح.

***

الجميلة "باي لي لي" لم تحسن التصرف

تعد "باي لي لي" هي أجمل فتاة شابة كما نعرفها جميعًا في هيئتنا، فيا ترى إلى أي درجة جمال هي جميلة؟ بغض النظر عن امتلاكها لعيون واسعة مفعمة بالحياة كتدفق أمواج البحار، وغمازاتها الساحرة الجاذبة للأنظار، إذ يكفي الحديث عن شيء واحد وهو صورتها المطبوعة على ظهر غلاف إحدى المجلات.

كما أن ملابسها دائمًا ما تُضفي لونًا خاصًا على ملامح وجهها وتبرجها الذي يعطيها مظهرًا براقًا، وذاك الفستان الأخضر ذو الأكمام الخفاشية[20*****) الرائعة، وذاك البنطال الضيق العاصر قدميها بشده كعصر الفاكهة للحصول على عصير، مستقيما كصفحات الورق، وزوج الأحذية الجلدية العالية الذي يقال إنها ابتاعته من باريس.

"باي لي لي" بنت جميلة المظهر أنيقة الثياب، إلا أن هناك شيئًا واحدًا، وهو أن خصرها ومفاصلها وعضلات جسدها دائمًا ما تؤلمها، فكل يوم سبت تذهب إلى العيادة للتداوي ببعض اللاصقات الطبية لتخفيف الألم، وكل جلسة تحتاج إلى حوالي عشر لاصقات، وفي أحيان أخرى تحتاج إلى اثنتين أو ثلاث وعشرين لاصقة، لذلك يطلق عليها بعض الفتيات اللاتي يحسدنها بعض الأقاويل مثل: "ما فائدة جمال باي لي لي إذا كان جسدها ممتلئًا بالبقع والرقع؟ (يقصدن نتيجة اللاصقات الطبية)، فهي ذات وجه ملكات جمال وجسد مريض"، كما أطلقن عليها "شبيهة شقيقة لينغ داي يوي".

وعلى الرغم من كل هذا الكلام فإن معظم الفتيان والفتيات لا يصدقون هذه الأشياء.. نعم، فالجميلة باي لي لي ذات البشرة الوردية والشعر الأسود اللامع ومشيتها السلسة كأنها تمشي على الهواء ورقصها المرن، وعلى نحو خاص عندما تنتهي من عملها متجهه إلى سيارتها الذاهبة إلى "فنغ هوانغ" مبتعدة، ولكن أينما تذهب كان يلاحقها الفتيان.

ولكن معذرة، لماذا يصاحبها الألم بلا انقطاع على الرغم من وضعها للاصقات؟ ولماذا تضع دائمًا هذه اللاصقات الطبية المسكنة للألم؟ هل لأن العلاج المجاني لا يحتاج لإنفاق المال فبعد الذهاب إلى المنزل يبطل مفعولها؟

إنه حقًا للغز محير!

ولحل هذا اللغز، قامت الفتيات بنية خفية خبيثة بدعوة "باي لي لي" للذهاب معهن للسباحة، وبعد هذه المغامرة سيتأكدن ما إذا كانت "باي لي لي" تضع اللاصقات الطبية على جسدها أم لا؟ وأجمعت الفتيات بعد هذه الرحلة أن باي لي لي لا تضع أيًّا من تلك اللاصقات، ومنذ ذلك الحين زاد عدد المهتمين بـ"لغز اللاصقات الطبية المسكنة للألم".

بهذه الطريقة أصبح المتحمسون لمعرفة الأمر أكثر فأكثر، وطبعًا لم تشعر "باي لي لي" بأن كل من حولها يريدون معرفة الحقيقة كما لو أنهم "شيرلوك هولمز"، وفي حين أن الجميع كانوا ينظرون إليها بترقب فإنها كانت تشعر أنهم معجبون بها، ولذلك اعتادت كل سبت الذهاب إلى العيادة لوضع اللاصقات.

لقد تم حل لغزها أخيرًا.

وفي إحدى الحفلات الراقصة، وبينما كانت تدور بسرعة وهي ترقص "رقصة الفالس"، لم تحترس؛ فالتوى كاحلها، ولأنها كانت ترتدي حذاء ذا كعب عالٍ صار الألم لا يُحتمل، فجلست على الأرض لتفرك كاحلها، وفي هذه الأثناء اكتشف شريكها في الرقص وجود قطعة على شكل اللاصقة الطبية على الأرض داخل الحذاء.

وبعد إجراء المزيد من التحقيقات، اكتشف أن غرض "باي لي لي" من فعل هذا هو قلقها من أن يتمزق حذاؤها العالي تأثرًا بذلك أخذت تشرح لصديقاتها ولابنة عمها الصغرى هذه التجربة، فاللاصقات الطبية بالتأكيد كانت هي الداعمة لها!

***

نافذة تطل على الشارع

"أيها المارة، توقفوا من فضلكم، (توقف المارة) تمرون كل يوم على نافذتي مسرعين في الذهاب والإياب ولم نتواصل من قبل مطلقًا! اقترب المارة من النافذة. انظروا، أتعلمون ماذا يشبه هذا الستار؟ قال أحد المارة: "تشبه ستار المسرح؟"، إجابة جيدة.. وإطار النافذة، ماذا يشبه؟ (قال مار آخر: "يشبه الغلاف الخارجي للشاشة التليفزيونية!") صحيح جدًا، فهذه النافذة أنشر من خلالها الحضارة الروحية، وما يلي إعلان مُسبق عن جزء من برامج هذه النافذة! ساد النشاط خارج النافذة. احتفالًا بالذكرى الأربعين للانتصار على الفاشية، سيبدأ هذا البرنامج يوم الاثنين المقبل في تمام الساعة الثامنة مساءً، رفع يده، وساد الهدوء خارج النافذة.

سنعرض عليكم مسلسلات تليفزيونية من المؤكد أنها ستحظى بإعجاب الجميع (التمعت أعين الكثيرين شوقًا) مسلسل "أبطال لوليانغ" فقال أحد المارة: "آسف، سأشاهد يوم الاثنين مسلسل "أسطورة أبطال 'الكوندور' في المنزل"، ويوم الثلاثاء المقبل سيعرض مسلسل "لو تشي تشن" ومسلسل "لين تشونغ" على محطة شاندونغ التليفزيونية، ثم سيعرض... وحينها ازداد لمعان البريق في عيون الجماهير الغفيرة "هو سان نيانغ". فقال أحدهم: "إن قصة الملكة سان نيانغ عظيمة، ولكن لا تضاهي قصة الملكة وومينانغ"، وستعرض النافذة عليكم فيلمًا روائيًا جديدًا يوم الأربعاء المقبل.. انتبهوا، إنه فيلم روائي جديد، حينها كان التصفيق يدوي كالرعد حتى غطى على صوته، فيلم "المدير والفتاة". فقال أحد المارة: "استطاع النصر على شو ون تشيانغ وفنغ تشنغ تشنغ؟". ماذا؟ ألا تحبون مشاهدة فيلم روائي جديد؟ إذن سأعرض عليكم فيلم روائي منذ الخمسينيات، وهو فيلم "السيطرة على جبل خوا" فقال أحد المارة: "لقد تم السيطرة على جبل خوا منذ قديم الأزل، ونحن الآن "في طريقنا إلى جبل خوا من جديد!"، لا تغادروا، لا تغادروا؛ سأعرض عليكم يوم السبت المقبل مسرحية تهز القلوب، ممتلئة بالمشاعر، تثير الدموع، مسرحية "بحر أويانغ"، فقال أحد المارة: "مسرحية 'الخالدون يعبرون البحر' أفضل كثيرًا من مسرحية 'أويانغ'، ها قد غادر الجميع.

حينها قال أحد المارة الذي لم يغادر: "لقد غادروا، ولكننا لن نغادر"، لكن لماذا غادروا؟!".

***

عابد الكتب

شا يه شين كاتب مسرحي، ما إن يمر بمتجر يبيع الكتب فلا يسعه إلا أن يدخله، في كل مرة يشتري فيها كتابًا كان ينحني له إجلالًا واحترامًا قبل وضعه على الرف، كأحد أشكال الترحيب به.

كان منزله به أكثر من عشرة آلاف كتاب، إلا أن الكتب التي تتعلق بالأعمال الدرامية كان لها النصيب الأكبر، سواء القديم منها أو الحديث، الصيني منها أو الأجنبي، حتى إنه ألصق ورقة بيضاء على خزانة الكتب مكتوب فيها: "أصدقائي الأعزاء، الرجاء ممنوع استعارة أي كتاب بداخل هذه الحجرة، وبرجاء الاحتفاظ بأي تعليقات لأنفسكم".

وذات مرة ألح عليه أحد أصدقائه المقربين أن يستعير كتابًا، ولكنه قابل طلبه بالرفض، فانزعج صديقه بشدة ثم انصرف.. شعر الكاتب بأن ما فعله لا يصح، فذهب على الفور لمتجر الكتب واشترى كتابًا وأهداه لصديقه.

وفي سنة ما تزوج صديق له، فاشترى له مجموعة من الكتب، كانت عناوينها "الحوار بين الزوجين منساب كالماء"، "المشاعر الرقيقة لا تُكلِّف كثيرًا"، وعندما رأت الزوجة الهدية قالت متعجبة: "وهل يهادون الزواج بالكتب؟!"، أجابها عابد الكتب هذا: "إن الكتب حياتي، وأنا أهديكم حياتي، فهل ما زالت هديتي لا تستحق؟".

كان شا يه شين يبحث دائمًا عن مكان قصي منعزل ليكتب أعماله المسرحية، وعندما يصل للمكان، يطلب كعادته من موظف الاستقبال بهذا المكان أن يحضر له دراجة، وعلى هذه الشاكلة كان يقضي وقت فراغه في التجول بمتاجر الكتب.. وفي يوم ما اشترى كتاب "مقتطفات من شعر تشاو يون سونغ" من متجر للكتب القديمة، ودفع فيه ماوًا واحدًا، كان قد صدر عن شركة تشونغ هوا للكتب عام 1937 م، والغلاف الأمامي عليه إهداء الفنان شو بي هونغ: "مع أطيب تمنياتي، إهداء من أخيك الأكبر بي هونغ الموافق 6/12/1927م"، الغلاف الخلفي للكتاب رباعية على الوزن السباعي، أيضًا بقلم الفنان شيوي بي هونغ يقول فيها: "دائمًا ما يحمل الليل من الغسق حتى السحر قلق وعبق الذكريات الجميلة، وجمال المنظر يجعلك تظن أنك تحلم، أو ترى سرابًا".

إن الإهداء والشعر المهدَى أعلى قيمة من الكتاب ذاته؛ فغمرت عابد الكتب فرحة عارمة.

وفي السنوات الأخيرة، كان عابد الكتب دائمًا يجوب البلاد، فكل بلد يصل إليه لا بد أن يذهب لمتجر الكتب فيه.. ومنذ عامين ذهب لمكتبه بواشنطن في أمريكا، وفي أثناء تجوله بها حمل إليه موظف الاستقبال مؤلفاته المسرحية

جميعها، وأعطاها له، فما كان من شا يه شين إلا آن أصابته الدهشة، وعند عودته لبلده، كانت الكتب كثيرة وثقيلة، فشحنها لبلده.

يقول عابد الكتب لزوجته على سبيل الدعابة: "عندما توشك حياتي على الانتهاء، إذا أشرت بإصبعين، فهذا لا يعني إنني أريد المزيد من نبتة الأسل، وإنما أعني أنه لا يزال هناك كتابان لم يسعفني الوقت لقراءتهما".

***

وهذا أيضًا شيء بسيط

لقد تركت فيّ رواية "حادثة بسيطة" للكاتب لو شون أثرًا وانطباعًا عميقًا، وخلال سنوات عديدة مضت، لطالما حلمت أن أصبح مثل "أنا" بالرواية، وأن ألتقي بعامل يسحب عربة وجسده كله يملؤه الغبار، وفجأة يكبر ويعلو، فكلما ابتعد خطوة كبر، حتى كان علي أن أرفع بصري لأنظر إليه، على الرغم من أن كل ما يفعله شيء بسيط، لكنه بالنسبة لي يحمل معاني كثيرة، إذ منعني من الوقوع في فخ الطباع السيئة، إلا أن أشخاصًا كهؤلاء ومواقف كهذه من الصعب أن نصادفها في حياتنا، وطباعي السيئة لم تتغير، ومؤخرًا تفاقم الأمر حتى وصل إلى الشكوى، بل...

لكن، ما زلت أبذل قصارى جهدي في البحث.

بالأمس، بعدما أنهيت عملي، تناولت الطعام بمفردي في أحد المطاعم، مقدار صحنين من الأرز، وأضفت إليهما نوعًا من الخضار وصحن حساء، احتلت الأطباق الثلاثة جانبًا من سطح طاولة الطعام، بينما احتل طالبان جامعيان كانا يرتديان زيًّا عليه شعار الجامعة الجزء الأعظم من الطاولة، فعلى الطاولة حقيبتا كتب، وزجاجتان من الجعة، وكأسان، وأربعة صحون من الخضار المقلي، ودجاجة محمرة.

"تعال لتأكل معنا". قالها طالب جامعي مرتديًا نظارة بلهجة نموذجية فصيحة يدعوني لتناول الطعام معهم.

"لا داعي للتكلف، لنأكل معًا". قالها الشاب الثاني أيضًا بود شديد. فقلت لهم مادحًا بسخرية: "أنتما حقًا مترفان".

فقال الشاب الذي لا يرتدي النظارات: "لم نكن بهذا الترف والسخاء منذ وقت بعيد".

- هل تحتفلان بعيد ميلاد أحدكما؟

-بل إننا سعداء أكثر من لو كنا نحتفل بعيد ميلاد أحدنا.

- أستسافران إلى الخارج للدراسة؟

- كلا.

وهل هناك ما يستحق هذا الاحتفال أكثر من أن تسافرا للدراسة؟

ضحك الاثنان، وقال الشاب صاحب النظارات: نيران الحرب التي اشتعلت ثماني سنوات ستنطفئ.

هززت رأسي مُعبرًا عن عدم فهمي لما يقوله.

فأعقبه الشاب الآخر الذي لا يرتدي النظارات قائلًا: ستنتهي حرب العراق وإيران، ألا يستحق هذا الاحتفال؟!

لم أتوقَع أن الصين ما زال بها أناس مثل هؤلاء!

فجأة شعرت بشعور غريب وغير معتاد، فالقوة التي تنبع من هذا الاحترام والتبجيل يمكن أن تُخرج لنا من طيات الجلباب الجلدي أحدًا كالعامل الذي يسحب العربة!

لم أنم تقريبًا ليلة أمس، ولا طوال نهار اليوم.. لم أتذكر جيدًا الأماكن التي مررت بها من قبل، والأشياء التي فعلتها، ولم أستوضح تمامًا ما ينشغل به الآخرون (أرى الناس جميعهم منشغلون)، إلا أن هذا الشيء البسيط دائمًا ما يتراءى أمام عيني، يعلمني الخجل، ويدفعني لفتح صفحة جديدة مع نفسي، ويزيد من شجاعتي وأملي!

***

لكل حدث خلفية خاصة

ـ الزملاء الصحفيون، في الحقيقة ليس لدي شيء جيد لأقوله، رجاءً لا توجهوا المسجلات نحوي، ولا داعي للتدوين..

حينها، لم أكن أتخيل أن هذا من أجل حماية روابط الصداقة بين الشعبين الصيني والماليزي، حقيقةً لم أتخيل ذلك!

الأمر كان في غاية البساطة.. أول أمس، بعدما ترجلت عن سيارة النقل الليلية، وجدت حقيبة جلدية كانت ملقاة على الأرض، فتحتها لأنظر ما بها، فكان كل ما بها عملات يتداولها الأجانب.. حينها كنا في منتصف الليل، فلم أستطع الوقوف بمفردي في الشارع أنتظر صاحب الحقيبة المفقودة، فذهبت على الفور إلى نقطة الشرطة المحلية.. عرف رجل الشرطة هذه النقود، وقال إن المبلغ أكثر من عشرة آلاف دولار.. في الحقيقة، لم أرَ في حياتي قط أموال كثيرة كتلك، ولن أخفيك سرًّا، حينها كان الخوف يملأ قلبي، فكنت أريد أن أعود لمنزلي على الفور، إلا إن رجل الشرطة أبى أن أنصرف دون أن أترك اسمي كاملًا، فما كان مني إلا أن أطلعته على بطاقة هويتي.. وصباح اليوم علمت أنهم استطاعوا أن يصلوا لصاحب المفقودات، وكان الفضل كله لمجهودات رجال الشرطة.. وقبل قليل علمت أن صاحب الحقيبة تاجر ماليزي، فكيف لي أن أفكر أول أمس في الحفاظ على الصداقة بين الشعبين الصيني والماليزي؟

ـ يبدو أنك تريد مني أن أقول ما لا يمكن أن يقال.. حسنًا، سأخبرك سرًّا.. هذا السر لم أخبر به أحدًا من قبل..

يا إلهي! كيف سأتكلم؟ من الأفضل ألا أتكلم؟.. حسنًا، سأتكلم.

أمي عاملة نظافة، تنظف الشوارع والطرقات منذ سنة التحرير، أي منذ أربعين سنة، إلا أنها أصبحت لا تقوى على الحركة فتقاعدت العام الماضي.. على مدار أربعين عامًا كنست أمي كمًّا هائلًا من القمامة يمكن أن يكوِّن جبلًا، وخلال الكنس والتنظيف كانت تعثر على العديد من النقود المفقودة من المارَّة.. وكان يوجد سجلًا للمفقودات العامة بوحدة عمل أمي، سلَّمت أمي خلال تلك الأعوام الأربعين نحو 148 ساعة يد، و17 سلسلة من الذهب، و36 خاتمًا، و266 حافظة نقود، غير العملات النقدية الورقية والفضية التي لا حصر لها.. وذات مرة... هل يمكن أن أقف بالشرفة قليلًا ثم نعاود الحديث بعدها؟

وفي إحدى المرات، وجدت أمي على قارعة الطريقة مولودة خرجت للدنيا للتو.. تلك الطفلة هي أنا.. إني أحب أمي الحالية.. لكن في بعض الأحيان... حسنًا، هل تفهمت؟ لا تريد مني أن أقول شيئًا آخر، أليس كذلك؟

* * *

أفسح له الطريق

آخر مرة سرق فيها كانت في حافلة عامة. في هذا اليوم كانت الحافلة مكتظة حين مد يده إلى جيب امرأة عجوز.. أحدهم تنازل لتلك المرأة العجوز عن مقعده، أما هو، فدس نفسه وسط الحافلة، حتى أصبح في قبالة النافذة وأخذ يصفّر وكأن شيئًا لم يكن.

وقد كان ما توقّع، فالمرأة العجوز قد عرفت أنها سُرقت عندما أرادت دفع ثمن التذكرة، وما إن اكتشفت ذلك حتى صاحت وبكت بأعلى صوت.

أوقف السائق الحافلة على جانب الطريق، ونبَّه محصل التذاكر على الركاب جميعهم ألا يفتح أحدهم الباب، ثم جاء ووقف أمام العجوز وسألها باهتمام بالغ: يا ستي، هل أنت متأكدة أن حافظة نقودك كانت معكِ عندما استقللت الحافلة؟ ردت العجوز: أنا دائمًا أحمل المال في جيبي طوال الطريق. ثم قالت وهي تبكي ويسيل أنفها: لقد ذهب حفيدي إلى النهر ليصطاد، ثم جاء إليَّ بالسمك الذي أخذته وبعته في السوق لأربح 14 يوانًا و8 جياوات(21******) لففتهم في منديل.

صاح كل مَن في الحافلة بصوت واحد: "حسنًا، إن المبلغ ليس كبيرًا"، ولكنه بكى متظاهرًا بالحزن حتى يخفي إحساسه بالخطر؛ إذ هو مَن سرق هذا المبلغ الهزيل، وباستمرار كان يردد: حسنًا.

فأخذ محصل التذاكر منديلًا ليمسح دمع العجوز، وقال لها: "لا تبكي على المال المفقود؛ فإني لن أطالبك بثمن التذكرة". ردت المرأة: "لكن حفيدي يريد هذه النقود ليتبرع بها إلى المناطق المنكوبة"، قالت هذا ثم انخرطت في بكاء أكثر حدة. لم يعرها المحصل اهتمامًا حينها. ولكن نهض شخص وقال: إذن فلنفتِّش واحدًا واحدًا حتى نجد هذا الشرير.

وفي الحال علَّق آخر قائلًا: صحيح، من المؤكد أن السارق ما زال على متن الحافلة، لنذهب إذن إلى مصلحة الأمن العام لكي تفتِّش الركاب ولم يعترض أحد من الركاب على الرغم من أن عددًا كبيرًا منهم على عجلة من أمرهم، فمنهم مَن يريد الذهاب للعمل، ومنهم مَن يريد الذهاب للمشفى ليفحصه الطبيب، حتى إن منهم مَن يريد اللحاق بالقطار.

ولكن السائق وقف أمام الركاب وعبَّر عن رفضه قائلًا: "رفاقي الركاب، الجميع على عجلة من أمره، بالإضافة لذلك فإن كلًّا منا معه المبلغ المسروق نفسه (14 يوانًا و8 جياوات)، علاوة على أن المبلغ ملفوف في منديل، وكلها تدل على أننا لن نتوصل إلى السارق، لذلك..."، وما إن انتهى من الكلام حتى خلع

قبعته ووضع عملة ورقية بقيمة 5 جياوات، وأردف: "ليتبرع كل منكم بجياو أو أكثر للسيدة وحفيدها".

وظلت القبعة تتناقل بين أيدي الناس، فمنهم مَن كان يضع ماوًا واحدًا (جياو) أو اثنَين، ومنهم مَن كان يضع يوانًا أو اثنين.. لدرجة أن بعض الأطفال قالوا لأمهاتهم: "أمي أنا لا أريد لعبة؛ لأني أريد أن أتبرع"، وكانت الأم تضحك وتعطي طفلها بكل سعادة كمية كبيرة من النقود تضعها في يديه الصغيرتين.. وتسابق المتبرعون في وضع أوراقهم النقدية في القبعة. وما إن وصلت القبعة إلى يديه حتى ارتبك وتردد، وفجأة أخرج المال المسروق، وقال بصوت أجش مثبتًا رأسه: "أنا السارق! هلم اضربوني! بلا هوادة أو شفقة!".

وانتظر التوبيخ أو البصق أو اللكمات، إلا أن شيئًا لم يحدث من كل هذا، سوى أن أخذ واحد الناس المال والقبعة من يديه ليضعهما في يدي العجوز. ورفع رأسه لينظر باب الحافلة مفتوحًا، ولكن أحدًا لم ينزل، وكان الجميع يسترقون النظر ويتابعونه عن كثب، وأكثر شيء جعله يشعر بذلك أن الواقفين بينه وبين الباب أفسحوا له طريقًا بسرعة!

وما إن نزل من الحافلة، واختفى وسط الجمع المزدحم، حتى شعرنا أن لصًّا خرج من بلدنا "حافلتنا"!

***

الشعور

"منزلي، هو بناية رقم 9 بالزقاق المواجه للشارع الذي يقع به الفندق الكبير هاواي".. وقد علم الكثير من أقاربه وزملائه وأصدقائه الذين أتوا لزيارته أول مرة أن الفندق الكبير "هاواي" الشهير، هو العلامة المميزة لمنزله، فما إن يصلوا للفندق، حتى يستطيعوا أن يصلوا لمنزله "بناية رقم 9 بالزقاق المقابل للشارع" بسهولة ويسر.

هكذا كان يخبرهم بمكان سكنه، حتى يَسهُل على ضيوفه الوصول له، فلو اكتفى بأن يخبرهم بأنه يسكن بـ"البناية التاسعة في زقاق شيانغ لو" لضل الطريق كل مَن جاء لزيارته، وبحث عن البيت طويلًا؛ وبعدما يصل الزائرون لمنزله كان يشعر بأن وصفه لمنزله من خلال الفندق الشهير هاواي يوحي بأنه يتجمل؛ فقرر بعدها ألا يذكر اسم الفندق ثانية.

عندما قال لنفسه هذا شعر بخجل شديد، فكل ليلة ينام فوق مضجعه، وينظر من النافذة إلى أنوار الفندق الساطعة، فيشعر وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا صامتًا، وعلى الرغم من قربه من الفندق فإنه لم يزره قط من قبل، ليس لأن المال ينقصه، فهو يدخر مبلغًا ضخمًا.

ذات ليلة فتح النافذة، فوجد "الشاشة الفضية" قد لمعت وظهر عليها اسم الفندق "فندق هاواي"، فنظر إلى المصابيح النيون المكونة لاسم الفندق، فشعر باختناق صدره قائلًا: ما هذا الهراء، لدي ثروة ضخمة، غير ما أدخره من مبلغ كبير، لكنه لا يمكنه دخول هذا الفندق، والتجول فيه ولو لمرة؟! أهذا الشارع من الصعب أن يضاهي السماء في رحابتها؟

وفي مساء اليوم التالي خرج من منزله ومعه زوجته وابنته، وأخذ راتب الشهر كاملًا بقدر عشرين ورقة نقدية من فئة الـ10 يوانات. خطا بقدميه إلى مطعم ما، ورأى بداخله النادلات فاتنات يشبهن أشجار الدراق المزهرة؛ وبمجرد ما جلس جاءت نادلة حسناء تحمل دفترًا مغلفًا بالحرير، فظن أنها قائمة الطعام، ولكن حين فتحها وجدها نوتة موسيقية! أشارت الفتاة بالزهرة السحلبية إلى الموسيقار "ريتشارد كلايدرمان"، ثم قالت في ود: سيدي، أتحب سماع مقطوعة موسيقية على البيانو؟

حينها جذبته زوجته من طرف ملابسه، وقالت له بلهجة محلية تألفها الأذن: "عزف الموسيقى يتطلب دفع النقود"، فتظاهر بعدم سماعها، والتقط بإصبعيه منشفة ورقية من كأس الخمر، ومسح يديه، ثم أختار مقطوعة، وكانت "غريب في الجنة".

وحينما جاءت قائمة الطعام، نظر إليها سريعًا ثم قال للنادلة: "آريد كآسين من كوكاكولا وكأسًا من ويسكي، أريد تناول جمبري مطهو بالزيت الأحمر وخيار البحر المطهو بالبصل وحساء زعانف السمك الأصفر وسلطة باريسية.. وسنطلب أطباقًا أخرى حين ننتهي من تناول تلك الأطباق". وحين وضعت النادلة أمامه قائمة الحساب أصابه الذهول؛ إذ كان عليه دفع مائتين واثنتين وثلاثين يوانًا! فأخرجت الزوجة على الفور ورقة نقدية فئة خمسين يوانًا.

كان يريد أن يطلب صنفين آخرين من الطعام، بعدما فرغوا من تناول الأطباق جميعها، واحتسوا المشروبات كافة، إلا إن زوجته أخذت ابنتها وغادرت المطعم، فلم يسعه سوى أن نهض من مكانه، وبينما كان يقدم خطوة على الأخرى، كان ينظر إلى مآدب الطاولات المجاورة له، فقد أخذت النادلة الأطباق الثمانية الموجودة على الطاولة ووضعت ثمانية أخرى، وفار النبيذ ماوتاي الفخم من إبريق النبيذ، وألقى سيجارة "دا تشونغ هوا" قبل أن ينتهي نصفها.

"سحقًا"، ثم قال بحنق شديد: كنت أريد اختبار شعور الأغنياء، إلا أنني لم أتوقع مطلقًا أنني سأعايش حياة المساكين!

* * *

شخص ما يطرق الباب في الصباح الباكر

"طرقٌ على الباب"

في الصباح الباكر، كان يطرق الباب الحديدي للورشة، لا جدوى من طرقه. لم يُفتح الباب. رفع رأسه، فرأى الباب الحديدي مغلقًا بقفل كبير، فأصابته رعشة، ولم يسعه إلا أن يتراجع خطوتين. خائف هو، تملكه الخوف حينما رأى الباب موصدًا.

كان القفل يشبه الأغلال التي ارتداها من قبل؛ فقد احتُجز بالسجن وراء جدار عالٍ لثلاث سنوات جراء ماارتكبه من سرقة.

في بداية الشهر الماضي أُطلق سراحه قبل الموعد المقرر له.

وفي اليوم الثاني من عودته إلى المنزل ذهب إلى بيت ابن عمه، بمجرد أن التقى به ابن عمه حتى تحدث إليه كثيرًا، مجرد أن رآه حتى أخذ بساعة يده من أعلى المنضدة وارتداها، حقًا، بدا الأمر طبيعيًّا للغاية.

ذهب ليرى زميلته في الدراسة في فترة الإعدادية، ما إن التقيا حتى قالت الفتاة: "يا إلهي، المنزل غاية في الفوضى!" قالتها، وهي تلملم أغراضها من خاتم وحافظة النقود وأشياء أخرى وتدسها في الدُرج!

تريد أن تتعلم جيدًا؟ صعب!

ببساطة كُسرت جرته المشقوقة.. وزُجّ به إلى السجن ثانية. لحسن الحظ لم يتجافاه أحد من عمال المصنع الذي يعمل به والده، ووافقوا أن يحل محل والده في العمل.

واليوم ذهب إلى العمل قبل موعده بساعتين، يريد أن ينظف الورشة جيدًا. لكن الباب الحديدي ما زال معلقًا عليه قفل يشبه تمامًا الحقيبة المدرسية، فلم يكن أمامه إلا أن يلملم أوراق الشجر المتساقطة، فجَمَع أوراق الشجر الجافة جميعها المتناثرة أمام باب الورشة.

لم يلحظ مطلقًا أن سكرتير الشعبة الحزبية بالورشة كان يقف على مسافة بعيدة عنه يراقب فعله.

وفي اليوم التالي، استيقظ أيضًا مبكرًا.

أذهب للعمل أم أذهب لتنظيف الورشة أم لأمسح المخاريط؟ أم أذهب لـ...

نهض من سريره، وفجأة، تذكر ذلك القفل الحديدي. نام جيدًا، لكنه رأى أن يسترق النوم لبضع لحظات أخرى.. مَن...

طرق الباب؟

أحدهم يطرق الباب. نهض من مضجعه، سار ناحية الباب وفتحه. كان سكرتير الشعبة الحزبية بالورشة.

ـ شياو ما، خذ، هذه هي مفاتيح الورشة!

* * *

أهم يوم في الحياة

كانت تفكر كلما اتجه المصعد لأعلى أنها ستنجح في التعلم الذاتي، ويومًا ما ستصبح مترجمة مشهورة للغة الإيطالية، وستتخلص من غرفة المصعد المغلقة والخانقة.. وعندما كان يتجه المصعد للأسفل تفكر أيضًا وتسأل نفسها: متى يأتي الوقت الذي أتخلص فيه من منصب عاملة المصعد الرتيب الذي ليس به مهارة تُذكر؟ فعلى الرغم من عدم اقتراب الفرصة دائمًا، فإنها ظلت على حالها تُشغل المصعد من ناحية، وتعلم نفسها اللغة الإيطالية من ناحية أخرى، حتى إنها حاولت ترجمة شعر الكُتاب الإيطاليين.

في ذلك اليوم كان مدير الفندق في عجالة من أمره، لدرجة أن الغرفة كانت تسودها الفوضى، وفي اليوم التالي كان الفندق على وشك استقبال وفد إيطالي لإجراء المفاوضات التجارية الخاصة بالمشروع المشترك لإعادة بناء الفندق، لكن فجأة مرض المترجم المرافق للوفد، وسافر مترجمان اثنان للغة الإيطالية تابعان لوزارة الشؤون الخارجية خارج البلاد لمرافقة البعثة الاستكشافية.

وإذ بالمدير يفكر بها فجأة!

في المساء انهمرت الفتاة في البكاء، وظلت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، لأن الغد ربما يكون أهم يوم في حياتها!

وقضت الليلة كلها واقفة أمام المرآة، وأخذت تتزين كما لم تتزين من قبل. كانت طوال وجودها في المصعد خافضة رأسها، إذ كان الرجل الذي أدار لها المصعد هو "سائق" المصعد في السابق ورئيس اتحاد العمال حاليًا.. كانت أول مرة تستقل فيها المصعد ويديره لها أحد غيرها، فكان يتردد في داخلها بلا انقطاع صوت يقول: "أنا آسفة"!

وعندما خرجت من المصعد وصلت إلى قاعة الاجتماعات، وجلست بين مدير الفندق وضيوف الشرف، وكانت تربط بين اللغتين بتوتر وجدية.. وفي إحدى المرات ترجمت كلمة "الخطة المدروسة" التي قالها المدير إلى كلمة "في صدري نمت أشجار البامبو"، لكنها سرعان ما ترجمتها إلى "مفعم بالثقة". انتهت المفاوضات أخيرًا، وأُزيل حمل ثقيل عن ظهرها، وشعرت بأن "كوكاكولا" لذيذة حقًا!

لم يمر وقت طويل حتى استدعاها المدير جانبًا وقال لها: إن المأدبة ستبدأ قريبًا، وينبغي حضور رئيس اتحاد العمال ليكون ضيف شرف، أما بالنسبة للغة التواصل في أثناء المأدبة فيمكن استخدام بعض العبارات الإنجليزية البسيطة للتعامل. ففهمت الفتاة ما يعنيه المدير، وذهبت محرجة لتحل محل رئيس اتحاد العمال.

مر يوم بعد يوم ولم يتغير حالها، ظلت عاملة مصعد كما هي، وكانت تتطلع إلى فرصة أخرى تكون مترجمة فيها، ولكن للأسف، عاد مترجم اللغة الإيطالية التابع لوزارة الشؤون الخارجية، كما قيل إن في المدينة عدد من خريجي قسم اللغة الإيطالية من معاهد اللغات الأجنبية قد وُزعوا في المدينة.

تنظر الفتاة يوميًا إلى هؤلاء الضيوف المحليين والأجانب الذين يصعدون ويهبطون، ويدخلون ويخرجون في عجل، وتقول لنفسها دومًا: لِم يبدو كل يوم يمرون به مهمًّا إلى هذه الدرجة؟ أما أنا، فلا أطمح إلا إلى تغيير طريقة خدمتهم!

***

على أمل ألا تنتشر النار ثانية

غربت الشمس منذ فترة، واختفى ضوء القمر، وأغمضت النجوم عيونها، والعمة تشو تسير متعبة في التلال الموحلة، لا تبكي ولا تضحك، لكنها عابسة غاضبة، تسقط تارة وتنهض أخرى، تنهض وتسقط، ثم تنهض مرة أخرى.

يبتلع صرير الرياح الحاد صوت لهاثها وأنينها المنخفض، لم تتمكن أي قوة أو أوامر من منعها من التقدم.

لكن أحدًا لا يعلم ما الشيء الاستثنائي الذي جعل هذه العجوز تواصل تقدمها في جنح الظلام، على الرغم من إصابتها فقد كانت عنيدة، ولم تعبأ بكل هذه الظروف.

فهذا الحدث كان جزءًا من حلم، فالطفل يحلم، وكذا الشباب، ولا يُستثنى العجوز أيضًا.. قبل ذلك بنصف الساعة رأت العجوز بمنامها ابنها مقبلًا من منطقة نائية بالشمال الشرقي، بدَّل الابن ثيابه في فرح، وتمدد على السرير مع زوجته تحت النافذة في فرح

وعاد الولد.. حقًا عاد، وظل يتسامر ويضحك مع زوجته بصوت منخفض.. واستخدمت أصابع يديها، ووضعت إصبعًا بجانب إصبع لترى أن الناتج اثنين، لتتأكد أنها لا تحلم، وأنها في يقظة تامة.. ومدت يدها لتقرع الباب، ثم سحبتها سريعًا وكتمت فاها؛ إذ أرادت أن تضحك.

انضم الابن لفريق عمال البناء القرويين بعد زواجه بشهر، وذهب إلى مقاطعات لياو نينغ وجيلين وهيلونغجيانغ، وما إن يصل البيت حتى يقابل زوجته أولًا بحرارة، ثم يحيي والدته بعد ذلك.. وكانت العمة على وشك الرحيل عندما سمعت فجأة صوت سعال شخص داخل الغرفة، ولم يكن صوت ولد ولا بنت ولا حتى صوت ابنها، ولكنها سدت إحدى أذنيها وألصقت الأخرى وهي ترتجف رعبًا بفتحة الشباك، ثم ألصقتها بزجاج الشباك، ثم بالباب.

خيانة!

إن ساعي البريد شياو تشانغ الذي يركب دراجته كل يوم ويقرع الباب بالغرفة مع زوجة ابنها يتبادلان الحديث والضحك بصوت خافت.. اسودت عيناها بالغضب والكراهية، وكاد أن ينفجر دماغها، وهزل جسدها، وكانت عما قليل ستقع على الأرض.

ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

يقول المثل: الحاجة أم الاختراع، فإن أفضل طريقة لمعاقبة شياو تشانغ، الذي أخذ شيئًا ليس له وهو زوجة ابنها، هي أن تجعل العامة يبحثون عنه، فأدخلت العمة تشو عصاها بروية في الفتحة التي يستقر بها مغلاق الباب، ثم غادرت المنزل في هدوء.

تولى تشانغ وين بينغ رئاسة هيئة البريد بالقرية حديثًا، وهو لديه صدر عريض ورأس كبير وشعر مجعد، عيناه غامضتان، لكن تشع منهما لمعة الحكمة والذكاء، وأخذ يتناول سيجارة تلو الأخرى بعد أن سمع اتهامات العمة تشو لشياو تشانغ المفعمة بالآلام والبغض، وبعد أن مسحت وجهها بالمناشف وشربت بعض المياه المحلاة بالسكر، أخبرها عن رأيه وهو يمشي أمامها.

ـ إني حزين وغاضب جدًا لما حدث، ولن أنتظر، وسأحيله إلى المحكمة في الحال.. ولكن ما الذي تجنيه زوجة ابنك؟ وما الذي سيجنيه ابنكِ؟ بل ماذا ستجنين أنتِ من ذلك؟ إن ضبط أحدهم في ذلك الفعل المشين كزوجة ابنك يشعرهم بالمهانة، ومن الممكن أن يؤدي إلى الانتحار غرقًا في النهر أو تجرع مبيد حشري، وإن لم تنتحر فإن الناس سينتقدونها ويسخرون منها ويشيرون إليها بالعار فترات طويلة.. آه، فلقب "المرأة المنحلة" كالظل سيلازمها أينما ذهبت، وقد رأيت رجلًا من قبل وقد علَّق حذاءً باليًا[22*****] له على فرع شجرة بجوار مقبرة زوجته.

ظلت العمة تحكي ما حدث في تلك الليلة وتروي التفاصيل كاملة لأناسٍ كثيرين، مثل هذا الخطأ في العلاقات الزوجية لا يمكن أن يحدث في أرضنا، وإنْ حدث مرة فإنه لا يُغتفر، وسيتحدث الناس عنه آلاف المرات.

ـ إن سمع ابنك المتغرب أن زوجته تخونه فإنه سيستشيط غضبًا، ويجري أسرع من الريح وإن لم يكن لديه رجلان، ومن الممكن أن يقطع آلاف الأميال ليرجع بيته ويذيق زوجته شتى ألوان الضرب حتى الموت، وإن لم يفعل هذا فإن الناس ستعيبه وتقول إنه لا فائدة منه، وإنه عاجز عن التصرف كالرجال.. إن تأملتِ مليًا، مَن مِن النساء لم يضربها زوجها أو حموها أو أخو أو أخت زوجها الصغيران حتى أدمى وجهها لمجرد وجود مشكلات في أساليب الحياة، ومع ذلك سافر ابنك طالبًا لقمة العيش؟

ـ سيدتي، إنكِ عانيتِ الأمرين حتى تزوجي ابنك، ألم تصرفي آلاف اليوانات وتنصبي عشرات الموائد كي ترحبي بزوجة ابنك؟ فماذا ستفعلين لو طلب ابنك الطلاق أو طلبت زوجته هذا الطلب؟ وإن لم ينفصلا وعرفتْ كنتكِ أنكِ لم تخبري أحدًا بما حدث ألن تجللكِ وتبجللكِ وتكرم وجهكِ؟

ـ أنصحك يا عمتي أن تفكري في عواقب هذا الأمر بروية وهدوء، حسبما أعرف فإن الغالبية العظمى من الناس عند معالجة هذه الأمور يصبون الزيت على النار عوضًا عن الماء، ولهذا فإننا نرى عددًا ليس بقليل من الأزواج والزوجات يتشاحنون، بل أيضًا يتشاجرون، وينمو أبناؤهم وسط سباب ومشاحنات، وأيضًا يفقد الكبار وأهل القرية والجيران الهدوء بسببهم.

ـ ألا من حل؟ بالطبع هناك، إني أقترح عليك أن تعودي إلى المنزل فورًا وتسحبي العصا الخشبية، وأن ترخي مغلاق الباب، ولا تدعي زوجة ابنك أو شياو تشانغ يكتشفان ذلك، ومن هنا وصاعدًا تظاهري بأن شيئًا لم يحدث، وابتسمي

لها، وعامليها كما كنتِ في السابق.. وعندما يأتي شياو تشانغ صباحًا إلى العمل فإني سأصحبه إلى مركز القرية لنحضر اجتماعًا، وفي واقع الأمر ستكون جلسة استجواب في إدارة البريد بالقرية.. من المحتمل أن يُطرد من هذه المنطقة ومن العمل أو يحول إلى قاعة المحكمة بسبب ممارسته أعمالًا مشبوهة غير قانونية في محيط خدمته في القرية تحت ستار العمل حتى يتعظ فريق البريد بأكمله.. اطمئني، فإننا لن نسمح بعودته مجددًا ليفسد حياة غيره الأسرية مهما كلفنا ذلك لفصلهما عن بعض، ثقي بأننا بكل تأكيد سنحافظ على سر زوجة ابنك، ولن نعلمها هي أو ابنك بالتحديد بكل ما حدث الليلة.. سآتي أوزع البريد بنفسي بدلًا عنه لكي أجعل عائلتك تحيا حياة هادئة ومستقرة، وإن سأل أحد: لم استبدلتم به ساعي بريد آخر؟ سأجيبه: إن شياو تشانغ تلقى فجأةً طردًا بريديًا يفيد إدراج اسمه في منحة خارجية للدراسة.

ـ إذا وافقتِ على ما قلته سيدتي فعودي أدراجكِ بسرعة، وافعلي كما قلت لكِ، ولا تدعي زوجة ابنك أو ابنكِ أو أنتِ شخصيًا تخسرون شيئًا، وليكن الخاسر تحديدًا هو شياو تشانغ.

أدارت العمة تشو رأسها وليس أمامها خيار آخر، وأمسكت المصباح اليدوي وكأنها مجبرة، وراحت تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى لتطأ الأرض الطينية عائدة إلى القرية.

رحلت العجوز، وقام رئيس الهيئة الشاب ليفتح النافذة ويرى البرق الذي يشق السماء الهادئة المظلمة بأشعته الخلابة فيظهر الشجر الذي يتراقص بجنون هستيري على الأرض، وأدرك أن الأمطار على وشك السقوط، ولكن تمنى ألا تتسبب الأمطار في أن تفقد الأغصان أوراقها ولا الأزهار بتلاتها ولا حشرة سراج الليل نورها، وتمنى أن تتمكن تلك الليلة المطيرة من إغلاق الصدع في الباب المكسور ورفع شراع المركب التائهة في عرض البحر، وألا تنتشر الحرائق مرة أخرى في الغابة.

توقفت السماء عن الأمطار، وظهرت السحب الحمراء في الشرق وقد أتى شياو تشانغ راكبًا دراجة وكأنه يركب حصانًا شعره أخضر جراء انعكاس أشعة الصباح عليه، أتى وقد بدا على وجهه الإرهاق والرضا والزهو، أتى شياو تشانغ ولم يتوقع أنه سيترك هذه المنطقة إلى أبد الآبدين!

* * *

دائمًا ما يدهشني تصرفكِ

في كل مرة يدهشني تصرفكِ.. السبت الماضي، حملتِ إليَّ ورقة وأنتِ ثائرة غاضبة، كانت إيصالًا بالمبلغ الذي استدنتُ به في أثناء لعبي للقمار.. كيف وصلتِ إلى هذا الإيصال؟!

في كل مرة يدهشني تصرفكِ.. يوم الأحد، كان اللعب على الطاولة في غاية الإثارة، حينها اقتحمتِ الغرفة حاملة بين يديكِ طفلنا الصغير الذي أتم لتوه عامه الأول، وتركته في وسط الغرفة، ثم انطلقتِ مسرعة.. ما الذي دفعكِ إلى هذا؟!

في كل مرة يدهشني تصرفكِ.. يوم الاثنين، قمتِ أنتِ بدعوة بعض ندمائي في لعب القمار إلى منزلنا، وأعددتِ لهم مأدبة طعام رائعة، وقبل رحيلهم انحنيتِ أمامهم فجأة راجيةً إياهم ألا يصحبوني ثانية للعب القمار.. كيف تبدلتِ لهذا الوضع الحقير؟

في كل مرة يدهشني تصرفكِ.. يوم الثلاثاء ذهبتُ ساعتين إلى العمل، شعرت بانقباض في صدري، فادعيتُ إصابة معدتي بآلام، وانطلقت مسرعًا، لأجدك مقرفصة عند مدخل الورشة، تكدسين قطع الماجيانغ فوق بعضها، حتى شُيد جدار.. هل أصابكِ الجنون؟!

في كل مرة يدهشني تصرفكِ.. بالأمس، بعدما انتهيتُ من تناول العشاء ذهبتُ إلى أحد المراحيض العامة، ولم يمضِ خمس دقائق حتى ذهبتُ إلى طاولة القمار، وقبل أن تنتهي الجولة الثانية حتى جئتِ ومعكِ أحد رجال الأمن، ولم أخرج من قسم الشرطة إلا في الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل.. يا إلهي! كيف تقومين بذلك التصرف عديم الإنسانية؟!

لن أحتمل أكثر..

اليوم سأقول لكِ بأعلى صوتي: كل مرة تفاجئني تصرفاتكِ، لن أتفق وإياكِ أبدًا أيتها الغريبة الأطوار! لم أتوقع أبدًا أن تأتي بصورة زفافنا وتمزقيها نصفين، ثم تحملي ملابسك التي قد حزمتيها من قبل، ثم تغادري بينما تنظرين إلى الخلف وتقولين: "أنتَ، أنت الذي تدهشني كل مرة بتصرفاتكَ"!

***

شخص محل ثقة، مثير للشكوك

يقع سكن العمال التابع لوحدة العمل الخاصة بنا على ضفاف نهر هوتشنغ، ويتكون هذا السكن من ثلاثة مبانٍ على هيئة أبواب متصلة، وعلى الجانب الآخر يوجد باب حديدي كبير وجدار من الطوب، يحتوي هذا الباب الحديدي على بيت من طابق واحد يتسم بالبساطة وعدم التكلف، حيث يعيش لاو جين حارس المدخل.

قبل ثلاثين عامًا اكتسب المعلِّم لاو جين مكانة جيدة بالعمل، وأصبح العامل المثالي بالمصنع، لذلك حصل على ترقية، وتولى إدارة الورشة قبل عشرين عامًا، لكنه تقاعد عن العمل قبل عشرة أعوام، وبعد خمسة أعوام من تقاعده فكر في البحث عن عمل؛ لأن سرعة زيادة معاشه لا تواكب زيادة الأسعار المطردة، فأوكل إليه اتحاد عمال المصنع مهمة حراسة البوابة.

كان لاو جين يتيم الأب، فقدْ فقَد والده وهو ما زال طفلًا، ثم فقد زوجته وهو في منتصف عمره، وفقد ابنه وهو في أواخر عمره، وأصبح لهذه الحوادث المأسوية تأثيرًا كبيرًا في حياته، أما الآن فقد كرس لاو جين كل حياته وجهده في حراسة العائلات التي تقطن بمنطقة المسكن، حتى إنه اعتبر منزل رفاقه وكأنه منزله الخاص.

وفي الصباح الباكر ليوم ما، بينما كان ينظف دَرج المبنى، وجد حافظة نقود فالتقطها، ثم نظر بداخلها ليجد بها بضعة آلاف من النقود وبطاقة هوية أحدهم، وعلى الفور قرع باب مالك هذه الحافظة لإعادتها، وفي مرة أخرى وجد طفلًا ومعه خاتم من الذهب يلعب به أمام حديقة منزله كالكرة الزجاجية الملونة، فأخذه منه وأعاده على الفور إلى والديه.

اعتبر جميع القاطنين بمنطقة السكن أن لاو جين واحدًا منهم، حتى إنهم كلفوه بمهام تسلم نقودهم من مكتب تحويل الأموال، وتسلم كل المصاريف والنفقات الخاصة بهم، حتى إن بعضهم أعطوه نسخة من مفاتيح منازلهم للاعتناء بها في حالة فقدانهم المفتاح خارج المنزل أو نسيانه بالداخل، وأيضًا لتجنب تسلقهم شرفة المنزل لفتح باب المنزل أو استدعاء رجال الإطفاء لمساعدتهم على فتحه.

بالتالي زادت أعداد السكان الذين يعطون لاو جين مفاتيح منزلهم، وعلى ما يبدو أن لاو جين أصبح عامل فندق مسؤولًا عن سلسة مفاتيح كبيرة، ولأجل تعزيز الأمن والأمان أعد اتحاد العمال خزينة وأعطاها إلى لاو جين كي يودع فيها المفاتيح الخاصة بكل منزل.

منذ مرور خمسة أعوام على تولي لاو جين منصب حارس البوابة، لم يُسرق أي شيء من القاطنين بمنطقة المسكن، فإعطاء السكان مفاتيح بيتهم له

تمامًا كالسفينة التي تضع مرساها على ميناء هادئ وساكن، كما أنه أيضًا يجعلهم يشعرون بنوع من الاستقرار والأمان. لكن يوم الاثنين الماضي في وضح النهار، لا أحد يعلم كيف اقتحم هذا اللص مسكنًا يحتوي على أكثر من عشر عائلات، وسرق أكثر من خمسين ألف نقدًا ومجوهرات وحليًّا مصنوعة من الذهب تقدر قيمتها بأكثر من ثلاثين ألف يوان!

بعد وقوع هذه الحادثة، أرسل كل من جهاز الأمن القومي وفريق الأمن التابع للمصنع على الفور شخصًا لحل هذه القضية، وتم سؤال حارس المدخل عن مكان وجوده، وماذا كان يفعل عند وقوع الحادثة، ووفقًا للتحقيقات تبين أن لاو جين في أثناء وقوع الحادثة كان مصابًا بالزكام والحمى، وظل طريح الفراش.

وعلى الرغم من ذلك بدأ سكان الحي السكني جميعهم، مَن سُرق منهم ومَن لم يُسرق، بالإضافة إلى أحد رجال الأمن بالمصنع ورجل الشرطة؛ يفكرون في أن الخزينة مع لاو جين بها أكثر من مائة مفتاح، وراحوا يتساءلون ما إذا كان لاو جين...

ولم يرغب أحد منهم في مواصلة التفكير بهذه الطريقة، لكن يبدو أن الظن والتفكير كانا على هذا النحو.. وقبل يومين ذهب بعضهم إلى منزل لاو جين لاستعادة مفاتيح منازلهم، وذهب عامل الأمن إلى لاو جين للتحدث معه حول هذا الموضوع.

وبالأمس تم حل هذه القضية، وتبين أن اللص "آ سان" يأتي كل يوم لإيصال الحليب للسكن، كما تبين أيضًا بأنه خبير بفتح الأبواب والأقفال.

وفي صباح اليوم ذهب لاو جين من بيت إلى بيت ومن أسرة إلى أسرة ليعيد لهم مفاتيح منازلهم، وأخبر الجميع عن قراره بالتقاعد، وأخبرهم أيضًا أنه بمجرد حلول الظهيرة سيعود إلى سوباي مسقط رأسه!

***

قوة العقل أم قوة الجسد

بمناسبة حلول الربيع وضعت عائلة "دا ليو" خطة لتطبيق نظام المسؤولية التعاقدية بين أفراد الأسرة، فإلى جانب الراتب الذي ينفقونه في تكاليف ومصاريف معيشتهم، اتفق الزوج والزوجة على إنفاق تسعمائة يوان، كما تعهدوا ببذل قصارى جهدهم ليتمكنوا من شراء تلفاز كبير ملون عشرين بوصة في نهاية العام.

شعرت حينها الابنة "جينغ جينغ" البالغة من العمر عشرة أعوام بالسعادة الغامرة، وراحت على الفور تصفق وتهلل، لأن التلفاز القديم ذا البوصات التسعة صغير للغاية، ويشبه القصص الصغيرة المصورة إلى حد كبير، ولا بد من أن يسُتبدل به تلفاز جديد، لذلك عقدت العزم بقرارة نفسها على أن تتولى جميع المهام الخاصة بأمور المنزل لكى تساعد والديها على الذهاب للعمل وجني المزيد من المال. فالعمل على وضع خطة أمر بسيط وسهل، لكن العمل على إتمامها أمر صعب للغاية!

يحب "دا ليو" مهنة التدريس حبًّا جمًّا، ففي وضح النهار يقوم بمهنة التدريس بكل حب وإخلاص، أما عندما يحل المساء وتأتي استراحة العمل يذهب مرة أخرى للمدرسة ويدرِّس نيابة عن أي معلم غائب، وبحلول نهاية العام قام "دا ليو" بتحسين نتائج وعلامات العديد من الطلاب في مادة الرياضيات، حتى إنه ساعد العديد من الشباب العاملين في الحصول على شهادة تخرج من الثانوية.. وفي الوقت نفسه أنهى تقريبًا خطة العائلة وحصل على مبلغ قدره 800 يوان.

تعمل زوجة "دا ليو" في مجال صناعة الأحذية، وفي نهاية كل شهر تنجز جميع مهامها عن جدارة واستحقاق، لذلك دائمًا ما تتلقى الثناء والمدح، فوصل الدخل الإضافي الذي تحصل عليه طوال العام إلى أكثر من سبعمائة يوان. وحين عدَّت الزوجة النقود ورقة تلو الأخرى شعرت بالسرور والسعادة قائلة: "لقد تفوقت في عملي وازداد راتبي"، ثم أومأ "دا ليو" برأسه دون التفوه بكلمة واحدة.

أصيبت زوجته بالذهول والاندهاش قائلة: "ماذا؟ ألست سعيدًا؟"، "حسنًا، إذا لم يكف المال فلا بأس، يمكننا شراء تلفاز ستة عشر بوصة بدلا من تلفاز عشرين بوصة." لوح "دا ليو" بيده قائلًا: "الأمر ليس أن المبلغ ينقصه مائتي يوان"، "ففي هذا العام دائمًا ما اعتقدت... أنا أفكر دائمًا في أمورى وأمور العائلة، وقد فكرت مليًا بأمر شراء هذا التلفاز." وهزت الزوجة رأسها قائلة: "آه! هناك العديد من الأشياء في هذه الحياة أثمن وأهم من المال، لكن كسب المال لشراء تلفاز ملون لا يعد خطأ أيضًا".

"أنا أيضًا حائر للغاية... هيا بنا فلنذهب لشراء هذا التلفاز الملون، وكما أخبرتني سابقًا إذا لم يكف المال فلا بأس من شراء تلفاز ثمانية عشر بوصة

أو ستة عشر بوصة".
فُتح الباب لكن لم يكن هما فمن فتحته كانت ابنتهما، ثم رفعت ابنتهما ورقة يانصيب عاليًا قائلة: "أبي، أمي، لقد ربحت اليانصيب، فقبل حلول منتصف العام أخفيت عنكم أمر النقود الكثيرة التي أنفقتها في شراء معجون الأسنان الذي ربحت به ورقة اليانصيب هذه، وعندما ربحت اليانصيب اليوم فتحت هذه الجائزة المميزة ووجدت التلفاز الذي طالما أردناه.

***

فكر بها من منظور إيجابي

في خجل وهدوء دفعت باب مكتب مدير المصنع، فمنذ مرور عامين على عملها بهذا المصنع تعد هذه هي المرة الأولى التي تتخطى فيها هذا الباب. وعلى الرغم من صغر حجم مصنع الحي هذا، وأنه يضم نحو مائة شخص تقريبًا، فإن مدير المصنع لا يزال هو المسؤول الأكبر عن جميع المهام به، حيث يقضي ثماني ساعات بمكتب العمل، وفي لحظة دخولها المكتب انتبه مدير المصنع الذي كان منشغلا بقراءة الجرائد لينظر بدهشة إلى الفتاة التي تتسم بالإخلاص والتفاني في العمل.

ـ هل هناك أمر ما؟ قالها المدير، ثم أخذ رشفة من شاي "لونغ جينغ".

لم تتفوه الفتاة بكلمة، وسرعان ما أحمرّ وجهها ثم قالت: سيدي المدير، أنا، أنا، أنا فقط أريد...

أشعل المدير سيجارًا وقال: ماذا تريدين؟ قالت الفتاة وهي ترفع رأسها وتنظر إلى الأمام: أنا أريد، أريد أن أحصل على إجازة. ثم رأت نظرة المدير الجادة لها، وعلى الفور خفضت رأسها إلى الأسفل.

ـ إجازة؟ هل هناك أمر طارئ؟ تشجعت الفتاة ثم أجابت في جرأة: أريد أن أذهب إلى المستشفى.

ـ تريدين الذهاب للمستشفى؟ ألستِ بخير؟

ـ سأجري... سأجري عملية جراحية.

ـ آه..

التقط المدير أنفاسه مندهشًا، ثم رفع رأسه ونظر إلى شهادة الاستحقاق التي حصل عليها من قِبل "وحدة تحسين النسل"، فامتعض وصمت، ولم يستطع التفوه بأي كلمة. سألت الفتاة وهي تنظر إلى الأسفل قائلة: هل توافق؟، ضرب المدير الطاولة كاظمًا غيظه وقال: حسنًا، اذهبي سريعًا. تجرأت الفتاة مرة أخرى لتتقدم بطلب آخر قائلة: كما أريد أن أحصل على إجازة أخرى لمدة نصف شهر حتى أتمكن من الذهاب إلى مسقط رأسي لرؤية أبي وأمي بعد إجراء العملية.

المدير: هيا، هيا، هيا، اذهبي سريعًا.

وبعد مرور عدة أيام، وفي أثناء انعقاد اجتماع عمال المصنع، لم يستطع المدير أن يكظم غيظه قائلًا: "يجب أن ننتبه جيدًا لمشكلات الحياة، هناك بعض الناس يوحي مظهرهم بالصدق والإخلاص، كأحد أعضاء المصنع، لكن... الحمل بدون زواج، الإجهاض"..

سعل المدير، وفكر قليلًا، ولم يذكر اسم الشخص الذي يقصده.

وفي اليوم الذي يلي منتصف الشهر، فُتح باب المدير فجأة، إذ اقتحمته الفتاة وهي تغطي وجهها بيديها، ثم بكت بصوت عال وهي تقول: لقد.. لقد.. لقد أسأت لسمعتي. شعر المدير بالدهشة، ثم جمع شتات أمره ونظر للفتاه فعرفها، فضرب بيده على الطاولة، وقال بصوت عالٍ: أنا لم أتخذ أي إجراء ضدك بعد.

وفجأة تحولت الفتاة الخجولة إلى فتاة عنيفة على غير عادتها، ورفعت رأسها، وصاحت بأعلى صوت قائلة: لقد أسأت لسمعتي.

وفجأة، اكتشف المدير أن عين الفتاة حمراء متورمة على غير العادة، فقد أجرت عملية تجميل لتصبح عيناها بجفنين!

***

المنفاخ ـ عجلات الحديد الصلبة ـ أنا

بهيئة الموارد البشرية يوجد أحد عشر نائبًا للمدير، وفي متجر صلصلة الصويا يتراوح عدد الموظفين والأشخاص الجالسين والواقفين من سبعة أشخاص إلى ثمانية، وذلك المستوقد الذي يقع عند باب المنزل، كانت تعمل به في البداية امرأة عجوز، أما الآن فيعمل به أربع فتيات.. هو كرقعة شطرنج، مكتظة بالجنود والخيول، فلا يمكن التحرك خطوة واحدة! أما قيادات الصف الثاني والثالث لم تتوقف عن التقدم إلى الأمام.. تكدست قطعة الشطرنج فوق الأخرى حتى أصبحت جدارًا فوق رقعة الشطرنج!

ـ يا إلهي! لقد تجاوزنا أكثر من ثمانية كيلومترات، وعلينا العودة.. هذا الرأس كيف يفكر؟ لا داعي للاستغراب، فالمزيد من التفكير يجعل الرأس أكثر نضجًا، فهل هناك قيمة للرأس دون نضج؟

يبلغ عدد رموز اللغة الصينية نحو أربعة وأربعين ألف رمز تقريبًا، إلا أن الرموز المستخدمة بصورة شائعة تشكل عشرة بالمائة منها، ومن بين أحد عشر نائبًا للمدير هناك عشرة نواب لا نفع منهم ولا فائدة، ومادام قد أجري تبسيط للرموز بلا هوادة، فيجب تقليل الكوادر بصورة حاسمة أيضًا؛ إذ تُعد الكوادر الفعالة هي العمود الفقري لأي مؤسسة، بينما الكوادر غير الفعالة فهي لتكملة العدد لا أكثر، لذا فتقليل الكوادر على اختلاف مستوياتهم، يُزيد من فرص العمل. مهلًا، ما أكبر هذا البلد! غير أن رب هذا البلد غير مناسب على الإطلاق!

مليار فم مفتوح طلبًا للطعام، يريدون تناول الخُضَر وشرب الحساء.. مليار عين تريد مشاهدة التلفاز، مشاهدة المسرحيات، وكذلك مشاهدة الجبل الأصفر.. ألم تكن خمرة "ماو تاي" وشاي "بي لوه تشون" وسجائر "تشونغ هوا" من أجل زيادة إنتاج معرض قوانتشو التجاري؛ أحفاد الإمبراطور يان يريدون الطعام والشراب والملبس والترفيه.. حقًا، فمسؤولية هذا البلد من الصعب تحملها.

يا إلهي! لقد تجاوزنا ثانية، سرنا سبعة كيلومترات، علينا أن نستدير مرة أخرى ونتقدم باتجاه الكيلو الثامن.

أشرقت الشمس أخيرًا.. يا له من صباح ندي! أشعة شمسه مشعشعة، ممتزجة مع سحب السماء الوردية البديعة، وجمال...

للأسف، لغتي فقيرة، والدولة كذلك فقيرة، وعلى الرغم من هذا الفقر فإن لدينا صباح، وشمس، وسحب وردية، وهذا في ذاته جمال بديع!

في الطريق، بينما كانت الشمس تشرق وترتفع بكبد السماء، كانت أصوات أبواق السيارات قد شكلت سيمفونية صاخبة.. سيارات تأتي من جهة الجنوب، وتتجه ناحية الشمال، وتتقدم إلى الأمام.. في الأمام كان يوجد طاولة مكتب،

وهاتف في حالة الانتظار، ومفتاح كهربائي، وعجلة قيادة في حالة انتظار، وآلة حاسبة، وسقالة في حالة انتظار، وسبورة، وبسطة أعمل عليها في حالة انتظار.. كانوا جميعًا ينتظرونني، وكانت هذه الصوَّة بالكيلو الثامن.

تشبه مناصب العمل مقاعد السينما، فهُناك مقاعد في المنتصف، ومقاعد على الأطراف، وصفوف أمامية وأخرى خلفية.. باختصار يوجد الجيد والسيئ، ولا عجب أن كثيرًا من الناس يمدون رأسهم داخل الشباك الصغير: "أريد مقعدًا خلف الصف الثامن وأمام الصف الثاني عشر، في المنتصف"! وللأسف، مقاعد السينما مكتظة دائمًا، فحراسة المواقع المهمة انتظارًا لأن يرد أحدهم تذكرته - في محطات نزول الركاب من الحافلات العامة، وأماكن ترك الدراجات، والطرق ذات المفارق الثلاثة - ما هي إلا معارك ضارية!

الاصطفاف هو أكثر ما أخشاه، دائمًا ما أشتري آخر تذكرة للفيلم، حينها يكون عدد الناس قد قل، ولا يمكنني أن أعتمد على الحظ وأذهب لأنتظر أحدهم يرد تذكرته.. أنا لا أملك ذلك الحظ. ولكن هذا لا يعني أنني لا أرغب في مشاهدة الأفلام، وأنني لا أرغب في الجلوس بالمقاعد المتميزة، إلا أن الناس دائمًا كُثر، ودائمًا عليَّ أن أتنازل لهم.

وصلت عند الكيلو الثامن، هذا هو مكان عملي، ترجلت عن السيارة، المنفاخ موضوع أعلى صوّة الطريق، وعلى المنفاخ كُتب "فِن واحد لكل مرة"، ولا داعي للفصال، لا يمكن نصف فِن، ولا فصال، ولا رد للباقي، وإلا، فإن الفِن الواحد ثمن لمرتين، لكن الزبون لا حاجة له في ذلك.

كان يتصفح الجريدة.. ماذا؟ لقد ذُكرتُ في الجريدة! انظر.. عنوان لافت للنظر "محطة التزويد على طريق الثورة"، فارتفعت الروح البطولية إلى عنان السماء.. للأسف، جميع القطارات الحديثة على طريق الثورة عجلاتها حديدية صلبة.

"المنفاخ لحل مشكلة الشاب العاطل"! حُلت مشكلة عملي؟ مَن حلَّها؟ المنفاخ!

"لقد أوضح: إذا أردنا أن تتقدم عجلة عمليات التحديث الأربعة[23*****] فعلينا بتزويدها طيلة العمر"! يا إلهي! متى قلتُ مثل هذا الكلام؟ طيلة العمر؟!

أصدَق ما يعرضه التليفزيون هو البث المباشر لمباريات كرة القدم، فتُعرض أخطاء الفريق الصيني بلا انقطاع، ونشاهد البطاقات الصفراء التي تحذر اللاعبين، فلا تزييف ولا تنميق، لذا لا عجب من أن الناس جميعهم يحبون مشاهدة البث الحي للمباريات!

"المقال هو المنظر الطبيعي للمكتب"..

للأسف، تتغير الجبال والأنهار، ولكن تنساب المياه باستمرار، فلا عجب أن يتغير هو كذلك، حتى إن تغيرت ملامحه كليًا، فيُطلق عليه "معالجة جديدة"

كلقب جمالي، فمنذ متى كان رجال الإعلام يذهبون للمطابع ينظمون المقالات ويراجعونها وينقحونها ثم يحذفون منها المقالات غير الواقعية؟!

"الشباب العاطلون هم النجوم الجديدة". وأنا؟ نجم جديد؟! أي نجم؟ نجم ثابت؟ كوكب سيَّار؟ قمر؟ إن أصررت على أنني نجم جديد فسيكون النجم الوحيد الذي صنعه الصحفي هو "القمر الصناعي"، يمكنه فقط التحرك في الأفق لبضع سنوات، ويسقط بعد ذلك مثل النيزك، ويختفي في الفضاء الواسع الذي لا حد له، ويبقى منه ضوؤه فقط، فلا أريد أن أكون مثل "قمر صناعي".

رُفعت الصوَّة الموجودة على الطريق، فابتعدت عن الأرض الصلدة، وأُلقي بها في البراري ذات العشب الكثيف، فأصبحت قالبًا أسمنتيًا لا قيمة له ولا معنى، فضلًا على أنه من الممكن أن يصبح حجر عثرة في طريق الناس المتقدمين إلى الأمام.

ـ "زوِّدها.. من فضلك"، أبدأ الصفقة الأولى اليوم.. هذا البدين، ذو العضلات المترهلة، بمجرد أن سعل قليلًا انبهرت أنفاسه، كان عليه أن يزوِّد نفسه أولًا!

من الأمور الشائعة أنه عندما تدعو الصحفي والكاتب لتنظيم مقال فمن الصعب أن تتجنب المبالغات؛ إذ تتحكم في الكتابة الموهبة الإبداعية الفذة، والاستسلام للأوهام، ومن الأمثال والمقولات التي استخدمت لآلاف السنين: "الاستسلام للأوهام" و"بناء قصور في الهواء"، وعلى الأغلب لن تطول الحياة أكثر؛ ففي عالمنا اليوم يبحث رائد الفضاء عن أسرار هذا الكون الفسيح، فقد فُتحت السماء، ويمكن لغرف المختبرات الفضائية أن تزامن الأرض وتحلق في أعالي السماء، وبالفعل صار هناك "قصور" بالهواء! وإذا استخدمنا هاتين الجملتين ثانية للتعبير عن "الأوهام والخيالات غير العلمية"، فهل سيكون ذلك مطابقًا لما نعيشه اليوم من واقع؟ فهل نستطيع حينها مسايرة العصر ومواكبته؟

في حاضرنا اليوم، اليوم؟! ألا يجب علينا أن نشجع الشباب المثقف صاحب الطموح والهمم على أن يصبحوا هم عمَّال التزويد طيلة حياتهم يُعيرون المنفاخ دائمًا للغير؟!

من الأفضل أن أصنع آلة نفخ آلية لا تحتاج لتحكم الإنسان، وأضعها على الطرق العامة جميعها، أو الأفضل من ذلك هو أن أخترع إطارًا للعجلة لا يُسرب الهواء مطلقًا، حينها سنأخذ المنفاخ ونضعه في المتاحف التاريخية.. ألا يستحق ذلك الثناء؟!

الشخص الذي شجعني في البداية كان سبب تثبيط عزيمتي اليوم، ولدي سؤال أريد أن أوجهه للصحفيين والكُتاب الذين أثنوا عليَّ: هل توافقون على القيام بعملي؟ هل أبناؤكم وبناتكم يستطيعون مزاولة مهنتي؟ ولا أقول أن تمارسوا مهنتي طيلة حياتكم، بل أعني فترة من الزمن.. هل توافقون؟ أجيبوني.

جسدي ممتلئ بالحروق والشظايا، خلاياي جميعها حارة ملتهبة، أريد أن أضيء.. أريد أن أولِّد الحرارة، لأجل ذاتي التي لم تحلق وتنشر جناحيها مطلقًا، لأجل الأم التي جف الحليب في ثديها، لأجل العرق الغزير التي تصببته الصين بعد سكون زلزالها المدوي.

امدحني، ولكن لا أريد أن تمدح زلاتي.. لم أذهب لمشاهدة الفيلم؛ فالقاعة كانت مكتظة.

إذا كتبت مقالًا فلن أختلق تفاصيل، وكلما اكتملت التفاصيل برزت آثار التلفيق والاختلاق.. عذرًا، ولكن من ذا الذي يحيا وفقًا لـ"تفاصيل القصة"؟

تنهد..

سأكتب مقالي، لكن لن أقرأه، ولن أطرحه للقراء، بل سأعطيه للزعيم ليقرأه، ما الذي يقلقني؟

جاء أحدهم للتزويد.. يا إلهي! إنها هي!

هي مرة أخرى، ذات الأنف الصغيرة، والعين الدقيقة، والفم المنمنمة، والضفيرة الصغيرة التي تشبه سنابل القمح منسدلة على كتفها النحيل.. زودت إطار العجلات بصورة رمزية، ثم بكل صرامة وجدية أخذت بقطعة عملة معدنية ووضعتها أعلى صوة الطريق، ثم ركبت دراجتها وذهبت.. هي دائمًا على هذا النحو، فهذا طريقها اليومي للذهاب إلى العمل، ودائمًا ما تزود إطارات العجلات.. لم يكن ذلك لتزويد إطار العجلات، بل لتزودني أنا! الناس جميعهم يدفعون فنًّا واحدًا، أما هي فتدفع خمسة فنَّات، وهذه هي المرة المائة وستة وأربعون للفنَّات الخمسة.. أهي صدقة؟ أم تعاطف؟ أم...؟

لا أكترث بذلك كله، فأنا أجمعها وأضعها في الحصالة التي تركتها لي جدتي، وفيما بعد لأجل زوجة... ما الذي لأجلها؟ لا أعرف!

ما الأمر؟ لقد عادت ثانية؟ لم تذهبين للعمل؟

ـ هذا أنت.. قالتها وهي ترفع يدها ممسكة بالجريدة.

ـ أجل. أجبتها وقد رسمت على وجهي مضطرًا ابتسامة مصطنعة.

ـ هذه هي محطة تزويد العجلات بطريق الثورة؟

ـ جئتُ إلى هنا لأن رئيس لجنة الحي قال لي اذهبي، فالدولة تعاني من الكثير من الأزمات والصعوبات، وأنتِ ما زلتِ شابة، يجب عليك التعاطف مع هؤلاء كبار السن، فليس لديهم ما يشغلهم.

ـ زوجة أخي لديها شهادة طفل واحد، وقد أُدرجت بقائمة الشرف ثناءً عليها لأنها لا تريد طفلًا ثانيًا، وقالت لا، لأن الدولة تعاني الكثير من الصعوبات والأزمات.

حينما تنتقد أحدهم خطأً ستصل إلى نتيجة عكسية، وحينما تُثني على أحدهم خطأً فستكون النتيجة مخيبة للآمال كذلك، و"الثورة الثقافية" لم تنتقد البعض وتمدح البعض خطأً فحسب، بل مدحت المواضع الخطأ، فيمن يستحقون المدح.

آه، الساعة التاسعة! حان وقت درس الإذاعة، أخرجت شبه الموصلات بسرعة وفتحت كتاب التدريس، عند حاجة الوطن سوف أغير مهنتي، لا يمكن أن أكون خالية الوفاض.

***

دليل عناوين للجيب

وأخيرا، فُتحت بوابة فحص التذاكر، فاندفعت صفوف المسافرين الطويلة كالتنين نحو رصيف القطار. جئت لأوصل والدي، فهو ذاهب لحضور مؤتمر ببكين. تحرك "تنين" المسافرين الطويل، فلوحت بيدي لأتقدم خطوتين إلى الأمام، بعدما غاب وجه أبي عني، شعرت بأن قدمي تطأ شيئًا لينًا، فالتقطته، وإذا به دفتر دليل عناوين.

في الحقيقة كان هذا الدفتر صغيرًا للغاية، فحجمه أصغر من حجم العملة الورقية.. أخذت أقلب فيه حتى وصلت إلى صفحة العنوان، ولم أرَ سوى كلمتين هما "باي فان"، فرفعت الدفتر الصغير عاليًا، وأخذت أنادي بصوت عالٍ: باي فان، مَن فيكم باي فان؟ أمنكم أحد يعرف باي فان؟ ولكن لم يجب أحد.

في المنزل، بحثت في دفتر "باي فان"، والمثير في الأمر أن الدفتر يحتوي على ثمانية وأربعين عنوانًا موزعة في أنحاء الوطن، بالإضافة إلى أن جميعها في جامعات وكليات، والمحزن في الأمر أن العنوان الوحيد الذي لا يوجد بالدفتر هو عنوان "باي فان"! ماذا يجب أن أفعل؟ عندما رأى أخي الصغير قلقي حيال الدفتر قال ضاحكًا: هذا دفتر عناوين فقط وليس تصريح عمل أو رخصة قيادة، فلماذا تُزعج نفسك؟!

هو لا يفهم أن قيمة الذهب في بعض الأحيان لا تضاهي قيمة العنوان، فجارتنا السيدة سونغ لم تعثر حتى الآن على والديها بعدما فقدتهما منذ أكثر من أربعين سنة، وذلك لأنها لا تعلم محل إقامتهما الآن. أخذت ورقة وقلمًا، وكتبت رسالة لأحد أصدقاء باي فان وفقًا للعناوين والأسماء المدونة بالدفتر، أخبرته بأني أريد إرسال دفتر "باي فان"، لذلك أتمنى أن تزودني بالعنوان الخاص به.

كنت أخشى من عدم تلقي الرد، لذلك أرسلت الرسالة نفسها لجميع أصدقاء "باي فان" الثمانية وأربعين المدونين بالدفتر.. وواصلت الكتابة إلى الساعة الثانية صباحًا.

بعد خمسة أيام وصل أول رد على الرسالة ينص على أنه كان زميل "باي فان" خلال الجامعة وأخبرني بعنوانه. وجدت منزل "باي فان"، وفُتح الباب من قبل امرأة في منتصف العمر، أخرجتُ الدفتر لأوضح سبب مجيئي.. لم تتحدث، واكتفت بابتسامة ساخرة.

سألتها: هل حضرتك...

فدعت بنتًا ذات ست سنوات أو سبع إلى جانبها، وقالت بابتسامة هادئة: تخيل أنه لا يريد زوجته وابنته، هل سيريد زملائه القدامى؟!

أود كثيرًا أن أعرف ماذا يجري: هو... قالت البنت الصغيرة: أيها العم، أبي ليس معنا منذ وقتًا طويلًا. وقالت المرأة ذات منتصف العمر لي: سمعتُ أن ذلك الذي لا ضمير له استقل القطار منذ بضعة أيام، وذهب إلى بلد أجنبي ليحصل على إرثٍ ما.

كان وقع كلماتها عليَّ كالصاعقة!

***

رسالة

مر وقت طويل ولم يتلق أي رسائل، لكن قبل أن يتقاعد، كان يتلقى الرسائل يوميًا، حتى إنه في بعض الأحيان كان يتلقى أكثر من رسالة في اليوم الواحد.

كان كل مرة يرى فيها ذاك الظل الأخضر يحوم حول سياج فنائه بسرعة يصاب بهم وغم، وفي يوم من الأيام شكَّ في أن يكون هذا السياج الخشبي هو الفاصل بينه وبين العالم الخارجي، فهدم السياج الخشبي، وقطع الخيزران.. ومع هذا، لم يسمع ساعي البريد ينادى عليه قائلًا "سيد فنغ، جاءك خطاب"!

وفي إحدى المرات، أوقف ساعي البريد سائلًا إياه: يا فتى، أليس معك خطاب لي؟

ـ لا، ربما خطابك لا يزال في الطريق ولم يصل بعد. فصاح في وجهه: "كيف لم يصل بعد"، ثم بادره معتذرًا على الفور.

رجع بيته، وفتح حقيبته الجلدية الكبيرة، وأخرج الرسائل القديمة التي تسلمها قبل تقاعده، وأعاد قراءتها واحدة تلو الأخرى، فاكتشف أن معظمها خطابات تتعلق بالعمل وبتكليفه لإنجاز أمر ما.

في حقيقية الأمر لم يعد فنغ لاو قادرًا على تحمل عدم تلقيه للرسائل، فصار يسجل مذكراته اليومية، ثم يضعها في ظرف..

وهكذا، كان يتلقى الرسائل والخطابات يوميًا!

***

كرَّس نفسه

لقد قررت أن اخبره بهذا الأمر، على الرغم من أن هذا الأمر يعده العديد من الأشخاص "أمرًا مخزيًا"، فإني أحبه بصدق.

لقد رآني بالفعل..

ـ لي لي..

إنه يركض نحوي ملوحًا ببطاقة حمراء: انظري، لقد حصلت الأغنية التي كتبتها على جائزة.

أنهى كلامه، ثم أعطاه تلك البطاقة.

إنها شهادة الحصول على الجائزة.. فاحتضنت الشجرة الكبيرة التي بجانبي، وألصقت وجهي بجذع الشجرة، ثم انهمرت دموعي.. طوال هذه السنوات، كان يبذل قصارى جهده في الكتابة، وأنا أساعده باستمرار بالتدوين، واليوم أخيرًا رأينا ثمار نجاحه. قال وصدره يرتفع ويهبط من التأثر:

ـ حصلنا على الجائزة، وهذا عزز رغبتي في تكريس حياتي للفن.

ـ ستنجح بالتأكيد.

ثم وضعت شهادة حصوله على الجائزة حيث ينبض قلبه.

ـ أنتِ..

ونظر إليَّ بعناية، واستمع إليَّ لفترة طويلة، ثم قال: أنتِ أيضًا لا بد أن تكون لك فرصة في هذا المجال.

احمرَّ وجهي، فأنا أعرف بكل وضوح أنه باستثناء مظهري وقوامي ليس لدى ما أُحسد عليه، ولكن...

ـ شياو ليو، في الواقع أنا أيضًا لا أريد أن أُترك خلفًا، أني أفكر... أن أكرس نفسي للفن.

ـ رائع..

وأمسك بيدي وهو متحمس للغاية.

ـ لقد وجدت مهنة سأستطيع من خلالها تكريس نفسي للفن، وسأبدأ العمل من الغد..

فسألته بتلهف: أي مهنة؟

ـ سأصبح عارضًا بقسم النحت بكلية الفنون الجميلة.

ـ أنت؟! كيف لك؟

ـ أعتقد أنه بلا وجود عارضين، لا وجود لتماثيل عظيمة.

عندها أدار وجهه، ثم غادر...

* * *

المزهرية القديمة

老花瓶

قبل أكثر من عشرة أعوام، كان متزوجًا لتوه، ويحصل على راتب غير مجزٍ، فكان يعيش ظروفًا مادية صعبة. وفي أحد الأيام، ذهب وحده إلى سوق تجارية صغيرة، ووجد مزهريات تباع على جانب الطريق، كانت المزهريات فريدة من حيث التشكيل، وكانت تمتاز بقوة وصلابة كأنها برج حديدي فخم، وعلى الرغم من أن ألوان تلك المزهريات كانت على قدر بسيط من الزهو والتألق، فإن تداخل اللونين الأزرق مع الأبيض جعلها لا تزال محتفظة برونقها، وأسفل كل مزهرية نجد ورقة مُثبتة مكتوب عليها "واحد يوان".. كان لا يصدق ما تراه عينه، فسعرها لا يتعدى يوانًا واحدًا! ألا تُعد هكذا مجانًا؟!

كانت الفرحة تغمره، فقد ابتاع مزهرية وعاد بها إلى البيت، فأثنت عليه زوجته لأول مرة صنيعه، حيث أخبرته أن هذا أكثر شيء قيم اشتراه على الإطلاق منذ أن تزوجا.

وضع المزهرية فوق خزانة الثياب، فشعر حينها أن المزهرية قد أضفت على الحجرة بهجة، كما شعر بالفخر لأنها لم تكلفه سوى يوان واحد، وعند حلول الليل قبل أن يخلدا إلى النوم، رأت الزوجة إعجاب زوجها الشديد بالمزهرية، فقالت له: لذا، عليك أن أشتري لها بعض الأزهار الحريري.

وفي اليوم التالي ذهب إلى متجر أعمال يدوية، وعندما وصل لواجهة عرض الأزهار أصابه الذهول، فسعر الزهرة الصغيرة يصل إلى عدة يوانات، وتتشكل باقة الأزهار من عشرة أزهار فقط، وزهرة واحدة لا تكفي لإبراز مظهر الألوان الزاهية المختلفة، وإذا لم ينفق حوالي ستين أو سبعين يوانًا، لن يتمكن من شراء باقة لائقة من الأزهار الحريرية، فصرَّ على أسنانه وصلَّب قلبه، ثم أخرج النقود أخيرًا..

وعندما عاد لمنزله حاملاً الأزهار ورأتها زوجته، غمرتها السعادة، ولكن عندما علمت أن ثمن هذه الأزهار وصل إلى ما يقرب من ثمانين يوانًا، سرعان ما اختفت تلك السعادة التي كانت تملأ وجهها، وتعجبت من أمره، فكيف له أن ينفق مكافأة الشهر التي حصلا عليها، لمجرد شراء باقة من الأزهار!

ولكن بعد وضع الأزهار داخل المزهرية، أشرق وجه الزوجة مرة أخرى، ثم أبدت إعجابها بالأزهار قائلة: يا الهي! إنها تشبه الأزهار الحقيقة لكنها لن تذبل أبدًا، إنها حقًا رائعة! وفي تلك الليلة، أيقظت الزوجة زوجها، وقالت له: أي، أنا لم أستطع النوم حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل، فقد فكرت مليًّا في

الذهاب لسحب الآلاف الأربعة التي ندخرها بالبنك من أجل شراء أثاث مناسب للمنزل، فبه مزهرية فقط، وهذا لا يكفي.
نهض الزوج فجأة، ثم قال بصوت عال: يا إلهي! أتريدين أن نسحب كل ما لدينا بالبنك؟! ثم نظر إلى المزهرية الموضوعة على خزانة الثياب، فابتسم ابتسامة صفراء، وقال في قرارة نفسه: مزهرية.. أزهار حريرية.. نشتري للمنزل أثاثًا مناسبًا.. أثاثًا مناسبًا.. أزهار حريرية.. مزهرية، فالحملة التي ستقام لتأسيس هذا البيت، كان سببها في الأصل يوانًا واحدًا!
بعد ذلك، ابتاعا أثاثًا من الطراز الحديث، وحينما انتهيا من تنظيم أثاث المنزل اكتشفا أن تلك المزهرية القديمة لا تتماشى مع هذا الأثاث الحديث، فلم يعد لها مكان مناسب بالمنزل وسط هذا الأثاث العصري الحديث!
***

طرائف أديب شاب

(7 قصص)

1ـ وداع فتاة

لست أنا من يودع الفتاة، وليس الشاب الذي ارتدى لتوه الزي العسكري، وليس رجلًا صالحًا انطلق في رحلة للمناطق الحدودية، وليس بحارًا أو طالبًا مغتربًا يستعد ليسافر عبر البحار، كما أنه ليس شابًا ضائعًا قرر أن يسلم نفسه للشرطة.. فمن هو إذن؟

منذ ثلاثة أيام تلقيت بطاقة دعوة لحضور "حفل وداع فتاة" الساعة الثامنة من صباح اليوم في شارع فو رونغ، المنزل رقم 1، بطاقة الدعوة يعلوها سطران من الكلمات البسيطة، لكن لم يُذكر شيء يتعلق بمَن سيودع مَن!

حين وصلت للمنزل رقم 1 بشارع فو رونغ، رأيت فقط حوالي ثلاثين أو أربعين شابًا جالسين ملتفين حول بعضهم في الغرفة الوسطى للمنزل، وأنا أعرفهم جميعًا، فهم أدباء شباب مثلي.

الواقفون ثلاث سيدات، إحداهما تُدعى شي يانغ تسي، وتعاني من قصر نظر حاد، ولقبها هو "شاعرة الضباب"، ولكن شعرها واضح وسلس على غير العادة، وهناك أخرى تُدعى سو ران، قوامها نحيف، كما أنها تحب إلقاء النكات، لذلك يدعوها الجميع بـ"الكوميديا السوداء"، والأخيرة أسمها الأدبي هو "القافية"، وهي أيضًا شاعرة.

ثلاثتهم يرتدون سترة قطنية حمراء من اللون نفسه، كما أنهم يضعون وردة حمراء صغيرة على صدورهن، ما فاجأني هو أن هناك دموعًا تبلل وجوههن.

تحدثت شاعرة الضباب قائلة: من يقول أن الخطاب ليس له أقدام؟ خطابي حاليًا يمشي في الطريق! سابقًا كنت أستخدم هذه الكلمات لأُشجع نفسي، ولكن لمدة عشرة أعوام، عشرة أعوام كاملة، لم أتلقَّ خطاب قبول واحدًا!

أطردت "الكوميديا السوداء" قائلة: أيها الرفقاء، لا تترددوا إن ضللتم الطريق، هل تذكرون ذلك الطفل الذي خرج من الغابات؟

جففت دموعها، ثم استكملت قائلة: سوف أستكمل كتاباتي، ما دامت هناك نقطة حبر في هذا العالم سوف أستكمل كتاباتي.

فقاطعت حديثها قائلًا: وإذا لم يكن هناك حتى نقطة حبر واحدة؟

فأجابتني بلغه شعرية: حينها سأترك النهاية السعيدة في أسفل زجاجة الحبر!

تحدثت "القافية" قائلة: الناس لديهم أفراح وأتراح، كما أن للقمر الجانبين المشرق والمظلم، والهَجر والبُعد يصعب على الناس تحمله، لكنه يحدث بين البشر مرارًا وتكرارًا منذ القدم.. وداع فتاة، على الرغم من أنه ليس قويًّا مثل

القول "ما إن يذهب المحارب لن يعود مجددًا"، كما أنه ليس كـ"من عز عليه الفراق ويحزن من أجل الوداع" ممسكين بأيدي بعضهم بعضًا والدموع تملأ عيونهم، ولا يمكنهم فعل شيء سوى النحيب!

ثم رفعت رأسها واستكملت قائلة: مساء اليوم سيعقد ثلاثتنا حفل زفاف منفصل لكل واحدة منا، في تلك اللحظات التي نودع فيها الفتاة نشعر جميعًا بالندم بشدة أننا لا نملك عملًا أدبيًا مطبوعًا، ولكن مهما كان طريق الأدب مزدحما..

أوه! ثلاثتهن يودعن تلك السنوات والأيام التي كنَّ بها فتيات!

* * *

2ـ الاهتمام بالكاتب لا الأدب

كانت الساعة العاشرة صباحًا حين خرجت من المنزل رقم 1 بشارع فو رونغ، حينها قال لي شيان ليو جين بينما هو يمشي: إنه لمن الصعب للغاية لشخص مغمور أن ينشر مقالًا أو عملًا أدبيًّا، وهؤلاء المشهورون... لقد تلقى والدي اليوم خطابا يقول: "الكاتب المسرحي المحترم، نرجو أن توفر لنا بعض الوقت مهما كانت الظروف وتكتب لنا شيئًا".

الأمر مثير للاشمئزاز، لقد أخبرت والدي من قبل أنه إذا وقع على مسودتي فمن السهل أن تتحول إلى حروف مطبعية[24*****)]، أما إذا أرسل أعماله الأدبية موقعة باسمي، حينها من المحتمل أن تصبح أوراقًا مهملة، "الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي" مرض شائع ووبائي، كما أنه يحدث في الكثير من الأحيان.

أعطاني مسودة لرواية ثم تابع قائلًا: هذا هو نتيجة عملي المضني وبذل مهجتي، فلتنظر إن كان عليَّ أن أرجعه أم لا؟

قرأت "جهده المضني" بكل جد، بدايته لم تكن مميزة، ولكن ما إن قرأت للصفحة الرابعة حتى جذب انتباهي، وكلما كنت أقرأ كنت أشعر أنه عمل بديع، وفي النهاية تأثرت حتى إني ذرفت الدموع.. قلت بحماس: ممتاز.. ممتاز! يجب أن تنشره.

فمزقت ذلك الخطاب إلى قطع، ثم قلت: لنذهب، فلتصحبني إلى قسم التحرير، فأنا أرفض تلك اللهجة، وسأسألهم، لماذا يريدون إرجاعه؟ وما السبب بالتفصيل؟

ذهبنا إلى تلك المجلة، وبحثنا عن المحرر المسؤول عن إدارة التعامل مع مسودات الروايات، ثم ذكر شياو ليو جين سبب القدوم وهو غاضب، عضَّ

المحرر على القلم وفكر مليًّا وقال: سوف أذهب لمكتب رئيس التحرير لربع ساعة لإنجاز بعض الأمور، وحين أعود سأتحدث معكما بهذا الشأن.
ثم سلمنا مجلة جديدة واستطرد قائلًا: يمكنكم قراءة تلك المجلة، فهي مطبوعة حديثًا، ولا تغادروا.
مرت ربع ساعة، وعاد المحرر في الوقت المحدد، أشار إلى المجلة التي بيد شياو ليو جين وقال: "هل قرأتموها؟"، وعلى ما يبدو أنه كان قد نسي السبب الذي جئنا لأجله.
رد شياو ليو جين رد قاس: قرأناها.
سأل المحرر مرة أخرى ضاحكًا: هل قرأتموها بالكامل؟
استشاط شياو ليو جين غضبًا: قرأنا المقال الخامس فقط.
ـ ألم تقرأ المقالات الأربعة التي في المقدمة؟
أومأتُ برأسي.
ربت المحرر على كتف شياو ليو جين وقال: أيها الزميلان، فلنعالج مرض "الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي"، هذا المرض السيئ معًا.
سأل شياو ليو جين بصوتٍ عالٍ: ماذا تقصد بتلك الكلمات؟
ـ أقصد أنه على الرغم من معارضتنا للرياح الشريرة والنزاعات الفاسدة لـ"الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي"، فإنكما لديكما تلك المشكلة.. الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي.
أشار هذا المحرر إلى فهرس المجلة قائلًا: كلاكما ما إن حصل على المجلة قرأ المقال الخامس، وهذا المقال كتبه كاتب مشهور، وعلى الرغم من وضعنا لمقالته في المرتبة الخامسة، فقد اخترتم أن تقرؤوها أولًا، في الواقع المقالة في المقدمة هي الأفضل، وهي أيضًا باكورة إنتاج أدبي!
***

3ـ اقتراح غريب

بعد تناول الغداء، جاء شياو ليو جين راكضًا يبحث عني، وما إن دخل من الباب حتى قال: لقد كتبت اقتراحًا، وسوف أرسله لذلك المحرر الذي تحدثنا معه في الصباح.. انظر، إذا وافقتَ أنت أيضًا على هذا الاقتراح يمكنك أن توقع باسمك.
أخذت هذا الاقتراح، ورأيت فقط ما كان مكتوب أعلاه:
لكي نتغلب على موجة "الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي" الخاطئة، أقترح على مجلتكم أن تكون على رأس مَن يُنفذ إجراءات عدم كتابة اسم الكاتب مؤقتًا عند نشر أي مسودة، وطريقة التنفيذ المفصلة كالآتي: مطالبة الكُتاب بنسخ المسودة مرتين، وذلك قبل أرسالها بالبريد للمجلة،

نسخة تبقى محفوظة لدي الكاتب، أما النسخة الأخرى فتُرسل للمجلة دون توقيع، ثم يوقع الكاتب باسمه على النسخة التي يحتفظ بها ويرسلها بالبريد لمجلتكم، وذلك بعد نشر العمل الأدبي، فتنشر مجلتكم في عددها المقبل اسم كاتب العمل الأدبي الذي نشرته في عددها السابق.. وتتمثل الأفضلية في الآتي:

أوَّلا- يمكن للمحرر القراءة والتعليق على العمل الأدبي كأنه ينظر لأوراق امتحان القبول بالجامعات، حينها ستكون المعاملة على قدم المساواة، وسد طريق "اختيار المقال على أساس شهرة الكاتب".

ثانيًا- تشجيع الكُتاب المشهورين على التعامل مع أعمالهم الأدبية بسلوك أكثر جدية، والقضاء على ظاهرة "الكاتب ممتاز والعمل الأدبي سيئ"، تلك الظاهرة الغريبة.

ثالثًا- ستمنع القُراء من "الاهتمام بالكاتب وعدم الاهتمام بالعمل الأدبي"، مما سيُدخل كل عمل أدبي من كل عدد في المجلة لعين القُراء واحدًا واحدًا.

عندما أنهيت قراءة الاقتراح أشدت به مرارًا وتكرارًا، فأعطاني شياو ليو جين قلمًا وقال لي: "رجاء وقع باسمك"،

فقلت بحزم: لن أوقع.

ـ كيف؟! ألست موافقا؟

ـ إن لم أكن موافقًا على اقتراحك هذا، حينها كنت سأوقع!

* * *

4ـ معرفة الذات

ما أن غادر شياو ليو جين حتى أتت ضيفة أخرى هي شي يانغ تسي.

ـ في الحقيقة أنا في غاية التأثر.. في غاية التأثر!

تحدثت وعيناها مملوءة بدموع الفرحة قائلة: حين عدت للمنزل في وقت الظهيرة، تسلمت تلك الصحيفة المصغرة، انظر.. لقد نُشر شعري! تُعد هذه أفضل هدية أهديتني إياها، وعلى الرغم من انشغالي الشديد، فقد كان عليَّ أن آتي وأشكرك.. تفضل، تناول بعض الحلوى!

هي من كتبت الشعر، فكيف أكون أنا من أهديتها الهدية؟!

هكذا سارت الأمور..

منذ أسبوعين، أحضرت لي مجموعة من الأشعار، وطلبت مني أن أُبدِ رأيي بها، فاخترت إحداها، ثم قلت لها: هذا الشعر رائع جدًا، يمكنك أن تنشريه.

ـ معرفة الذات هي المعرفة الحقيقية، مثلي أنا.. أهتم فقط بالأعمال الزراعية، ولا أسعى وراء الحصاد[25*****].

فكرت قليلًا ثم أخبرتها: زوجة أخي التي دخلت لتوها من الباب هي محررة بملحق بدار الصحيفة، فلتعطِها إياها، سوف تنشرها بالتأكيد.

فكرت قليلًا: حسنًا، لكن يجب أن تحتفظ بهذا الأمر سرًّا: فذلك يُعد واسطة ومحسوبية.
الآن أمسكت بالصحيفة، وألقيت أبيات الشعر التي كتبَتها، لأكون صادقًا أنا أشعر بالسعادة أكثر مما أشعر حين أنشر الأعمال الأدبية الخاصة بي.
أخرجت من جيبها كيسًا كبيرًا مملوءًا بالحلوى: أعطِ كيس الحلوى لزوجة أخيك، ولا تخبرها أنه مني.
فضحكت وأخبرتها: أخي الأكبر لم يتزوج بعد، إنه حتى ليس لديه حبيبة!
ـ حقا؟!
ـ لم أُعطِ شعرك لأحد أقاربي، بل أرسلته بالطريق الصحيح.
ـ حقا؟!
أجبتها بصوت عال: حقًا.. إن تُرِي المرء مواطن ضعفه وقوته، فذلك يُدعى معرفة الذات الحقيقية، يانغ تسي، لا يمكنك أن تفقدي الثقة بنفسك.
***

5ـ باكورة إنتاج أدبي
处女作

نشُر في الصحيفة مع شعر شي يانغ تسي نص نثري كاتبه يُدعى لو كوان هاي، وهو كان زميلي بالمدرسة الابتدائية.. قبل عامين، تم احتجازه من قبل قسم الشرطة لمدة خمسة عشر يومًا، وذلك لأنه تشاجر مع أحدهم بعد أن ودعت شي يانغ تسي، قررت أن أنتهز أن اليوم هو يوم الأحد وذهبت لزيارته.
حين وصلت لبيت لو كوان هاي كان يكتب مذكراته اليومية، وبعد تبادل التحيات، أعطاني دفتر مذكراته.
أحدث مقال في مذكراته اليومية كتبه كالآتي:
اليوم نشرت الصحيفة باكورة إنتاجي الأدبي.
اشتريتُ الجريدة من على جانب الطريق، ثم انطلقت مسرعًا بكل جهدي نحو المنزل، أردت أن أشارك سعادتي مع والدَي، فهم اكتفوا من مشاركتي القلق والخوف.. حين كنت على وشك ركوب الحافلة تذكرت أنني شخص نشر عملًا أدبيًا من قبل، لذلك تراجعت عدة خطوات للخلف على الفور ليركب الناس الحافلة أولًا.. حين كنت على متن الحافلة تذكرت أنني أصبحت كاتبًا، لذلك وقفت على الفور لأتنازل لشخص آخر عن مقعدي.. حين كنت على وشك أن أبصق من شباك الحافلة، تذكرت مرة أخرى أن كتابة المقالات هدفها هو تنقية المناخ الاجتماعي، فكيف لي إذا أن أخرب المرافق العامة؟!
في الماضي لم أسمح لأحد أن يصعد الحافلة قبلي قط، لم أتنازل لأحد عن مقعدي، لم أبصق مسبقًا في علبة السجائر، اليوم فعلت كل هذه الأشياء، كل

تلك الأشياء هي باكورة أعمالي!
بالنسبة للإبداع الأدبي فلأي شخص عمل واحد فقط، هو ما يُطلق عليه "باكورة الإنتاج الأدبي"، أما في الحياة فشخص مثلي ما زال لديه العديد من "باكورة الإنتاج الأدبي" التي يجب عليَّ نشرها.

***

6ـ زادت مكافأة الكاتب

يجب ألا أركض يمينًا ويسارًا بعد الآن، يجب أن أستغل يوم إجازتي لأكتب شيئًا.. بعدما خرجت من بيت لو كوان هاي ذهبت لمكتبة المدينة، بحثت عن مقعد، واستعرت قلمًا وبعض الأوراق من الشخص الجالس بجانبي، أريد أن أكتب تلك القصة القصيرة التي تخيلت حبكتها الدرامية وتُدعى "كمن أُزيح عن ظهره حمل ثقيل".. لقد قررت منذ زمن أن أكتبها بصيغة المتكلم؛ لأن ما أكتبه هو حدث خاص بي.

عضضت على القلم بشدة، واستعرضت ما أريد كتابته مرة أخرى..

منذ شهرين أرسلت إلى مجلة ما قصة قصيرة، وبعد إرسال المسودة بمدة طويلة لم أتلقَّ ردًّا، واعتقدت أنه لا أمل في نشرها، لذلك أخرجت المسودة ونسختها مرة أخرى، ثم أرسلتها لجريدة مسائية.

وسرعان ما نشرت الصحيفة المسائية عملي الأدبي، وبعد ما تلقيت أجر كتابتي بيومين، تسلمتُ مجلة ما، حين فتحتها وجدت أن المسودة التي أرسلتها قبل شهرين قد نُشرت.. في تلك اللحظة أُصبت بالذهول، حملت مقالتين لديهما المحتوى ذاته وسألت في جميع الأنحاء، هل هذا يُعد نشرًا مكررًا؟ هل هذا يُعد "هوسًا بالمال"؟ فقالت لي حبيبتي: كيف يمكننا إلقاء اللوم عليك بخصوص هذا الأمر؟ ومَن طلب مِن تلك المجلة نشر المسودة من دون أن تُعلمك؟

ثم أخبرتني "القافية": أنا مؤخرًا أدعم فكرة أن ترسل مسودة واحدة مرات عِدَّة لصُحف عديدة، لتوسيع التأثير، مثل السجائر التي تلوث الهواء وتجني المال في كل مكان، لماذا لا يُزهر في كل مكان ذلك المقال الذي ينشر روح الحضارة؟

ثم واستني "الكوميديا السوداء" قائلة: "لا تخف، فأنت لست فاسدًا أو مختلسًا، كما أنك لست قاطع طرق، ولست قاتلًا مأجورًا أيضًا، فلا تكن مفرطًا في الحذر والتدقيق"!

على الرغم من أن أقاربي وأصدقائي يدافعون عني، فإني ما زلت قلقًا، لأني تذكرت أن من قوانين تلك المجلة أنه إذا لم تُنشر المسودة في خلال ثلاثة أشهر، حينها يمكن للكاتب التصرف بها بإرادته، ولكننا الآن ما زلنا في الشهر

الثاني، ما دمت أني سلمتهم المسودة كان يجب عليَّ أن أحترم نظامهم وقواعدهم: لقد أخطأت!
تم إرسال الدفعة الثانية من أجر كتابتي، ويزيد عن أجر كتابة الجريدة المسائية بـ 2 يوان، لقد قررت بعزم وحزم: سوف أُرسل 10 يوانات للمجلة التي نشرت عملي الأدبي، منها 9 يوانات هو إعادة أجر الكتابة الذي تسلمته، ويوان واحد غرامة، من قال إنني أردت النشر المكرر؟
كتبت خطاب اعتذار لرئيس تحرير تلك المجلة، وشرحت به خطئي بالتفصيل، ثم وضعت الخطاب وورقة مالية بقيمة 10 يوانات في ظرف من ورق الكرافت وأرسلتها.. وما إن أرسلت الخطاب حتى أصابني الذهول مرة أخرى، فعلى لوح الإعلان على جدار مكتب البريد هناك قواعد واضحة: "ممنوع إرسال أموال داخل الجوابات، ليس جيدًا"!
ها أنا ذا قللت من شأن المؤسسة، كما أن 1 جياو كلفة التحويل، ماذا عليَّ أن أفعل؟
بعد أن دخنت سيجارة، اتخذت قرارًا حاسما آخر، اشتريت طابع بريد تكلفته 1 جياو، وانتهزت فرصة ألا أحد يلاحظ، وألقيته في صندوق البريد، ثم خرجت من مكتب البريد كمن أُزيح من على كتفه حمل ثقيل، لم أمشِ بعيدًا حتى التفت مسرعًا، ركضت نحو المنضدة، واشتريت حوالة مالية ثمنها 1 فن، لم أكتب عليها حتى كلمة واحدة، ورميتها داخل صندوق البريد..

***

7ـ لحظة أكثر حزنا

خرجت من المكتبة في وقت الغروب، وتناولت طبق معكرونة على بأحد أكشاك البيع على عجل، ثم انطلقت مسرعًا إلى قصر ثقافة عمال المدينة لأشارك في حدث "أصدقاء الأدب".
فعالية هذا المساء تناقش المميزات والخصائص التي يجب أن تحتويها القصص القصيرة.. قال المعلم قاو رئيس المؤتمر: إذا طلبت من الجميع أن يكتبوا قصة قصيرة بعنوان "اللحظة الأكثر حزنا"، فكيف نكتبها بأسلوب يُبرز خصائص القصة القصيرة؟
تسابق لو كوان هاي وقال: سأكتب حالتي المزاجية حين سمعت السيارة تصدم أختي الصغيرة وتموت.

آتبعه شياو ليو جين قائلًا: سأكتب عن فجر اليوم الثامن من شهر يناير عام 1976 (وفاة رئيس مجلس الدولة تشو أن لاي).
ثم أشار إليَّ المعلم جاو قائلًا: وأنت؟ ماذا ستكتب؟
استجمعت شجاعتي وقلت: أعتقد أني إذا كتبت مثل هذين الاثنين يمكن أن يتحول إلى مقال، فضلًا عن كونه قصة قصيرة، يجب أن نفرق بين القصة القصيرة والمقال والقطعة الأدبية والخبر الصحفي.

إن القصص القصيرة هي الرجل المسن في أسرة الروايات، يجب أن يكون لديها أصل ونسب تلك "الأسرة"، فهي يجب أن يكون لديها خصائص الرواية، كما يجب أن تملك خصائص المسرحية، يجب أن تهتم بشدة بالدراما، كما يجب أن تستخدم سوء الفهم والصدفة والقلق على شخص ما، والتغير المفاجئ وغيرها من فنون كتابة الدراما، يجب أيضًا أن تهتم بمهارة صناعة الهيكل مثل الدراما، وإذا أضفنا إليها بعض من الفكاهة فستصبح أفضل.
إذا اختصرنا الروايات القصيرة للكاتب الأمريكي "أو هنري"، حينها ستتحول لمثال ناجح للقصص القصيرة، يمكننا بدايةً تدريب الإنشاء في روايتي "هدية ماجي" و"آخر ورقة شجر".
يا لها من صدفة! لقد كتبت قصة قصيرة من قبل حين كنت أتدرب على الكتابة، هي قصة تمت معالجتها وصيغت وفقا لعمل فكاهي أجنبي، وليس مستحيلا أن نُغير العنوان ليصبح "اللحظة الأكثر حزنا".
حثني شياو ليو جين على الحديث: "فلتتكلم"، لذلك قلت: سأتحدث إذن، مع أنني لستُ أهلًا للحديث.
"يعيش اثنان من العزاب في أمريكا في أعلى طابق من ناطحة سحاب يبلغ ارتفاعها مائة طابق، ركبا المصعد للنزول، وذهبا لشراء بعض الأغراض من الشارع.. حين عادا، وبعدما أخذ منهم العامل عند خزانة الملابس معطفيهما قال: سادتي، أرجو المعذرة، لقد تعطل المصعد، لذلك يجب أن تصعدوا على أرجلكم.
قال الأعزب أ: يا إلهي! كيف لي أن أصعد مائة طابق؟ هذا غير معقول!
الأعزب ب: إن أحدنا أعرج والآخر مريض بالربو، ويجب علينا أن نحمل تلك الأطعمة ونصعد السلم، هذ أمر لا يمكن تصوره! لا يمكن تصوره!
فقال العامل: فلتنتظروا هنا إذن أيها السادة، ولكن المصعد لن يتم الانتهاء من تصليحه اليوم.
تناقش الأعزبان لبعض الوقت، ثم قررا الصعود، كما أنهما قررا كلما صعدا طابقًا حكى كل منهما قصة عن اللحظة الأكثر حزنًا، هكذا يمكن لكليهما أن يغرق في أكثر لحظاته حزنًا، وينسى ألم صعود السلم الذي أمامه.
حين وصلا للطابق الثاني، قال الأعزب أ: دمر هجوم اليابان المفاجئ على بيرل هاربور[26*****] القوة الرئيسية لأسطول المحيط الهادئ الخاص بنا،

وهناك الكثير ممن خسروا أيديهم أو أرجلهم مثلي.
وقال الأعزب ب: في الطفولة خسارة الأب، وفي منتصف العمر خسارة الزوجة، وفي أواخر العمر خسارة الابن، هي ثلاث مصائب كبيرة في الحياة، ولم ينجُ عمي منها، ففي النهاية حمل المسدس وأطلق النار على جبهته.
صعد الاثنان هكذا وهما يتحدثان، وترتفع الدموع مع خطواتهما، ونسيا تمامًا ألم صعود السلم، وحين وصلا إلى الطابق الأخير، قال الأعزب ب وهو يلهث: دعني أخبرك بأمر آخر يُعد من أكثر الأمور حزنًا، وهو الأخير، ويعد الأكثر حزنًا، الأمر المحزن للغاية هو أننا نسينا مفتاح شقتنا في المعطف الموجود في الطابق الأول!".
بعد انتهاء موجة من الضحك، قال المعلم قاو: على الرغم من أن تلك القصة القصيرة تمتلك حس الدراما وروح الدعابة فإنها تفتقد للفكر الراقي، وأهم شيء هو أنها لم تصف شخصًا بعينه.
عندما خرجت من قصر ثقافة عمال المدينة، رأيت فقط السماء المرصعة بالنجوم اللامعة، أعتقد أن كل نجمة تشبه أديبًا شابًا، كلها أشخاص أريد الكتابة عنهم، هم شياو ليو جين ولو كوان هاي وشي يانغ تسي وسو ران و"القافية" وآلاف، بل عشرات الآلاف من "أصدقاء الأدب".
***

التقليد

模　仿

1

هي، الفتاة ذات الستة عشر ربيعًا، مولَعة بالأدب، تتمنى أن تصبح كاتبة.. في مرة من المرات، قرأت أقصوصة بعنوان "الليلة المُقمرة"، وقد شغُفت بها أيما شغف، فقد بدا لها أنها تتحدث عنها.. وحين قرأتها للمرة الثالثة، اعتقدت أن هذا الموضوع ربما يكون أكثر تشويقًا لو أنها صاغته بنفسها، من ثم أجرت بعض التعديلات على "الليلة المُقمرة"، فخالجها شعور بأن هذا العمل قد صار أكثر كمالًا.

2

وبعد مرور عام، أمسكت بـ"الليلة المُقمرة" تقرؤها بعد التعديل، قرأتها على مسامع الأصدقاء، فكانت لا تزال تهز أوتار مشاعرها ومشاعر الآخرين كذلك، وقد نصحها البعض بأن ترسل "الليلة المُقمرة" إلى إحدى دور النشر، ولم تكن لديها الشجاعة أن تقول إنها ليست الكاتبة.

3

"لَكَم سيكون رائعًا أن أنشر رواية!"..

هكذا دارت أفكارُها مع رَحى الأيام.. وفي نهاية المطاف لم تستطِع أن تقاوم إغراءً خياليًّا كهذا، فأرسلت بـ"الليلة المُقمرة" إلى إحدى المجلات.

4

تمت طباعة "الليلة المُقمرة" من جديد، وطُبع اسمها أسفل العنوان، وتوافد عليها الأصدقاء لتهنئتها، أما هي، فقد ظَل هناك فزع ينازعها سعادَتها!

5

في أحد الأيام، بعثت إليها هيئة التحرير برسالة، تخبرها فيها أن أحد القراء قد أبلغ عن انتحالها صفته، وأن الهيئة تنوي الكشفَ عن هذا الأمر، ونشرَ التحقيق، كما أن عليها إعادة مكافأة النشر التي حصلت عليها بالاحتيال، وإلا...

6

راودتها فكرة الموت للمرة الثانية..

7

لم تتوقع أنها قد تتلقى رسالة مفاجئة من امرأة في منتصف العمر، مؤلفة "الليلة المُقمرة"، وقد انطوَت الرسالة على: "... يقول تولستوي: ’الأقصوصة

هي أفضل مدرسة لتنْشِئة الكاتب وصقل قرِيحته‘.. أنتِ تتعلمين في المدرسة، وحينما تَخطين خُطوتك الأولى فإنه لا مندوحة لكِ من التقليد، والتقليد إذا تكاثفت عناصره قد يهوي بكِ من غير انتباه إلى مستنقع ’الانتحال‘.. إنني على ثقةٍ من أنكِ لن تقعي في ذلك مرة أخرى أبدًا، لذلك فإنني قد بعثت برسالةِ إلى هيئة التحرير، آمل منهم أن يتعاملوا مع هذا الأمر بشكل لائق، وألا يمسك شيء تكرهينه، ومن الأفضل أن...".

8

فيما بعد، صارت تلميذتَها.. وعلى الرغم من أن أسلوب أعمالها كان يختلف كثيرًا عن معلمتها، فإنها كانت تنسُج على مِنوال معلمتها في مواطن كثيرة..

***

وسائل الإعلام

لا بد أن يلبي الدعوة لحضور مؤتمر النقد السينمائي، وفي طريق ذهابه رأي العديد من الناس يلتفون حول بائع متجول، ويتهافتون لشراء سترة من الصوف، ثم صاح هذا البائع قائلًا: "بضائع بأسعار مخفضة للبيع، سعر القطعة عشرة يوانات، هيا أسرعوا بالشراء"، فقاده صياح هذا الرجل للدخول في وسط هذا الازدحام وشراء قطعة ملابس ارتداها في الحال لتجنب الرياح الشمالية المقبلة نحوه.

كان المؤتمر مملوءًا بالمشروبات الغازية وجميع أنواع الفواكه الطازجة والحليب الطازج، ثم قام كل من بطل الفيلم ومخرجه وفريق الإنتاج بلطف واحترام بإشعال السجائر للحضور.

وعندما انتهى لتوه من مشاهدة الفيلم، لم يستطع الإطراء والثناء على الفيلم، لكن المشروبات والفواكه اللذيذة الطيبة والسجائر الفاخرة دفعت بالجميع للثناء على هذا الفيلم، وإلا كيف يجذب الفيلم شركات توزيع ونشر الأفلام لشراء نسخة من الفيلم ويجذب الناس لدخول دور العرض السينمائي؟!

فقول الحقيقة سيجعل القائمين على الفيلم يشعرون بالحرج الشديد، والادعاء كذبًا سيصعب عليه التحدث، لذلك شعر بأنه في مأزق يصعب الخروج منه، فأمسك بعلبة سهلة الفتح، وما إن فتحها حتى تطايرت عليه رغوة المشروب المنبثق منها، وبللت السترة الصوف التي اشتراها حديثًا، فأخرج على الفور منديلًا من جيبه لينظف سترته الصوف، لكنه لم يتوقع أن يصبغ المنديل الأبيض سترته ويحولها إلى منديل أزرق اللون، فشعر على الفور بأنه تم الاحتيال عليه وقال: "كيف يمكن أن تكون هذه السترة المصنوعة من الصوف من المنتجات عالية الجودة؟ لكن.. لكن لماذا رأيت العديد من الناس يتهافتون عليها لشرائها؟" وفهم أن معظم هؤلاء الناس مجموعة من المحتالين الذين يشتركون مع البائع في الاحتيال على الناس لجذبهم لشراء البضائع!

شعر بأنه ربما يمكنه الدخول في صفوف هؤلاء المحتالين، وانسحب من الاجتماع بعزم وحزم.

***

متعة قانتسي

خلع قانتسي ملابسه كاملة، ثم ارتدى معطفًا قماشيًا من بين المعاطف التي أعيد تصنيعها، ومد يده ليرفع الستار عن الباب، ثم اتجه خارجًا من المسبك.

في وسط الرياح الباردة وقف واضعًا يديه على خصره، ثم تبول في المرحاض، وفي ذلك الوقت وفي مكان ليس ببعيد اشتعلت ألسنة اللهب في داخل فرن سبك المعادن، وتدفقت المياه داخل برميل الزيت من خلال خرطوم متصل بصنبور المياه القريب. كان كل ما يحتاج إليه بعد استغراقه في العمل طوال اليوم هو أن يغتسل بمياه ساخنة، فقد امتلأ وجهه - جراء ذلك - بالبقع السوداء، باستثناء أسنانه وعينيه.

خرجت المياه ببطء من وعاء الزيت الكبير، وسالت في اتجاه المرحاض.. أغلق قانتسي بعد ذلك صنبور المياه بإحكام، واتجه نحو فرن سبك المعادن. وبكماشة استخرج من أتون صهر المعادن قطعة حديد يحيط بها فتحة حمراء، وتتراقص وألسنة اللهب الرفيعة الممتدة. وفي تلك اللحظة التي سقط فيها الحديد داخل وعاء الزيت، ارتفع صوت مدوٍّ، وتصاعد البخار من وعاء الزيت، فتدافعت المياه وتدفقت.

انزلق المعطف على الأرض كانزلاق حديد الصب، وصار قانتسي عاريًا تمامًا ومتصلبًا كالحديد حين يُصب.. وثب قانتسي داخل وعاء الزيت، حتى غمرت المياه الساخنة رأسه.

وحين كان قانتسي يرتدى ملابسه في المكتب، وقعت عيناه على ستار الباب الذي يهتز بلا توقف بفعل الرياح الشمالية.. الجزء الخلفي من الستارة المواجهة للشارع علم حريري.. همهم قانتسي، ثم بصق نصف السيجارة على الأرض: الحوافز المالية والمكافآت في ازياد، فماذا عن عامل المسبك؟! وبعد مرور ساعة من الزمن ولج قانتسي إلى قاعة رقص "بيبينغ".

كان كل ثنائي على حلبة الرقص يرقص رقصة الفالس، حتى دخل شاب يرتدي نظارات، وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث: أتستطيع رقص الفالس؟ أومأ قانتسي برأسه. أردف "ذو النظارات" متباهيًا: إن موسيقى الفالس ثلاثية الإيقاع، أنغامها ناعمة وموجاتها متناغمة، تجعل الإنسان يشعر كأنه يمشي على السحاب وكأنه في النعيم، فالإيقاع الهادئ من موسيقى الفالس يتسم بالرقى والهدوء والنعومة، أما الإيقاع السريع منها فيمتلئ بالحيوية والاسترخاء والسعادة.

ألقى قانتسي بنصف علبة من سجائر Kent وعلبة من شرائط الكاسيت إلى مدير الحلبة، وسرعان ما سمع صوت الموسيقى يدوي صاخبًا.

لم يلبث قانتسي أن خلع سترته "الكاروه"، فكشف عن قميص صوفي خفيف، وبدا بنطاله الأحمر الصارخ كأنه يشتعل من حدة الأشواك، وأخذت قبعته السوداء في الوثب، وبدت قدماه السعيدتان وكأنهما تقفزان فوق كرة، فبدا حينًا كبحار يمسح سطح سفينته، وحينًا كسائق يقود سيارته في طريق جبلي متعرج، وحينًا يقرفص ثم يميل بجسده إلى الخلف.

ـ قانتسي، إنك راقص بارع!

كان قانتسي كقطعة حديد ساخنة دخلت حلبة الرقص، فأشعلتها.

***

الأقليات

يذهب المحاسب المخضرم هذا الصباح إلى المكتب لعقد اجتماع، وبعد الظهر، يستعد لتجهيز الرواتب، بالإضافة إلى مشاركته في النظافة العامة.. أصبحت غرفة المحاسبة في غاية النظافة بفضله. باستثنائه يوجد أربعة آخرون في غرفة المحاسبة، من بينهم شابان قويا البنية، والاثنان الآخران امرأتان في منتصف العمر، فمسؤولية النظافة لم تعد تُسند إليه كالسابق.

اليوم هو عيد الفطر لقومية هوي، الأوضاع استثنائية قليلًا، وفقًا لقواعد المدينة، يحصل أهل قومية هوي على عطلة لنصف يوم.. في المكتب الجميع من قومية هوي باستثنائه، وبالتالي، فإن مسؤولية النظافة العامة بعد الظهر وقعت على عاتقه.

بعد إنهائه الاجتماع في الصباح، التهم في طريقه فطيرة باللحم الحار، ثم أسرع للحاق بالمصنع، حيث كان يريد تجهيز الرواتب خلال استراحة منتصف النهار، وبهذا الشكل يمكنه تخصيص وقت للنظافة العامة بعد الظهر.

عند اقتراب الساعة الثانية عاد إلى المصنع، وبمجرد النظر إلى باب الغرفة المفتوح صُعق بنظافة الأرض والشباك الزجاجي والمكتب والخزانة الحديدية، عند وقوفه أمام المكتب الخاص به اكتشف قصاصًا من الورق مضغوطًا تحت السبورة الزجاجية، مكتوب أعلاه:

ـ أيها المحاسب المخضرم، حضرتك عادة ما تهتم بنا نحن الأقلية في كل مكان، في الواقع، في غرفة المحاسبة، حضرتك "أقلية" لأننا أربعة مقابل واحد، وفقًا للسياسة الثابتة لحزبنا لرعاية الأقلية، بعد الظهر يمكنك...

أبناء الأقلية الأربعة

***

أنا وسيد صناعة الألغاز "ها يوان شو"

فتح ها يوان شو، وهو مسن من قومية هوي، مطعمًا كان في البداية للمعجنات المحشوة باللحم البقري في زقاق نيوجيا، ومن أجل إغراء الناس بالحضور وإضافة بعض التجديد لمذاق الطعام، دعا بصفة خاصة طاهيًا مخضرمًا للمعكرونة من مدينة ختشو بمقاطعة قانسو، ثم غيَّر لافتة مطعمه لتصبح: "المعكرونة باللحم البقري الأصلية".

حقًا إنها لذيذة، وهي رفيعة كنبات شنبات التنين، ويحتوي الطبق، بالإضافة إلى المعكرونة، على الثوم الأخضر والملح والفلفل والخردل وعصير السمسم وزيت الفلفل الحار وغيرها من التوابل، بالإضافة إلى ملعقة من حساء اللحم البقري المطبوخ، ومع وجود العيدان الخشبية والرائحة الذكية التي تُعبئ جميع الأرجاء، سوف تلتهم الوعاء في أقل من ثلاث دقائق!

العم ها يوان شو تاجر، صنع نجاحه بنفسه، كان يعلم خفايا الأمور، وكان مشهورًا باسم "صانع الألغاز"، كان دائمًا يضع مقعدًا أمام الدكان ويضع فوقه ورقة باللغز، والذي يخمن الإجابة الصحيحة تكون جائزته الكوب أو حافظة الأقلام أو التفاحة التي وُضعت فوق الورقة.

الحصول على الجائزة ليس شيئًا سهلًا، رأيت ذات مرة ما كُتب على اللغز، ألا وهو "الوقت من ذهب، لكن الذهب لا يمكنه شراء الوقت"، والإجابة مكونة من اسم دولتين.. في المنزل ظللت أُفكر حتى منتصف الليل، استخدمت الأطلس كوسيلة للبحث، ثم أحرزت اسم دولتين وهما "بلجيكا وليبيا"، وفي اليوم التالي صرحتُ بالإجابة، وسُر العم "ها" كثيرًا لذلك، وأصر على استضافتي في بيته.

في المساء وفي أثناء جلوسنا في منزله، توجه إليَّ العم بالحديث قائلًا: خمن الرمز الذي ينتج من دمج هذين الرمزين (人)، (木草)، إذا أصبت التخمين لك جائزة، أجبت بعد قليل من التفكير: هذا الرمز هو '茶'[27*****] أليس كذلك؟ قال وهو يعطيني كوبًا من الشاي: حسنًا، الجائزة كوب من الشاي. شكرته مرارًا، فقال لي: خمن الرمز الذي ينتج من هذين الرمزين (猜)، (谈)، الموجودين في هذه الجملة (不用边谈边猜).

لغز مرة أخرى، حقًا، إن حديث العم لا يخلو من الألغاز، عندما رأى عدم مقدرتي على التخمين، اضطر لقول الإجابة: الاستخدام الشائع لهذا الرمز (猜) هو هذا الرمز (射)، وبالمثل الاستخدام الشائع لهذا الرمز (谈) هو هذا الرمز (扣)، وعند دمجهما ينتج هذا الرمز (谢)، أي الشكر.

وبالتالي فإن هاتين الجملتين متطابقتان في المعنى (不用:不用边谈边猜)، ألا وهما: لا داعي للشكر، يا للهول، هاتان الجملتان متطابقتان. أخذت رشفة من الشاي وقلت له: أيها العم، ما ألذ هذا الشاي! كيف لا تُشكر عليه؟

ال: تقديم الشاي للضيوف من عادات قومية هوي(28*****)، فلا داعي للشكر. سألت العم: "أبلغت الستين من عمرك أيها العم؟"(29*****)، أجاب قائلًا: لقد بلغت الستين من عمري(30******). اندهشت لقوله، وفكرت مليًّا، لا بد أنه لغز آخر. داعب لحيته وقال لي: في اللغة الصينية الرمز الواحد قد يحوي معاني متعددة، فلابد من الانتباه إلى المعاني المختلفة للرمز. قد صُدمت عند دخول مكتبة العم الصغيرة، لقد كانت ممتلئة بآلاف الكتب، حقًا شيء لا يُصدق، كيف تجتمع هذه الكتب مع المعكرونة باللحم البقري؟!

تأخر الوقت، وما زلنا نتبادل أطراف الحديث، ودار معظم الحديث حول "وو تشون تشي" و"ليو جيا ليان" وهما اثنان من علماء الإسلام الصينيين الكبار المولودين بمقاطعة نانجينغ.

في اليوم التالي، وضعت لغزًا على المقعد أمام المطعم، كما وضعت مجموعة مصغرة من القصص القصيرة من إصداري كجائزة، اللغز هو: "مطعم المعكرونة باللحم البقري الأصلي للسيد ها يوان شو، والإجابة في جملة واحدة".

هذا اللغز حُل عن طريق سيد قادم من ينتشوان إلى نانجينغ في رحلة عمل، والإجابة هي: "مذاق طعام قومية هوي لا يُشبع منه".

***

الإمام وان نائب مجلس الشعب وابنه

بعدما انتُخب الإمام وان الذي قارب الستين، نائبًا عن المدينة بمجلس الشعب، كان مشغولًا جدًا، لدرجة أنه لم يأخذ عطلة ولو ليوم واحد.. كان طوال اليوم يقوم بجولاته التفقدية من دار إلى دار في زقاق نيوجيا، حتى ملأ عدة كراسات بمقترحات ومطالب الناس من قومية هوي، وكان كلامه مسموعًا، فالمشروع الأول الذي قدمه إلى اللجنة الدائمة لمجلس الشعب بالمدينة، حول بناء مقابر لقومية هوي على قطعة أرض نائية بضواحي المدينة، لم يكن متوقعًا أن يأتي العمدة بنفسه لمتابعته، ولم يمضِ نصف شهر، حتى طُوق حول المكان الذي ستُبنى فيه مقابر قومية هوي.

أخذ الإمام وان يسعى من جديد من دار إلى دار، ليقسم دور أبناء قومية هوي في منطقة زقاق نيوجيا، التي بلغ عددها بضع مئات، إلى مجموعات بلغت بضعًا وأربعين مجموعة، الواحدة من عشر دور، ومن المؤسف أن إحدى الدور توفي فيها شخص، فتضافرت جهود كل دار من المجموعة ذاتها لدفن الميت إلى مثواه الأخير، وقد نال هذا العمل دعمًا كبيرًا من الناس كافة في قومية هوي.. ومع ارتفاع الأسعار في هذه الأيام فإن تجهيز الميت يحتاج إلى مال كثير، وفي ذلك تعاونت المجموعة فيما بينها، الدور الشرقية تحملت مسؤوليتها في تعزية أهل الميت، والدور الغربية ساعدت في غُسل الميت والبقاء طوال الليل عند المسجد، وقد صنعت كل دار باستخدام الدقيق وزيت السمسم، الكيكة المملحة المقلية في زيت السمسم، كما أن بعضًا من الأشخاص الشهام ساعدوا بإعارة عرباتهم، وشراء اللحد، وأقيمت "الجنازة" ببساطة ومهابة؛ ما خفف كثيرًا من آلام أهل الميت.

كان الإمام وان يُجهد نفسه طوال اليوم، غير مبالٍ بأسرته.. ابنه الأصغر وان مينغ لم يلتحق بالجامعة، بل إنه لم يبحث عن وظيفة.. كان الابن يحب أن يمد أبوه يد العون إلى الناس، ولم يكن أبوه ذا بال بما يدور في نفس الولد.. بعدئذ خطرت لوان مينغ فكرة، أن يبذل كل ما في وسعه للحصول على رخصة التجارة، تمهيدًا لأن يعمل لحساب نفسه.

فكر وان مينغ في العمل في تجارة الملابس، فوجد أن إيجار المحل يحتاج إلى مال، وشراء بضائع جديدة يحتاج أيضًا إلى رأس مال، لكن دفتر التوفير الذي لدى عائلته كان به مبلغ خمسمائة يوان أولاً عن آخر، وهذا لا يكفي لإيجار محل.

لا يزال الإمام وان لم يُعِر أمر ابنه اهتمامًا، فهو كل يوم دائم السعي خارج المنزل، ومن المحزن أن يطرحه الإرهاق فراش المرض، ليموت إثر مرضه هذا في المستشفى.

ضجّت أرجاء زقاق نيوجيا كافة بأصوات النحيب، وتوافد المصلون على بيت الإمام وان بلا انقطاع، ووفقًا لعادات وتقاليد منطقة جيانغنان، بعث الناس بالألحفة الحريرية الواحد تلو الآخر إلى أهل الميت، وفي غضون يومين أو ثلاثة، وصل من ثلاثمائة إلى أربعمائة لحاف عالي الجودة إلى منزل وان مينغ.

لا يمكن أن ترافق كل هذه الألحفة الكثيرة الميت إلى مدفنه، كما لا يمكن استبقاؤها جميعًا، لذا اقترح أناس كثيرون على وانغ مينغ أن يفتتح محلًّا لبيع الألحفة.

فكر وان مينغ مليًّا، ثم قال للجميع: هذه المئات من الألحفة تعبر عن مدى اشتياق الناس إلى والدي، ولا يمكنني أن أبيع أواصر المحبة هذه حتى لو كان يعوزني المال! إن شراء لحاف هذه الأيام يحتاج إلى بضعة عشر يوانًا، وقد تكاتفتم جميعًا في شراء هذه الألحفة، منكم من دفع عشرة يوانات، ومنكم من دفع عشرين، وقد بعثتم إلينا بها، ومن غير اللائق إرجاعها، لذا قررت أن أجعلها "وقفًا" أتبرع به إلى المنظمات الإسلامية في المدينة.

في هذه الأيام بدأ المتجر الصغير العمل أخيرًا، وكان وان مينغ يزاول تجارة تقوم على رأس مال صغير، يبيع المناشف والمناديل واللوازم اليومية الصغيرة التي على منوال أشغال الخياطة.. كانت التجارة في المحل رائجة على غير العادة، وكان أبناء قومية هوي في منطقة زقاق نيوجيا جميعهم تقريبًا زبائن لدى متجره الصغير.

* * *

الملاحظات

[1←]

ـ لكل مواطن في الصين سجل خاص به تدون فيه معلوماته الشخصية: اسمه وسجل الإقامة.

[2←]

ـ أي السمينة الصغيرة.

[3←]

ـ نوع من الرياضة الصينية التقليدية.

[4←]

ـ وهي تمارين تعود إلى الطب الصيني التقليدي تساعد المرء على التخلص من الشعور بالجوع.

[5←]

ـ الفِن: عملة صينية تقدر بـ 100/1 من اليوان.

[6←]

- "أسبوع الاستيعاب"، اختبار يقام بمناسبة ذكرى الميلاد الأولى للطفل، ويكون فيه العديد من المقالات والكتب والألعاب ومستحضرات التجميل وغيرها من الأشياء غير المتوقعة، تجمع وتوضع أمام الطفل، والمقال، يمسك به الطفل ويفترض أنه يعطي فكرة عامة عن شخصيته المستقبلية ونمط حياته ومهنته وسلوكه وعاداته وهواياته.

[7←]

ـ وهي الأفكار والثقافة والعادات والتقاليد القديمة صُنفت كذلك في أثناء الثورة الثقافية في الصين التي استمرت من عام 1966 إلى عام 1976.

[8←]

ـ كروت كانت تُبدل بطعام أو دقيق في الصين ضمن البرنامج الاقتصادي من عام 1955 إلى عام 1993.

[9←]

ـ ذلك لتشابه كلمة "يكسر" مع كلمة "عام" في النطق الصوتي بالصينية.

[10←]

ـ لقب كان يُطلق على الحزب اليميني في أثناء الثورة الثقافية.

[11←]

ـ لجنة الإحصاء المركزية بالحزب الوطني الصيني.

[12←]

ـ أحد أقوال الرئيس ماو تسي دونغ أثناء خطبة توضيحية عن أوضاع العالم: "إذا لم يضغط الشرق على الغرب سيحدث العكس، ويضغط الغرب على الشرق".

[13←]

ـ كلما تخلينا عن الرأسمالية زاد نجاحنا، كلما تخلينا عن الرأسمالية زاد نجاحنا!

[14←]

ـ عُشر يوان أو عشرة فن.

[15←]

ـ وحدة صينية تقليدية لقياس المساحة تساوي1/15 هكتارا.

[16←]

ـ يكنسون المقابر تعظيمًا للأموات.

[17←]

ـ الفِن: عملة صينية تقدر بـ 100/1 من اليوان.

[18←]

ـ أسطورة نو وا: تعد "نو وا" هي خالقة البشر، وهي من آلهة الزواج التي تحمي البشرية، كما لها مكانة عظيمة جدًا في الأساطير الصينية، وكان الناس يعبدونها.

[19←]

ـ تشير إلى الشجار بين الزوجين.

[20←]

ـ نوع من أنواع الملابس يكون الكم ملتصق بجسم القميص.

[21←]

ـ 1جياو يساوي عشرة قروش.

[22←]

ـ الحذاء البالي: تشير هذه الكلمة في الثقافة الصينية إلى المرأة المنحلة متعددة العلاقات.

[23←]

ـ هي خطة عمل استراتيجية أسسها الزعيم دينغ شياو بينغ من أهدافها الوصول بالصين إلى مستوى الدول المتقدمة، من خلال عمليات تحديث في أربعة مجالات رئيسية هي: الصناعة والزراعة والجيش والتكنولوجيا.

[24←]

ـ أن تُطبع وتُنشر.

[25←]

ـ أهتم بالعمل ولا أسعى وراء المنفعة.

[26←]

ـ ميناء اللؤلؤ.

[27←]

يعني في الصينية: شاي.

[28←]

هوي: قومية مسلمة وهي من بين ستة وخمسين قومية في الصين.

[29←]

استخدم طريقة غير السؤال عن عمر الستين: ？吧了甲花过已寿高您.

[30←]